

الكتاب مزود بعدة لوحات تمثل الفنون المغربية المختلفة

عبد المميز بن عبد الله
خارج كلية الحقوق والآداب
جامعة الجزائر

مِطَاةُ الْمَرْكَبِ ضِلَالَةُ الْمَغْرِبِ

القسم الثاني الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨

مقروء لطبع محفوظة للمؤلف

تَشَرُّفٌ

السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع

مكتبة الجزائر رقم ٣٨ . صندوق البريد ٤٠١٥ تليفون ٣٥٤٠٠١ البيضاء

✕ عبد العزيز بن عبد الله ✕
خريج كليتي الحقوق والآداب
(جامعة الجزائر)

✕ رِظَاهِرُ الحَضَارَةِ المَغْرِبِيَّةِ ✕

(القسم الثاني)
(مع صور ولوحات فنية مختلفة)
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



يناير 1958



جلالة ملك المغرب محمد الخامس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كان لي عظيم الشرف باهداء القسم الاول من «مظاهر الحضارة المغربية» الى عالم الشباب ورمز النبوغ صاحب السمو الملكي ولي العهد ورئيس اركان حرب القوات الملكية المسلحة الامير مولاي الحسن الذي تفضل حفظه الله فأبلغني عن طريق مدير ديوانه سامي تشجيعاته كما كتب حضرة الزعيم الاستاذ علال الفاسي في «العلم» الغراء صفحة اشاد فيها بمصنفي المتواضع وان كانت أريحية الزعيم هي التي أملت عليه ذلك الاطنا ب الذي لا أستحقه وأرجو ان أكون قد

سددت في هذا القسم الثاني بعض الفراغ تلبية لاقتراح حضرة . ولاشك ان لحضارتنا مظاهر شتى لا يفى بها بحث مختصر كهذا لاسيما وان الموضوع بكر وعناصر البحث منتشرة وضيق الوقت لا يسعف غير ان جميل التفات صاحب السمو الملكي وحسن تقدير الزعيم علال وكثير من الشخصيات المغربية والعربية كل ذلك حداني الى العمل على اكمال بعض النقص الملحوظ في هذا البحث الذي أرجو ان يجد فيها القارئ الكريم مدخلا مفيدا لتاريخ المغرب ومراة ناصعة لحضارته وستعقبه ان شاء الله ابحاث أخرى في الموسيقى والطب والهندسة بالمغرب

كما سيصدر في نفس الوقت باللغة الفرنسية مصنفي الجديد حول «التيارات الكبرى للحضارة المغربية» وهو كتاب انصرفت الى اعداده منذ عقد من السنين وتأخر طبعه استجابة لاقتراح حضرة الامين العام لحزب الاستقلال الاستاذ الحاج احمد بلافريج الذي طلب مني عام ١٩٥١ ان أوثق عناصر البحث باكثر ما يمكن من النصوص المغربية والاجنبية وقد فعلت وارجو ان يجد القارئ الاجنبي في ثنايا هذا العرض النقدي صورة حية لمختلف التيارات التي كان لها نوع من التأثير في تاريخ الحضارة المغربية .

الرباط - صفر ١٣٧٧ الموافق شتنبر ١٩٥٧

عبد العزيز بن عبد الله

إهداء

الى عالم الشباب وأمير العلماء صاحب
السمو الملكي ولي العهد مولاي الحسن

تقديم

بقلم
عبد الله الفاسي

أول ما يبعث الامة على الاستقرار في الفكر والطمأنينة في النفس ثقتها بنفسها وبكيانها وايمانها بشخصيتها ، ولذلك فان المستعمرين لا يالون جهدا في محو هذه الثقة من نفوس الشعوب التي يحلونها ويحلون مكانها الايمان بحضارة الاجنبي وقيمه وتفوقه على كل التراث الاهلي ، فتنبه الامة لمعرفة تاريخها وبعث ثقتها في نفسها خير يدعوها الى اليقظة والى التقدم للعمل في جو من الرضى الباعث على الاستقرار .

وقد ادرك هذه الحقيقة صديقنا السيد عبد العزيز بنعبد الله فانكب ينقب عن مظاهر الحضارة المغربية حتى اخرج لنا كتابا قيما في الموضوع ، يمكن كما قال المؤلف أن يعتبر مدخلا لدراسة تاريخ المغرب ، وقد تصفحنا المؤلف فوجدناه مفيدا للغاية ومحققا للغرض المنشود منه ، وحمدنا الله على أن هدى واحدا من اخواننا الاستقلاليين لاداء هذه المهمة التي ليست بالسهلة على الباحثين .

والحق أنني في أثناء مقامي بنيويورك ، لاحظت ضرورة العناية بتصنيف كتاب عن حضارة المغرب بحقيقة تاريخنا وراثتنا القومية والانسانية للأمريكيين والاجانب حتى يتقنوا بان شعبا له ما ضيه المجيد مثل مالنا جدير بان يحيى حياة العزة والكرامة والحرية ، وقد اتفقت مع صديقنا الدكتور رضى الله على القيام بهذه المحاولة وبدأ يشتغل ولكن ظروفنا خارجية عن ارادتنا حالت دون انجاز العمل ، وقد حقق اميتنا الاستاذ بنعبد الله باصدار هذا الكتاب الذي جاء في ابانه

ونلاحظ على حضرة الاخ المؤلف اهماله لبعض جوانب الموضوع الذي تناوله اذ ليس في مؤلفه فصل يتعلق بالموسيقى المغربية مع انها من أهم مظاهر حضارتنا ، وكل حضارة انسانية ، كما انه لم يتناول بالبحث الدقيق موضوع العمارة المغربية ووقوفها الموقف الوسط بين الهندسة العربية الشرقية وبين هندسة الحصون البربرية وتنقصه كذلك المامة شيقة بمظاهر التعاون المغربي التي تتجلى في كثير من العادات وكثير من الاوقاف الاسلامية التي يعرف الاخ المؤلف عنها الشيء الكثير .

ولكن ذلك كله لا ينقص من قيمة عمل الاستاذ ، ويمكن ان يتداركه في طبعة مقبلة باذن الله .

بارك الله في همة اخينا ابني فارس وكثر في الشباب الاستقلالي من امثاله

وحدة المغرب العربي

المغرب في عرف المؤرخين العرب هو مجموع الاقطار الافريقية الممتدة غربى مصر بما فيها برقة وطرابلس ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول لانه يستند الى حقائق انسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار الجغرافى ، كما لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والتراث .

وسنستعرض فى هذا البحث بحول الله المجالى المختلفة لهذه الوحدة التى تجعل من المغرب العربى قطعة متراصة من القارة الافريقية .

« ان جزيرة المغرب » محاطة بالبحر فى أهم جهاتها (شمالا وغربا وشرقا) وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها فى الفيا فى الافريقية نظرا للمقومات الجوهرية التى يتركز عليها المجموع .

نعم ان هذه الصحراء التى هى أعظم صحراء فى العالم كانت فى الماضى أكثر عمراناً منها اليوم كما كانت مسرحاً لتطورات عميقة تجعلها من صميم المغرب العربى .

ومع ذلك فان الاقليم الذى تسلسلت فيه الحضارة بكيفية أعمق وأبهى هو ذلك الجزء الذى يمتد على ضفاف البحر الابيض المتوسط الذى كان يسمى بحر العرب والمحيط الاطلنطيكى أو بحر الظلمات فى شريط هائل طوله ثلاثة آلاف ك . م . وعرضه مائة وخمسون ك . م . ولكن مجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم وهو امازيغ من طرابلس الى قابس الى الصويرة (سوردون - مؤسسات واعراف البرابر بالمغرب ص ٢٧) .

وقد اندمجت المؤرخون الغربيون للسرعة الحارقة التى كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية فى ظرف سنوات معدودة بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها فى مركز من المراكز الى أقصى التخوم مثال ذلك ان بعض امراء نوميديا (الجزائر الحالية) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة الى راشكون (تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القيروان الى فاس وابن تاشفين من الصحراء الى قلب الجزائر وعبدالمومن الى طرابلس وابى الحسن المرينى الى حدود برقة (١)

الا أن معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة زاعمين أن من خواص المغرب وكذلك الشرق انعدام نقطة مركزية أصيلة تلتف حولها الامة على نسق ما جرى مثلاً فى أوربا حيث انبثقت نواة مركزية كدولة بروسيا وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة ثم ترعرعت تدريجيا الى أن تكونت منها الدول الألمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية ولعلنا فى غير حاجة الى التدليل على أن عناصر الوحدة التى تتوفر جوهرها فى المغرب العربى وتكاد تنعدم لحمتها بين الشعوب الاوربية هى القوام الحقيقى لتلك الظاهرة التى لم

تتحقق قط لفاتح اجنبى غير العرب . ويقول اولئك المؤرخون أيضا بأن الفكر الشرقى ومنه الفكر البربرى يتصور ان تاريخ الشعوب يتسلسل خارج الاطار الجغرافى بمعنى أن الوطنية العربية أو البربرية لا تتركز فى نظره على التراب ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاتيته الخاصة وان الجهاز القبلى الذى هو نواة الدولة يفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الاقليمى لانه جهاز جنسى قبل كل شئ . ولعل هذا الوهم المستتب فى أذهان الغربيين راجع الى عدة عوامل منها ان الاسلام فى عهده

(١) المسند لابن مرزوق - مسيريس ج ٥ ص ١٩٢٥

الاول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة لانه كان يهدف الى نشر فكرة لا تحدها تخوم مصطنعة ومنها كذلك أن جوهر القبيلة سلالى ككل قبائل العالم ولكن الشيء الذى أغفله هؤلاء المؤرخون هو أن فى المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل أخرى وأعطت بذلك

الاسبقية للاطار الجغرافى وقد يكون الوازع فى هذه الحال اما امكانيات اقتصادية أوفر واما عواطف خاصة من نوع الحنين الى مسقط الرأس ومرتع الصبا وعلى كل فان نظرية الغربيين فى هذا الموضوع تنطوى على شيء غير قليل من الافتعال .

وقد شعر سوردون فى كتابه « مؤسسات واعراف البربر فى المغرب » (ص ٤٣٨) بما فى ذلك من التناقض فصار يتلعثم فى الدفاع عن هذه الفكرة التى روجها أول الامر بعض المستشرقين والتى تريد أن توفق بين تعلق البربرى بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن .

واذا كان هناك قبائل رحالة تنتقل من الجبل الى السهل حسب الفصول انتجاعا للماء والكلا فانها تبتعد غالبا عن مركزها الاصلى الذى تقوم فيه مستودعات وبنائيات قارة بأقل من مائة كيلومتر وقد تحدث ابن خلدون عن بعض هذه القبائل فعلى أيضا انتقالها عن مساقط رؤوسها بضيق العيش فى اطارها الجغرافى الاصلى لا سيما وانها تسكن الحيام المنقولة .

على انه يمكن أن نرى فى هذه الهجرة نفسها دليلا جديدا على أن العقلية البربرية لا تفرق بين

أنظر رقم (١)

أجزاء هذا الوطن الاكبر الذى هو مجموع المغرب وانه متى أعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش فى ناحية انتقلت الى أخرى ضمن الاطار الجغرافى العام بل هناك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل الى الانتقال الى أجزاء أخرى وكيف لا وهى تشعر هنا وهناك بنفس المناخ ونفس

الطبيعة ونفس الذهنية والعواطف على ان البحث عن الحيز الحيوى ولو بالانفصال عن المفر الاصلى غير مستعبد حتى فى أوربا التى هاجر رجالها الى امريكا حيث كونوا لانفسهم موطناً جديداً وفى ذلك ما يحدوا الاوربيين حسب م . كوتى الى تغيير نظرهم فى ضرورة القوام الترابى للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص ٩٣)

ومع ذلك فان هذه الظاهرة أو تلك لم تكن حادثة لنفى الاطار الجغرافى كبقوتة لانصهار مقومات الوطن لاسيما وان بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لايتطلبون فى تكوين الامة سوى وحدة التاريخ والعواطف

فلنستعرض الآن قبائل زناتة مثلاً والدور الذى قامت به العوامل السلالية فى تكوين المغرب العربى

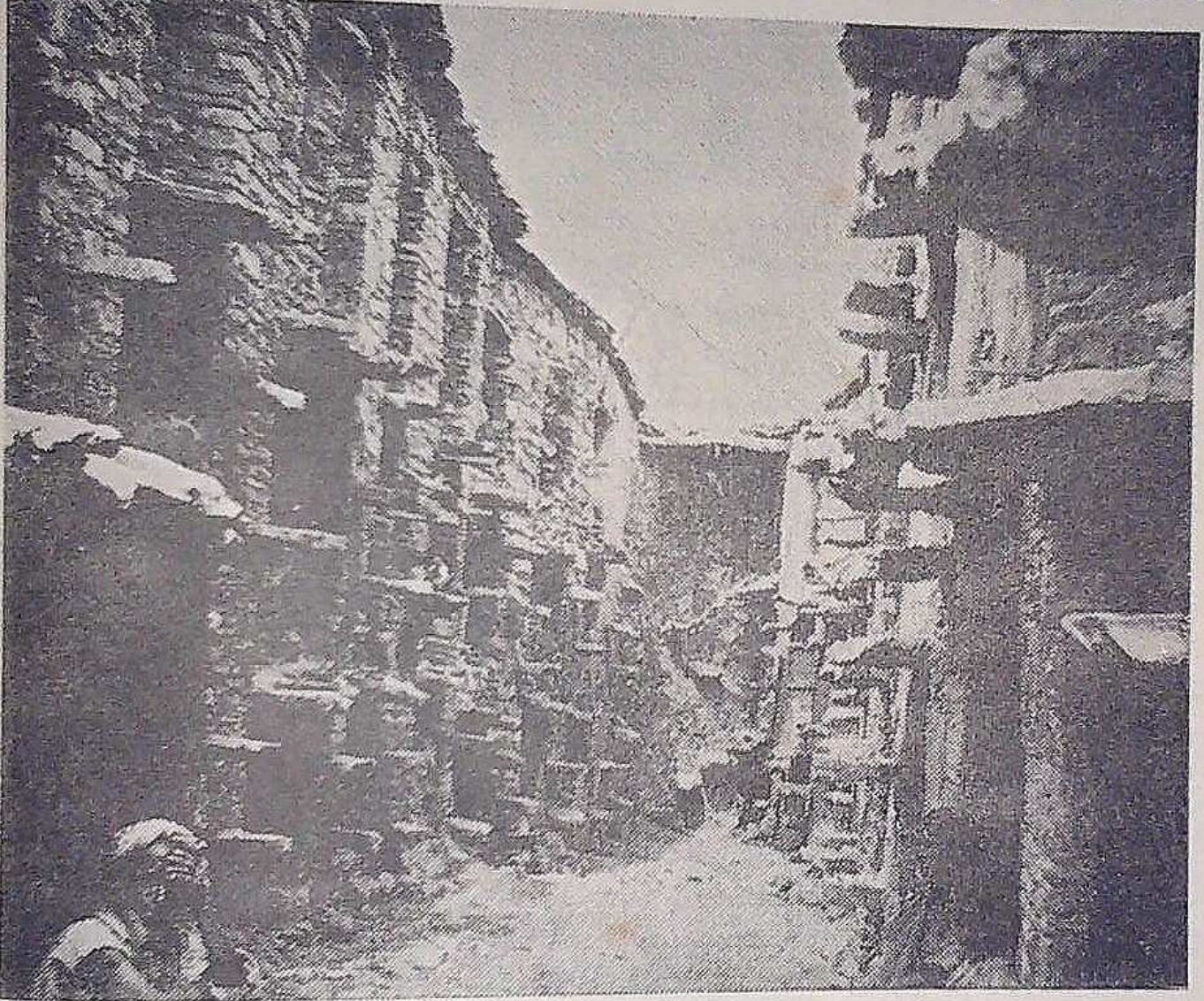
فقد قرر ابن خلدون - وأقره على ذلك مؤرخون غربيون أمثال كوتى وكزيل - أن زناتة الذين خصص لهم سفراً خاصاً فى تاريخه منتشرون فى المغرب من غدامس الى سوس الاقصى بل يكونون معظم سكان مداشر الصحراء وأنت تجدهم اليوم فى كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك فى مزاب وورغلة وقد لاحظ ابن خلدون وجود زناتة كذلك فى ناحية طرابلس ووسط سهول افريقية وجبال الاوراس بالجزائر وما زال الى الآن فى جبل نفوسة الطرابلسية « برابرة لهم صلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية » ويشعرون الى الآن بقربانهم مع المزابيين » (كوتى ص ١٩٥) ويؤكد ابن خلدون ايضاً ان معظم الزناتيين يقطنون المغرب الاوسط (اى الجزائر) وينصب الوادى الزناتى الى اليوم شمالى الاوراس فى حدود سهول قسنطينة والتل وقد تغلغت اللغة العربية فى المواطن الزناتية واعترف بذلك بعض المستعربين المعاصرين ومن زناتة كذلك بنو يقرن الذين أسسوا ممالك فى أغمات وشالة وتادلة حيث ظلوا قابضين على زمام الحكم الى عهد المرابطين فى حين أقام بنو عمهم المغراويون ممالك فى فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى فى طرابلس

واذا تتبعنا مواطن زناتة وجدناهم استوطنوا فى المغرب الاقصى حيث تسربوا من وجدة وفاس وممر تازة الى سهول المحيط الاطلسى المتسمة كلها بالطابع العربى وهكذا نرى ان زناتة التى انتشرت فى مجموع افريقيا الشمالية تمثل احدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب

ولا يخفى ان البربر اما برانس أو بتر ونصف هؤلاء البتر من نفوسة ولواتة أى من أصل طرابلسى ولواتة بالخصوص قبيلة اصلها من برقة يقال انها من ارومة قبطية « وقد لعبت دوراً هاماً فى بداية تاريخ المغرب العربى » كما يقول كوتى وقد غمر اللواتيون الواردون من الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضواً قوياً للدولة الحفصية فى تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة وأحواز تلمسان وفى عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيلالت مطغريين وانبث المطغريون كذلك فى واحات النخيل بين توات وفجيج وقد أكد كوتى أن فجيج هذه كانت فى القرن الرابع عشر الميلادى هى البقعة الوحيدة التى احتفظت فيها عائلة مطغرية بالسلطة السياسية (٢٠٦)

وينتسب المطغريون لبنى فاتن الذين توجد لهم فروع أخرى فى افريقية وباقي نواحي المغرب لاسيما أقاليم المغرب الاوسط المحاذية للصحراء وهم الذين أسسوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعد سقوط هذه المملكة الى جنوب القطر التونسى حيث أسسوا جزيرة جربة ومن بين هذه الفروع قبائل مغيلة التى تقطن بالمغرب الاوسط من مصب شليف الى مدينة مزونة والمغرب الاقصى بين فاس وصفرو ومكناس وكذلك مديونة فى مقاطعة تلمسان وممر تازة شمالى فاس ومن أهم قبائل بنى فاتن كومية التى انتقل قسطنطينها مع عبد المؤمن الكومى الى

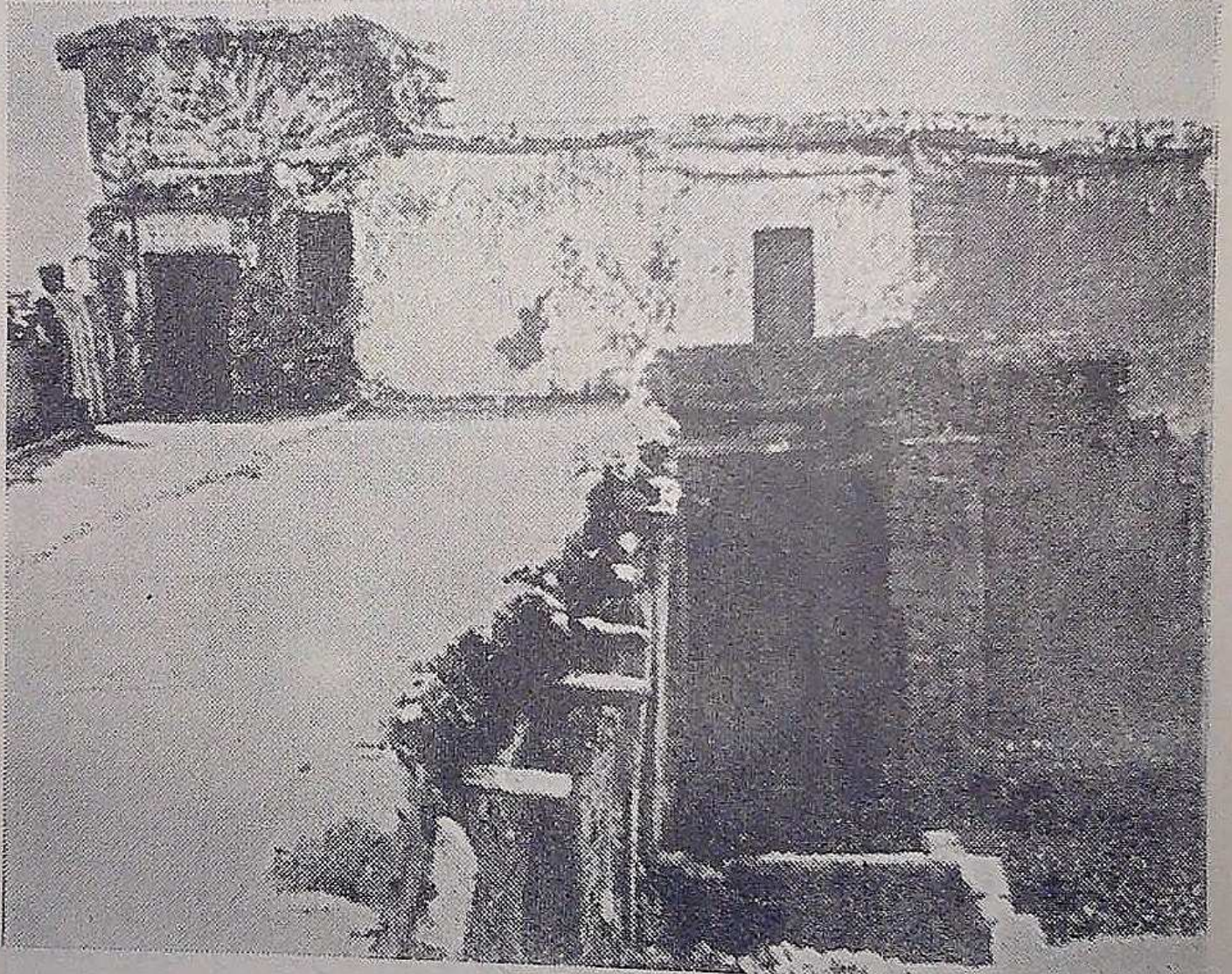
المغرب وفي هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقد أكد اللغوي الخبير ويليام هارسي أن لهجته ندرومة عربية قديمة ربما دخلت إليها في العهد الموحدى وتقطن في نفس المقاطعات مكناسة التي أسست كرسيفورباط تازة وأقامت مملكتين أحدهما في التسنول (ناحية تازة) والآخرى في سجلماسة ودائرتها ويتجلى من هذا العرض أن البتر أو زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجاد والوهاد من طرابلس إلى تازة واصلين بحبل وثيق أقطار المغرب العربى وصحراء ذلك هو بعض الدور الذى قام به البتر فماذا كان دور اخوانهم البرانس ؟ ان قبائل البرانس التى اتسمت بأهمية كبرى فى توجيه تاريخ المغرب العربى هى كتامة وصنهاجة ومصمودة



صوره من اجدير تمثل مخزنا عاما للجبوب ومختلف مساكن القبيلة من ثلاث طبقات تتشابه هندستها من الاطلس المتوسط الى طرابلس . وهى مظهر للوحدة الاقتصادية والاجتماعية

فموقع كتامة الجغرافى هو الاطار الذى تركزت فيه الدولة الفاطمية والذى كان تابعا لبنى أغلب امراء افريقية وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم وبعد انهزام أبى يزيد « ابو حمارة » ، الذى كاد يضعضع اركان الدولة الفاطمية الفتيحة رجع المنصور الفاطمى الى القيروان حيث أسس المنصورية فى ارباضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة فى كل ذلك دورا أساسيا حيث كانت السند الاقوى للفاطميين ومنذ ذلك العهد صار الحكم فى المغرب العربى الى البربر المسلمين طوال عدة قرون

والمقاطعة القبائلية في الجزائر هي الموقع الاصلى لقبيلة كتامة التي مازال سكان شرقيها يتكلم لهجة عربية ومعلوم ان اللغة العربية دخلت مبكرا الى تونس وسهول عناية حيث خلقت مباشرة اللغة البونيقية التي يجمعها معها مصدر واحد في حين أنها لم تدخل الجزائر - في نظر ابن خلدون - الا في القرن الثامن وربما كان لكتامة اثر في تعريب الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الاوسط وهذا الدور الذي قامت به كتامة في تاريخ المغرب العربي بل وفي تاريخ الشرق الاسلامي لم يمتد أكثر من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل في الاعماق حيث أدى الى تأسيس الخلافة الفاطمية وانتقال الكتاميين انفسهم الى الكنانة اما صنهاجة فانها قبيلة ترعرعت وامتدت فروعها في اقاليم شاسعة من المغرب العربي وهي تقطن ناحية « القبائل » من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنها الزنوج في بلاد السنغال)



مناظر لهندسة البناء في فجيج حيث يوجد طابقان واحيانا ثلاثة (رقم ١)

وشرقي الاطلس بين ممر تازة الصحراء وهم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة الا مقرونة بكتامة وينتسب كلاهما الى حمير - على ما يقال - واذا كان اسم صنهاجة قد اندثر في «قبائل الجزائر فان البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية الا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بليدة والمدينة (كوتبي ص ٣٣٥)

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الاوسط وافريقية ليسوا من القبائل الرحالة مثل بني عمهم المرابطين وقد خلف الفاطميين في المغرب أمير صنهاجي هو بلقين بن زيري بن مناد الذي أسس مدينة أشير عام ٣٢٤ هـ ثم بعدهما جزائر بني مزغانة ومليانة والمدينة

وقد أسس حماد بن بلقين (عام ٣٩٨ هـ) القلعة المعروفة بقلعة بنى حماد وهي العاصمة الثانية لبني زيري الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة ارباع قرن الى بجاية وهي العاصمة الثالثة والاخيرة لصنهاجة وقد أكد كوتبي أن المملكة الصنهاجية خضعت لتأثيرات الشرق حيث أبرز بيلي في حفريات الطابع الشرقي الذي تتسم به الهندسة المعمارية (الطابع العراقي في أروقة قلعة بنى حماد والطابع الفارسي في زخرفة الاواني) اما المصامدة فهم سكان الاطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحدين ومنهم ايضا عمارة سكان الريف

وقد اتضح الآن أن مجموع الجبال المغربية و « القبائل » الجزائرية كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة أوربة وهي قبيلة كسيلة الشهيرة التي كانت تسكن غربي الاوراس حسب «مسكاري» ويقطن عقبها اليوم في سهول وادي العبيد ووادي العرب ويظهر من كلام ابن خلدون أنهم كانوا منتشرين في التل الوهراني وناحية تلمسان وحتى ممر تازة ، وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بن نافع وانهزام كسيلة الى المغرب الاقصى حيث نزلوا مدينة ويلي المعروفة ايضا بقصر فرعون وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الاقصى الجغرافية والتاريخية حيث أن شكلية الاراضي نفسها أقرت رابطة طبيعية بين اقليمي الاوراس والملوية الذين كان امراء نوميديا (أي الجزائر) مثل سيفاكس وماسينيسا وجو كورطا متارحين بينهما

ولكن اين الصحراء من كل هذا؟ الى أية شعبة ينتسب البربر الذين يتغلغلون في أعماق الصحراء المتاخمة للسودان؟ انهم بربر اشهرهم التوارك أو الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من نصه وبنوه الا أن علماء السبب يرون في هؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتونيون الذين أسسوا الدولة المرابطية وهم من قرابة صنهاجة الاطلس وصنهاجة الجزائر فهم اذن برانس وهنالك فريق آخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوارة الذين جاءوا من برقة وطرابلس ولعبوا دورا هاما في تونس والاوراس الجزائرية فهم اذن بتر من بنى عمومة البرانس وقد يلاحظ أنني لم أميز في بحثي هذا بين العرب والبربر وقد فعلت ذلك عن قصد لان هذا الميز يكاد يكون غير موجود سواء اعتبرنا الارومة العربية للبربر تبعا لرأي كثير من علماء النسب أم اعتبرنا الوحدة الطارئة اثر التوالد والامتزاج بين الجنسين أو مظاهر الوحدة الاجتماعية والفكرية او غير ذلك فقد أكد مؤلف عصور المغرب الغامضة « (ص ٢٢١ - ٢٢٥) » أن نتائج الفتح العربي بعد مرور اثني عشر قرنا تبعث على الدهشة لان المغرب استعرب على نطاق واسع كما تغلغل الاسلام في أحشائه وشمل مجموع أجزائه «وقلما أحرزت الفتوحات في تاريخ المعمور مثل هذا النجاح ٠٠٠ لقد شعر ابن خلدون أن أمامه بالمغرب وحده سلاية كبرى» ثم قال كوتبي (ص ٢٥٤) «اننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين الرحل البربر والعرب ذلك أن تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية أقوى من اختلاف اللغات» وقد أشرب الى ما قاله رونان وهو أن من دعائم الوطن الوحدة الروحية وأهمها وحدة الدين والعواطف فالمغرب الذي احتك نحوالف من السنين بالحضارة القرطاجية واليونانية الشرقية قد احتفظ في قرارة نفسه باحساسات واستعدادات فطرية نصف لا شعورية تفتح للاسلام» (٢٥٦) لهذا فقد اندرج في بحبوحة الاسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف وكل من يحس بالحاجة الملحة الى لغة مكتوبة والى أدب» (ص ٢٥٦) والظاهرة الجديدة التي تتحدى تاريخ أوربا كلها هي أن العربي الفاتح «عبر في طفرة واحدة مساحات المغرب الشاسعة ناهجا المسلك الطبيعي الدائم بين الهضاب وممر تازة ٠٠٠ وعبر مضيق جبل طارق متجها لفتح الاندلس صاحبامعه القبائل البربرية» (ص ٢٥٧) وأغرب من هذا أن الاندلس الذي هو من طينة سلاية غير طينة العرب ولا البربر علق هو أيضا بالعروبة ومظاهرها «وأهمل حتى الادب اللاتيني - حسب المؤرخ دوزي- أعرق الاهمال واحتقره أبلغ

الاحتقار بينما أحس بالادب العربى يلهب سويداءه وشعر بمتعة لانهائية خالصة « كان الاندلسى مستعدا للتنازل عن الادب اللاتينى كله فى مقابل نتف من الشعر العربى وهذا معيار لنفوذ العرب وسلاح قوى لكسب القلوب » (٢٥٩) وماثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سبو ثم من قابس الى فجيج الى سجلماسة سوى طفرة نحو دعم وحيدة المغرب بايعاز دعاة العرب وتحت شعار الاسلام . لم يكن فى هذا أى مظهر مقصود لما رعمه المستشرقون من وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما اصطبغت الثورة بتلك الروح ولا بذلك الشعار غير أن هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم أن تمخضت



أنظر رقم (١)

عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلى فاشيع باسمها الدمار فى افريقية ولكنها أدت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهى كما يقول كوتى (ص ٢٧٣) ركيز السيطرة العربية» فى مجموع المغرب من افريقية الى تاهرت الى تلمسان الى مراکش ولعل من أهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى ادريس الذى احترمه حتى الاغالبية التونسيون - على قول التويرى - لقرايته من الرسول واذا كان من عادة امراء البربر الاستناد الى قبيلة مثل كسيلة مع أوربة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية فان المولى ادريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها

ابن خلدون زواغة وزناثة وسدراتة وغياته ونفزة ومكناسة وعمارة وجميع القبائل الاخرى التي كانت تستوطن المغرب مثل أوربة ومطغرة (التي ساءت ميسرة من قبل) ومقيلة الجزائرية هذا علاوة على بنى يفرن ومغراوة أى مجموع الكتلة الزناثية من فاس الى الشليف الجزائرى ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مئات من العرب اخترق بهم تامسنة الى تادلة الى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبية الى نشر الاسلام وحضارته فى صقلية وهذه هى المرة الاولى التى تطافها اقدام فاتح اجنبى تسرب هذه الناحية من جنوب المغرب «لان الامبراطورية الرومانية لم تستطع قط المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة فى المغرب الجنوبي» (ص ٢٨٩)



منظر عام لقرية اطلسية فى سفح الجبل

ويحق للمؤرخ كوتى القول بان تاريخ المغرب الاقصى يبتدىء من هذه الفترة التى انفتحت بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق .
«وقد عاد المغرب الاقصى فى عهد المرابطين - كما يقول الاستاذ «طيراس» فى تاريخه (ج ١ ص ٢٥٧) كما كان مغرب مزدهرا تحتف به الطمانينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان» كما ازدهرت فى عهدهم وبفضلهم فى الاندلس حضارة الاسلام (ج ١ ص ٢٥٩) وقد أمكن لابن تاشفين بفضل الفكرة الاسلامية وعزيمته القوية أن يوحد جبال الاطلس (ج ١ ص ٢٧٣) وان يؤسس مملكة مترامية الاطراف تمتد من قشتالة بالاندلس الى الجزائر (ج ١ ص ٢٣٨) وعند المومن هو الذى وحد المغرب الاسلامى للمرة الاولى فى التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة الى طرابلس (ج ١ ص ٣١٤) .

وهكذا قامت للمرة الاولى في التاريخ - حسب المؤرخ كزِيل - دولة موحدة في مجموع المغرب العربي (سوردون - الكتاب المذكور ص ٢٨) ولكن في هذا العهد (القرن الخامس الهجري) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية اذ ذاك هي اللغة الوحيدة المنظمة بالمغرب بالمعنى العادي للفظ لغة أى جهاز كامل الاجزاء بمفرداته ونحوه وكتابته وأدبه، بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشعبية خارج الحواضر (عصور المغرب الغامضة ص ٣٨٦) غير أن العرب الجدد اشاعوا اللغة العربية في شكلها الدارج حيثما حلوا أى في البادية نفسها وبذلك «تغلغلت العربية في تونس وحواشى الاوراس والهدنة وهضاب اقليم وهران وسهوله وتسربت من ممر تازة الى سهول المحيط الاطلسي أى في مجموع البلاد التي تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا أن العامل اللغوي انضاف الى العامل الجنسى لترصيص الوحدة بين هذه الاقطار من المغرب العربي وقد امتد اشعاع اللغة البونيقية التي كانت تشتمل على نسبة مهمة من العربية من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية ثم الى بلاد الجريد والاوراس (تاريخ المغرب - كواساك ص ٣١) مثال ذلك ما لوحظ في البونيقية من أن لفظ «ملك» لها نفس المعنى في اللغتين (سوردون - الكتاب المذكور ص ٣٦)

على أن عرب معقل بلغوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم اذ ذاك على المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير من صحراء المغرب ومنها شنجيط على أن أفواج بنى هلال وبنى سليم التي احترقت ألفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت لتتعدى مائتي ألف نسمة على أكبر تقدير واذا صدقنا الاستاذ كوتبي القائل بأن سكان مغرب القرن الخامس كانوا أوفر منهم اليوم أمكننا ان نقدر النسبة الضئيلة التي تمثلها هذه الهجرة العربية التي استطاعت مع ذلك أن تترعرع في شحصر الاعراب الذين ساهموا في رفع نسبة التوالد بين الجنسين، امتزاج السلالتين ذلك أن هؤلاء الاعراب ما لبثوا أن عمروا كما يقول كوتبي (ص ٤٠٥) «مجموع الصحراء الشمالية في سفوح الاطلس الى بحر الظلمات» ثم بعد ذلك سهول أزغار وتامسنا وتادلة ودكالة ومما يدل على تسرب العربية عن طريقهم الى الصحراء ان «بعض التصارييف النحوية التي اندثرت في المغرب توجد الآن في الصحراء» (٤٠٥) .

وفي الجزائر نفسها شاهد ابن خلدون انتشار هؤلاء الاعراب الذين ما لبثوا أن اندرجوا في سلك قبائل زناتة الاصلية بل كان لوجودهم بين ظهرائى البربر تأثير قوى أدى بالكثير الى تبني اللغة العربية كما وقع في افريقية حيث اعتنقت هواراة ماللهاليين والسلميين من أعراف وأساليب في الحياة واللباس وغير ذلك بن تركت البربرية حتى أصبحت نسيب منسيا واتخذت مكانها لغة الضاد وقد انتشر بنوزغبة وهم من العرب في المغرب الاوسط حيث سكنوا الحواضر والبوادي واندمجوا في زناتة ولاحظ ابن خلدون أن العرب أصبحوا يستوطنون في عصره مجموع نواحي بجاية وقسنطينة التي كانت موطن زواوة وكتامة وعجيسة وهواراة اللهم الا بعض الجبال المنيعه

ثم جاءت الهجرة الاندلسية فانتشرت اللغة العربية والحضارة الاسلامية في مجموع المغرب مع فلول الاندلسيين التي استقرت بالحواضر الكبرى مثل تونس ووهران وتطوان والرباط وفاس وحتى في بعض النواحي الجبلية مثل فازار بالاطلس الاوسط وقد تغلغلت الروح العربية في نفوس البربر الى حد أن الرحل العرب بدون استثناء - كما يقول كوتبي (ص ٤١٠) أصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب الى أرومة بربرية فهم يرون في هذا الاحتمال سببا لهم وضربا من المحال وهم لا يكتفون باتخاذ العربية لغة لهم فحسب بل يؤكدون أنهم عرب وأنه لا تجرى في عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية وهكذا نجد العرب اليوم

مستقرين في الموطن التي كانت تعمرها زناتة في العصور الوسطى» فهذا الاشعاع الخالد الذي تمخض عنه الفتح الاسلامي واستتباب الروح العربية منذ ازيد من ألف سنة يتناقض مع ذلك الانحفاء الكلي الذي منيت به الحضارة الرومانية في المغرب العربي فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربيين ومن بينهم سوردون (كتاباه المذكور ص ٤١) «ان خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية» نبخرت في المغرب في ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قرطاجنة على يد جنسيريك عام ٤٣٩ م الى أن فتح عقبة بن نافع مدينه طنجة عام ٦٨٢ م وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب أي تراث روماني غير الانقاض»



قرية أطلسية

هذا في حين أن حضارة البونيك ظلت متأصلة في المغرب العربي حيث امتد نفوذها الى القرن الخامس أي طوال الاحتلال الروماني «محققة بذلك فترة انتقال سهلة الى الفتح العربي» (سوردون ص ٣١)

ولكن لماذا نجحت حضارة البونيك حيث اخفقت مدنية الرومان ؟ يظهر ان وجود القرطاجنيين في المغرب يرجع الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد أسست قرطاجنة عام ٨١٣ قبل الميلاد ولكن مدينة «اوتيكا» التي أسست بالقرب منها هي أقدم وكذلك المدينتان المعروفتان بـ «هيبو» وهما بنزرت وعناينة أو مدينة «ليبتييس ماكنة» أي طرابلس وتم هدم قرطاجنة عام ١٤٦ قبل المسيح بحيث يمكن القول بان النفوذ الفينيقي بالمغرب استمر عمليا ألف عام وكانت قرطاجنة هذه تمثل في غربي البحر الابيض المتوسط الحضارة الشرقية التي هي أقدم حضارة في العالم وقد فضل الفينيقيون الاستيطان في السواحل واقامة مدنها على طولها حفظا لملاحتهم التجارية ومن بين تلك المدن قرطاجنة التي صارت عاصمة المغرب والتي دمرها الرومان في «الحرب البونيقية الثالثة» التي كانت معركة دمار تهدف

لمنع الزعيم ماسينيسا من الاستيلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى - تلك هي نظرية المؤرخ كزِيل الذي أكد من جهة أخرى أن ماسينيسا هذا تمنى أن يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ما كانه الإسكندر المقدوني بالنسبة للحضارة الإفريقية» لاسيما وأن هذا الامتزاج والتداخل كانا قد قطعاً أشواطاً في المغرب لانهما تهيئتا منذ قرون (كوتبي ص ١٠٢)

ويرى كزِيل أن قرطاجنة لم تبذل قط جهوداً منظمة لادماج المغرب ولم تستعمر البادية المغربية مثل روما وقد أسست نحو العشرين مدينة في الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجني بالدم البربري فكانت لحمة أولى بين الشرق العربي الممثل في القرطاجنيين وبين المغرب المشخص في البرابرة وكانت لغة البونيك (التي تقرب من آرامية أهل الشام) اللغة الرسمية عند أمراء نوميديا القوميين ولكن النفوذ البونيقى تجاوز نطاق الحدود التي كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية في تونس وشرقي الجزائر وأكد سان- أو كستان (الذي ولد في منتصف القرن الرابع الميلادي) أن اللغة البونيقية كانت منتشرة في البادية في عهده وأكد «بروكوب» أنها كانت دارجة في القرن السادس والمسافة قصيرة بين هذا العهد والفتح الإسلامي لهذا يقول كزِيل - أن في وسعنا أن نفرض أن البربر تبنا لغة الإسلام لأنهم تعلموها بدون مشقة لمعرفة البونيقية التي لا تختلف عنها كثيراً (تاريخ إفريقيا الشمالية القديم ج ٤ ص ٤٩٨) وقد استند كزِيل نفسه إلى وثائق قديمة أشار إليها في كتابه واستنتج منها كوتبي (عصور المغرب الغامضة ص ١٦٥) تسلسل تاريخ المغرب «تسلسلاً عميقاً» وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقى إلى المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد إذ ذاك من صيدون (وهي صيدا الحالية) إلى مصر وعند ما اكتسحها العبريون هاجر الفينيقيون من وطنهم إلى بلاد الكنانة التي كانت في حدود بلادهم ومنها إلى المغرب حيث انتشروا إلى «إساطين» هرقل (مضيق جبل طارق) ولهذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب في انتساب كتامة وصنهاجة إلى حمير ومعلوم أن الحميريين اقطن الملاح التجارية بين الهند وشرقي حوض المتوسط هم مثل الفينيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان بين البربر - في نظر ابن خلدون - قبائل حميرية ومصرية وقبطية وكنعانية وقرشية تجمعت في الشام وبها غزا إفريقش الحميري المغرب .

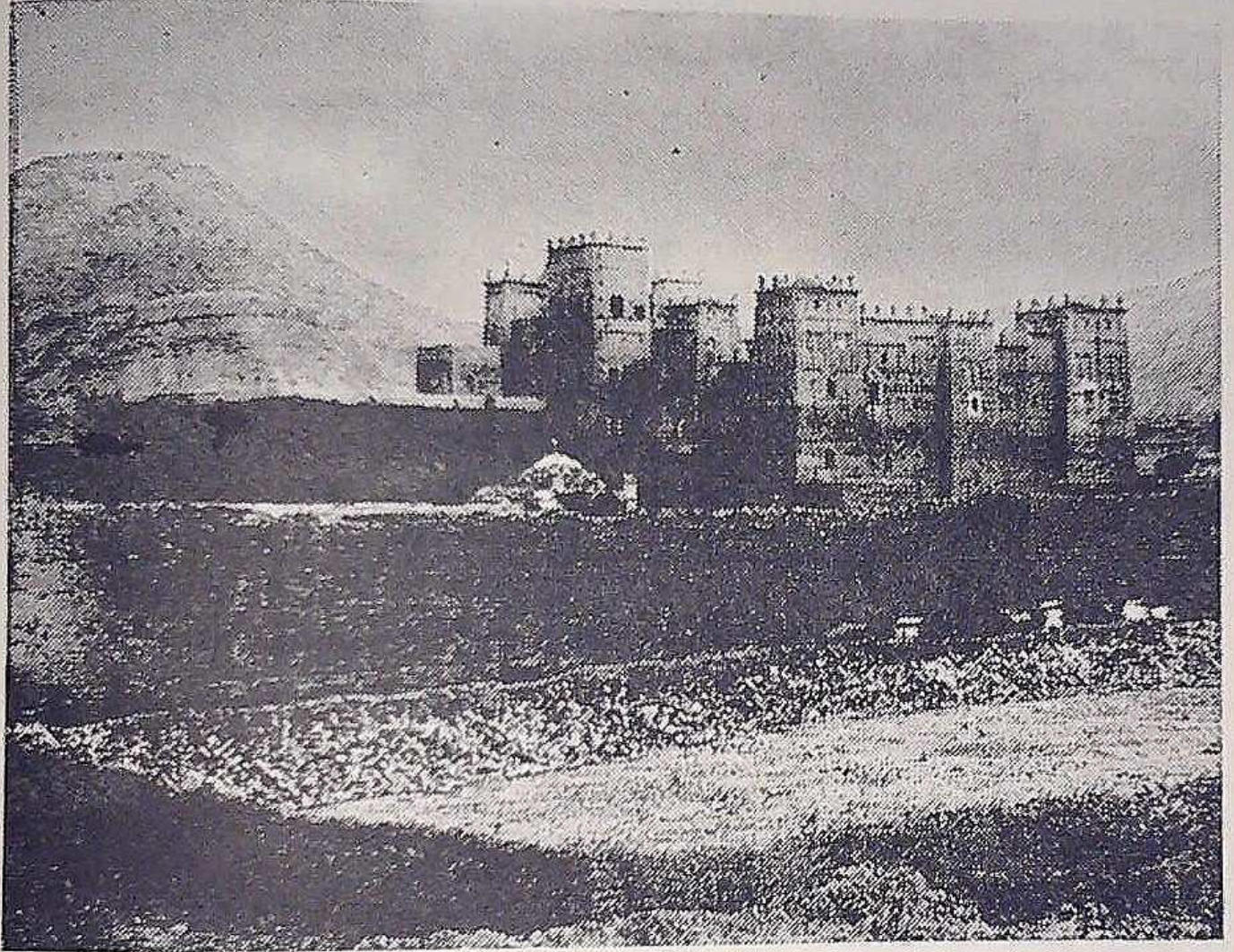
ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع أن القرطاجنيين مشارقة وأن لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلتا - كما يقول كزِيل - تحت الرماد طوال عهد الرومان الوندال والبيزنطيين إلى أن جاء الإسلام فوجد في «قرطاجنة جرثومة مشرقية لم تندثر بل كانت مستعدة للفتح والازدهار واستمرار البونيقية في المغرب كانت له في نظر كزِيل ذيول أخرى منها الدينى (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد (الأصابع الخمسة) للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين

ويستمر كزِيل في الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقي في المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر أو تقصيره وإرسال اللحى وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود في العبادة (مما كان يدهش الأغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو أعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذي يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتبي ص ١٢٥)

والذي يؤكد أيضاً من الوجهة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر أو وحدة الشرق والمغرب أن القطرين الذين فتحهما المسلمون واستوطنوهما خارج إفريقيا في غرب حوض البحر

المتوسط هما الاندلس وصقلية وهما وحدهما اللذان استوطنتهما الفتيقيون والقرطاجنيون قبل الاسلام » وعلى كل فان وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والاسلام قد ادرج في سجل التاريخ ، وان سكان قسطنطينية من المغرب يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسون على طريقة المشاركة منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف من السنين » (كوتبي ص ١٣٠ - ١٣٢) .

ونساق من هذا الى الحديث عن الاعراف والعوائد الاجتماعية في المغرب فما نسميه بالعرف لا يمثل العرف دائما لان العادة المحكمة تكون تارة عرفا وتارة شرعا والشرع كما يقول سوردون (ص ٢٨١) هو العرف العام أي المادة التي يستقى منها العرف في حين أن العرف في نطاقه



صورة قصبة اطلسية

الحقيقي ليس سوى ذلك الجزء الجنائي أو المدني من العادات وهو عبارة عن الاتفاقات المبرمة بين الجماعات لتحديد بعض نقاط العادة أو تعديلها في خصوص العوائد المتعلقة بالسواقي أو المخازن المسماة « باجدير » (١)

وشكلية الجماعة عند الشلوح شبيهة بالتي توجد عند اماريغ (الدشر - الدوار - مجلس

(١) اجدير عبارة عن مستودع لخزن ذخائر مجموعة من العائلات التي تملك الهري وتسمى أهل الحصن أو أهل الأصل وهي تكتب لشراء الأرض ثم يبنى عليها عمارة من ثلاث طبقات ويباشر تسيير هذه المستودعات بالارتكاز على فكرة اللوازم وهي واجبات الشركاء أو المصالح وهي العلائق بين هؤلاء الشركاء ولا يخفى أن فكرة « المصالح المرسله » في المذهب المالكي تجعل هذا النوع من العرف عادة محكمة ذات صبغة شرعية

الاعيان - اجدير النخ) وتلاحظ نفس الوحدة في الهيكل العام للقانون العمومي ولا بدع في ذلك حيث أن القبيلة التي هي النواة الجهوية للجماعة تنسم بنفس المظاهر في السهول وفي الاطلسين المراكشي والتلي ومجلس الجماعة هو المكلف هنا وهناك بتطبيق العرف العام الذي هو الشرع وكذلك العرف الجنائي الخاص

على أن الفقه المالكى منتشرف في نصف المغرب العربى تقريبا (سوردون ص ٤٧٣) وحتى في النواحي العرفية يلجأ الناس الى الطلبة أو الى حكام يطلقون عليهم اسم قضاة او مفتين ويختارونهم بالاقتراع لمدة مؤقتة أو بصورة دائمة ويؤكد سوردون « انه لم يقع قط أى تصادم بين الشرع والعرف » في المغرب (ص ٣٤٢) - ولنضرب مثالا بمنطقة الاوراس البربرية « فان الفقه المالكى مطبق فيها ولكن ذلك لم يمنع سكانها وهم شأوية أن يطبقوا في نفس الوقت عرفا يستمد مقوماته الخاصة من وسط شببيه بسوس والاطلس الاوسط » (ص ٣٩٠) والاعراف متشابهة في افريقيه (تونس) وبلاد القبائل الجزائرية والاطلس الاوسط بينما نرى التقارب محسوسا بين الاعراف في وسط المغرب الادنى وجنوبه والاوراس (ص ٤٤٢) بحيث تلحظ وحدة موصولة بين كثير من أجزاء المغرب العربى لان الجوهر واحد « فمن اجدير الى قابس الى الجزائر الى بوذيب الى ابن صالح في الصحراء توجد لحة واحدة في الهيكل العام الذي هو افريقيا الشمالية » (ص ٤٧٣)

ولعل من أبرز مظاهر وحدة المغرب العربى المظهر الجغرافى الذى تمخضت عنه كثير من المظاهر وبالاخص الحاجيات الاجتماعية والوحدة الاقتصادية ذلك أن أقطار افريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق الى الغرب فى مسافة ينيف طولها على ٨٠٠ ١ كيلومتر وعرضها على ٤٠٠ كيلومتر ويحف بها البحر من ثلاث جهات فى حين تتغلغل جنوبا فى فيافى الصحراء واذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التى هى امتداد طبيعى للمغرب العربى وجدنا ان مساحة افريقيا الشمالية تبلغ ٨٠٠ ٠٠٠ كم

ويمتد الاطلسان الاوسط والاكبر نحو الشمال الشرقى عبر المغرب العربى بواسطة الاطلس التلى بينما ينعرج الاطلس الاكبر شرقا الى جبال « القصور » ثم يستطيل « اطلسا صحراويا » نحو الشمال الشرقى فى سلسلة سامة تتخللها ممرات واسعة وفى تونس يلتحق الاطلسان الواحد بالآخر ثم يمتزجان .

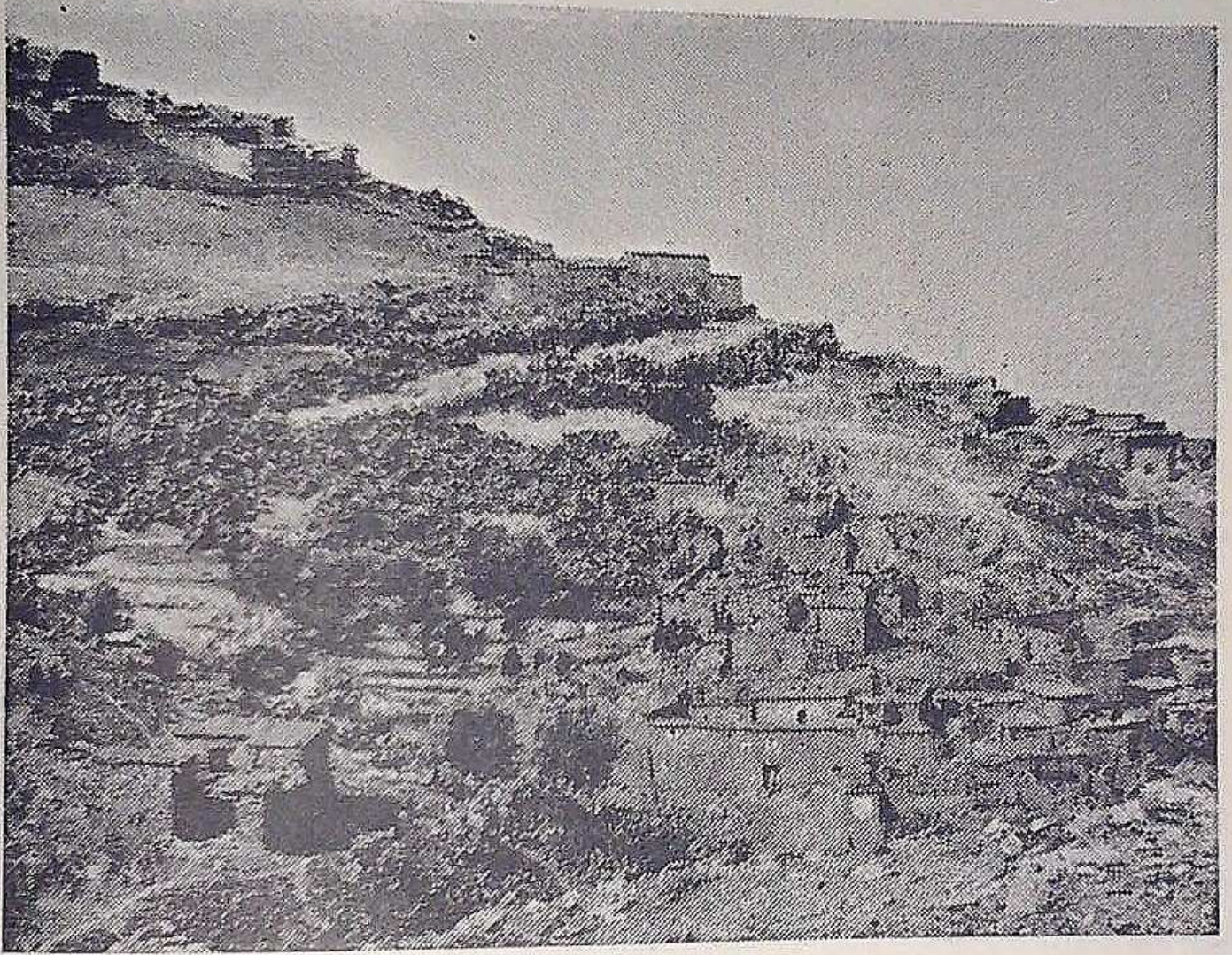
ومن الاطلس الكبير الى تونس يحف الاطلسان بسلسلة من الهضاب الكبرى يتراوح ارتفاعها بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ متر وتتسم الشواطىء أيضا بنفس المظهر : ضفاف واطئة فى المحيط الاطلسى دون أى نتوء صخرى وعلى ضفاف المتوسط شواطىء تتخللها فرض ضيقة متفتحة لرياح الشمال والشمال الشرقى .

أما المناخ فهو على وجه العموم حار معتدل مع امطار شتوية وتمتد امام نظرك على طول الشاطئ وفى السهول ومنحدرات الاطلس التلى والريف والاطلسين الاوسط والاكبر أدواح وأشجار مستديمة الاوراق صيفا وشتاء تتخللها الدفل والعناب والدوم ومات النباتات العطرية وترفع غابات الزيتون فى السفوح الى ٨٠٠ م بينما تكثر فى النواحي الرطبة اشجار الصنوبر والعفصية والبلوط والحفاف (الذى يوجد الا فى الحوض الغربى للمتوسط) وتتسامق اشجار الارز فى القنن العالية .

أما فى الهضاب العليا والنواحي التى لا تنزل فيها الامطار بكثرة فان قطعان الغنم تسير تحت حراسة رعاة رحل بينما تغطى الحلفة بخضرتها القاتمة مساحات شاسعة (افريقيا الشمالية لم كلى) ولا توجد فى أى مكان فى الدنيا غير الاطلس واسبانيا فالحلفة اذن من اكبر خواص المغرب العربى

(افريقيا البيضاء - كوتيسى ص ١٦١) وهكذا يتجلى لس المتسلسل من المغرب الاقصى الى المغرب الادنى قطعة واحدة يغمرها نفس الضياء ونفس الاشعة ونفس المناظر الطبيعية (افريقيا البيضاء كوتيسى ص ١٥٣) ولكن فى مجموع اقطار الاطلس وعلى طول ٣٠٠٠ كيلو متر من أكادير الى صفرو لا تتوغل الحياة البدوية والحضرية اكثر من ١٥٠ كيلو متر فى عمق الجبال (ص ١٥٥) ومن ثروات افريقيا الشمالية علاوة على الزيتون اشجار افواكه واللوز والكرم والحوامض والمشمش .

وتتسم هذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية بطابع خاص يقي بين المغرب الشرقى والجزائر حيث يمتد التل الوهرانى الى نهر الملوية الذى هو اعظم نهرفى افريقيا الشمالية كما تتلاحق هضاب دبدو مع هضاب تلمسان وتتلاحق نفس الهضاب من الجزائر الى قلب الصحراء (تنذارة)



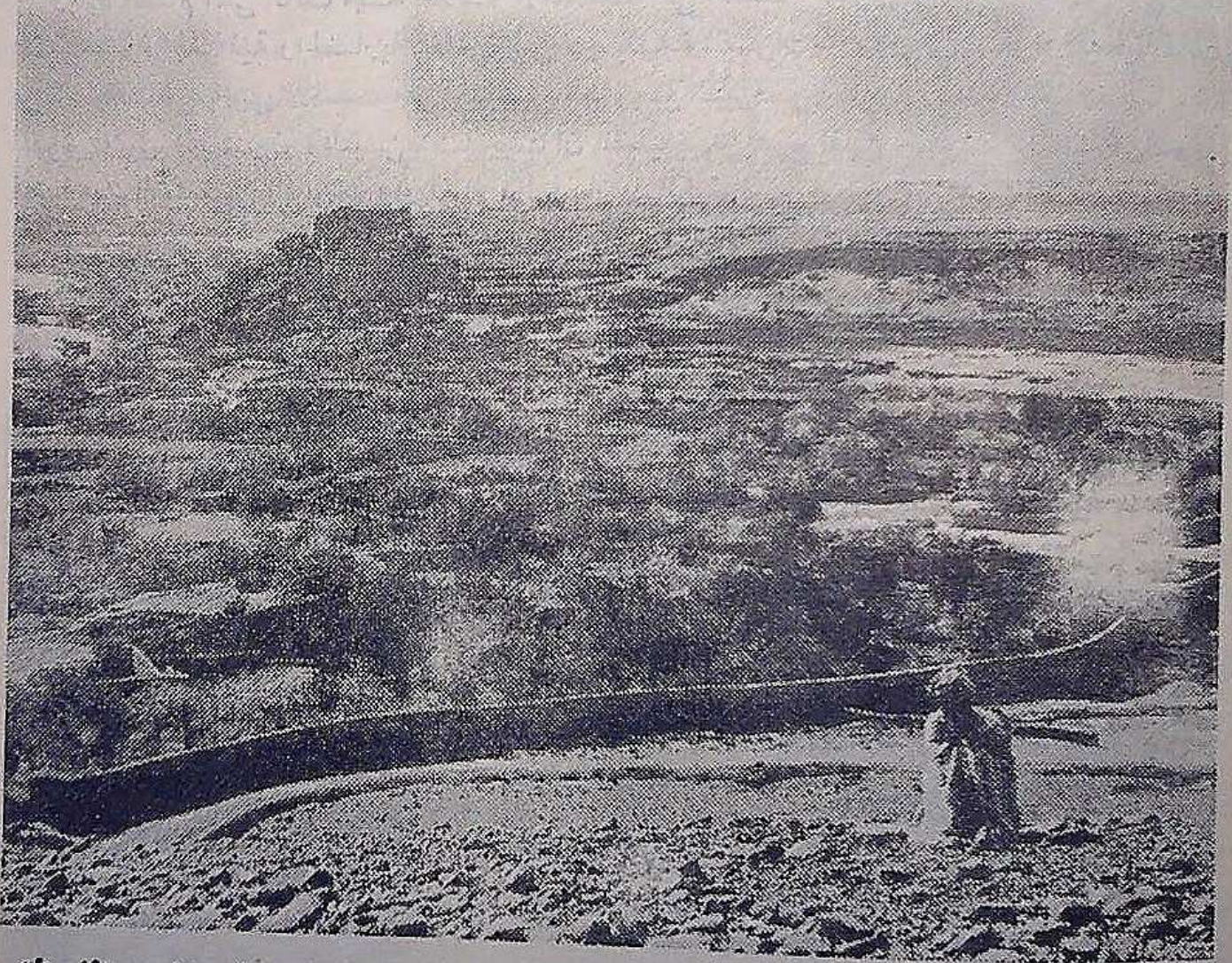
منظر عام لقرية اظلمية فى سفح الجبل

وفى هضاب الجزائر والمغرب الشرقى تكثر الحلفة وقطعان الغنم التى تباع فى بركنت وتصدر الى الخارج من وهران وتعتبر فجيج مركزا عاما فى الاطلس الصحراوى الغربى والجزائرى على أن سهول وهران نفسها انما هى امتداد طبيعى لمر تازة أو العكس .
وتوجد فى المغرب العربى نفس المعادن تقريبا (الفوسفط والحديد والزنك والرصاص والنحاس وان كان المغرب الاقصى ينفرد بالمانغانيز والقصدير والكوبالط والموليبدن وبالاخص الفحم والبتروول .

وخلاصة القول هى أن افريقيا الشمالية واحدة فى جميع مظاهرها حياتها الماضية والحاضرة يقول الكولونيل بوطس فى كتيبه عن افريقيا الشمالية (ص ٥٥) فهى « كتلة متراسة لا يمكن تجزئتها »

وقد أبرز الوحدة بين اجزاء جزيرة عاش سكانها منطويين حول انفسهم آلاف السنين فى حين هيات لهم الوضعية الجغرافية الخاصة اسباب التواصل فتيسرت للحياة فى المغرب الاسلامى « فى جميع العصور عوامل التبادل من اقصى المغرب الى اقصاه بين عناصر تجمعها ارومة واحدة سلسلة من المسالك السهلة تمتد من تونس عبر ممر تبسة الى هضاب وهران ومن ممر تازة الى المحيط الاطلسى هذه الطريق التى عبرها عقبة بن نافع منذ ازيد من الف عام لتوطيد قدم العروبة والاسلام هى التى وصفها ويليام مارسي بأنها « الخط الاكبر وهذه الطريق تتخلل الاطلس الثلاثة لتضفى على المغرب العربى وحدة جغرافية خاصة تجعل هذا الجزء من القارة الافريقية فريدا فى بابه لاسيما اذا اصفنا الى ذلك وحدة الطقس التى تنشر على الكل سربا لها الدافئ المشع بنوره الازرق اللامع .

والمغرب العربى يعتبر من الوجهة الاقتصادية قطرا فتيافلاحيا فى جوهره ينطوى على



منظر عام لاحد الاودية فى افريقيا الشمالية حيث يلتف السكان حول ينابيع الماء التى هى مصدر الحياة والازدهار الاقتصادى

قابلية ذاتية للتصنيع نظرا لوفرة المواد الخام واليد العاملة ولا تزايد التطورات الحديثة هذه المغارب الثلاثة الا تقاربا ابلغ وأمتن .

وهذه الوحدة الخاصة التى تجعل من المغرب العربى وصحرائه كتلة من جميع الوجوه لا تتنافى مع الوحدة العامة التى تربط المغرب بالعالم العربى والتى تتجلى مظاهرها فى وحدة اللغة والحضارة والدين والعواطف وكذلك التاريخ فالقطر الليبى هو امتداد طبيعى للمغرب العربى نحو الكنانة

وباقى اقطار الشرق تجميعه بالمغرب وحدة الجنس علاوة على وحدة التاريخ والحضارة ولكنه
ينفصل عن المغرب جغرافيا واقتصاديا لان الاطالس تمتد الى تونس فقط ولان الصحراء تمتد
في ليبيا الى الشواطىء نفسها .

ولا يختلف وضع مصر عن وضع ليبيا بالنسبة للمغرب الا قليلا اذا اعتبرنا ان الاقباط
ينتمون الى نفس الفصيلة اللغوية التى ينتمى اليها البربر وان مصر كانت دائما معبرا بين الشرق
والمغرب العربيين وصلة وصل حية بينهما .

فعن طريق مصر دخل الى المغرب الفاتح العربى ثم تدفقت بعد خمسة قرون موجة العرب
الهلاليين والسلميين الذين تواردوا الى الصعيد المصرى من جزيرة العرب التى تصلها بالمغرب
زيادة على هذه النفثة الجنسية التى كان لها أعمق الاثر فى التاريخ - أسباب اخرى لا تقل
عن الاسباب التى تربطها بباقي العالم العربى .

وبلاد الشام التى كانت مهد الخلافة الاسلامية فى العصر الاموى والتى كانت حدودها
السياسية والجغرافية والحضارية تتغلغل بين دجلة والفرات والاردن الى صحراء فلسطين كانت
من أبسط المظاهر حتى الاقتصادية فى جناحى العروبة الشرقى والمغربى نفس الحضارة بما فيها
للحرة الاولى الزيتون والتين منها حيث ان الفينيقيين هم لذين حملوا من الشام الى المغرب
أيضا مهد الفينيقيين الذين نشروا الكرم والرمان (الكولونيل بوطس ص ٨٢)

ومن هذا العرض الموجز تتجلى لنا فى أعمق مظاهرها وابهى مجاليها تلك الوحدة العريقة التى
تجعل من المغرب العربى مجموعة مترابطة ينتظر ان تقوم بدورهم فى حوض البحر المتوسط
خصوصا والعالم الحر عموما مع شقيقاتها العربيات .



منظر عام لمدينة فاس

الدولة العلوية وصون الاستقلال

عند قيام الدولة العلوية كانت أهم مراكز المغرب الساحلية فى قبضة الاجانب فكان الانجليز يحتلون طنجة والبرتغال البريجة (الجديدة) واسبانيا المعمورة (مهديّة) واصيلا والعرائش بينما كان الفرنسيون يمحرون عباب البحر ببواخرهم الحربية بين سواحل الريف ومصب الملوية وكان نجم الاستعمار يظهر رويدا رويدا فى سماء تلبدت بالسحب القاتمة واكفهرت لها قلوب الامم المستضعفة



هنالك قيض الله للمغرب المولى الرشيد المؤسس العملى للدولة العلوية الذى بادر بعد امتداد نفوذه فى الريف الى دعم حوزته بتحسين مرسى الحسيمة والمزقة وحجرة نكور التى كانت مركز أول دولة عربية بالمغرب فى القرن الهجرى الاول وما لبثت الدولة الفتية أن ظهرت غربى البلاد وجنوبيها من الامارات الطائفية التى اقتطعتها ومزقت وحدتها ويبدأ بذلك صراع عنيف بين المغرب والانجليز الذين كانوا يساندون الحضر غيلان فى

الغرب وناحية طنجة وكان لباقة الملك الهمام أبت عليه أن لا يحتفل بكتابة البيعة عمليا فى فاس الا أوائل ربيع الاول عام ١٠٧٧ بعد أن هزم الحضر فى أصيلا وبذلك اندحرت طليعة الاستعمار من هذه البلاد فكان للحفل غاية مزدوجة: ابراز هزيمة الاستعمار والاشادة بالدولة العلوية الجديدة .

ثم جاء المولى اسماعيل فعبا جميع قوى البلاد لاتمام برنامج التحرير الوطنى فاستطاع فى ظرف عقد من السنين أن يطرد الاسبان من المعمورة والعرائش وأصيلا ، والانجليز من طنجة وكابدا المارين فى حصار سبتة (١) ولم يكد يمر ربع قرن حتى أصبح المغرب موحدا وامندت رقعته الى مجاهل الصحراء واخصب مناطق السودان حيث لم يسبق للمنصور السعدى نفسه أن وصل (نزهة الحادى) واعترف المغرب أجمع بان له ملكا واحدا - كما يقول اندرى جوليان - أقام ستا وسبعين قلعة فى مختلف الانحاء تعزيزا لاستقلال البلاد ودعما لوحدها فأشع السلام وعمت الطمانينة وشاعت الرفاهية وعرف الشعب المغربى الوجه الحقيقى لهذه الدولة التى قامت على سنة الدين لصيانة الوطن المهدد وبعث الاسلام والحنيفية السمحة وانتشر العمران حتى احصى رحالة فرنسي مائتين وخمسين مدينة عامرة - لا تقل الواحدة منها عن ثلاثين الف نسمة ورفرف التسامح بين



(١) الذى دام ٢٦ سنة من زعم كودار (ص ٥١٩)

المتساكنين من مسلمين وغير مسلمين حتى اعترف المؤرخ كويهلير بأن المولى اسماعيل كان



« أعظم حماة الفرنسيين سكان » في العالم .
وفي غضون ذلك كان الاستعمار يوالى مؤامراته ضد
المغرب عن طريق التنافس التجارى تمهيدا للاحتكار الاقتصادى ثم
السياسى وكان بعض أصحاب الاطماع يهرجون فى الداخل
والخارج ويحسون دون انصراف الدولة الكلى الى مواصلة
دعم الاستقلال فى الداخل والخارج وبعد فترة من الاضطراب
جلس المولى محمد بن عبد الله على أريكة العرش فأعاد الطمانينة
الى البلاد وأحبط الاطماع التوسعية فرنسا الى التوسع غداة
معاهدة ١٦٦٧ فحرر البريجية واستأنف حصار مليلية ونشر
القلاع والحصون فى الساحل وبنى معقل الصويرة الاستراتيجية

ومرساها فحال دون حركة التهريب والتسرب الاجنبى فى الجنوب وفتح فى نفس الوقت باب
المبادلات مع أوروبا فى حدود ما يجنيه ميزان المغرب التجارى من فوائد وكان يصرف فيض العملة
الاجنبية فى جلب العتاد الحربى ومواد بناء السفن من السويد وانجلترا واستورد بعثة من الخبراء
العسكريين الاتراك لتدريب رماة الجيش المغربى .

وبفضل هذه السياسة الدفاعية أمكن لمعاقل الساحل وبطارياتها أن تصد فى ظرف سنة واحدة
تقريبا غارتين شنهما الاسطول الفرنسى على كل من سلا والعرائش وكانت فرنسا قد
دست أحد رجالها فى الجنوب وهو البارون دوسانطو - حسب المؤرخ كاييى - بين قبائل
الشلوح يستفزها ضد الملك .

وكان المولى محمد بن عبد الله أول من شجع الحركة التحريرية الامريكية حيث سارع قبل الجميع
الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة .

وقد قضى مولاى اليزيد سنتين فى الكفاح من أجل تحرير سبتة وأقام ست عشرة قلعة

جديدة فى نقط استراتيجية وسلاح كلا منها بعشرين مدفعا
فاستتم المغرب بذلك اطارا قويا من القلاع الساحلية العتيقة .
ثم جاء المولى سليمان فحرروا جدة من قبضة الانراك واحبط
استفزازات فرنسا وقد ضغط عليه نابليون للانضمام الى ما
كان يسمى اذ ذاك « بكتلة الحصار البرى » وهى الحركة التى
هدف بها الامبراطور الفرنسى عام ١٨٠٦ الى اقفال جميع الموانئ
فى وجه انجلترا وقد هدد نابليون ملك المغرب فى رسائل شديدة
الدهج بأكساح افريقيا بمائتى الف جندي .



ولكن المولى سليمان قابل ذلك بالرفض والبرود غير أن
المؤامرات الاوربية استفحلت وتمخضت فى النهاية عن
اجبار السلطان على التجرد من أسطوله (١)

(١) الذى كان يحتوى اذ ذاك على ٤٧ قطعة مجهزة بمدافع وبستهة آلاف من البحارة
الماهرين (كودار ص ١٥٦)

فلم يبق للسلطان اذ ذاك لحماية الوحدة الوطنية وكيان البلاد واستقلالها سوى مدافعة الدول بعضها ببعض .

غير أن الاطماع الاوربية تبلورت بصورة خطيرة فشبت معركة ايسلى وقنبلت طنجة والصويرة واستعرت حرب تطوان وكافح المولى عبد الرحمن ضد الاطماع الاسبانية فى الجنوب كما واجه مشاكل الحدود المغربية الجزائرية مع فرنسا وولى المغرب وجهه صوب الولايات المتحدة الامريكية ففاوضها فى حلف عسكرى لاحتياط مطامع أوربا وظل المغرب يجابه سلسلة من المؤامرات استمر اوارها نحو من ستين سنة كابد خلالها أربعة من الملوك العلويين الامرين (١) واستطاعوا الاحتفاظ فى النهاية باستقلال المغرب كما تمكنوا فى نفس الوقت من صيانة ثروة البلاد وتنميتها ففى السنة التى توفى فيها المولى عبد الرحمن أى منذ مائة سنة صدر كتاب حول القضية المغربية لشارل لا مارتينيير ذكر أن الغنم بلغت وحدها فى المغرب اذ ذاك ٤٨ مليون رأس (٢)



ثم جاء مولاي الحسن فنفخ فى المغرب روحا جديدة وجدد نظام الجيش وقام بتسع عشرة جولة فى الجنوب وحده الى أقصى لشخوم لتركيز وحدة التراب وحارب نوعا جديدا من الدسائس الاوربية الناتجة عن مشكلة الحملايات فى المغرب غداة حرب تطوان وكان الانجليز والفرنسيون والاسبان يتجادبون السلطان وكلهم يهدفون لغاية واحدة هى بسط نفوذهم على المغرب ولكن بالرغم عن ذلك كله ظل المغرب محتفظا باستقلاله ووحدته تحت رعاية الدولة العلوية قرنين ونصف قرن

فلما جاء مولاي عبد العزيز تزايد الضغط واتسعت شبكة التكتل الاوربي ضد المغرب فتكونت فى فرنسا على الخصوص جمعية معروفة دفعت بوحارة الى الثورة ودعا رجال الاقتصاد الفرنسيون للتسرب الى البلاد من خلال الثلثة المالية كما وقع بى مصر فاضطر السلطان مرة أخرى الى مدافعة الدول بعضها ببعض وطلب عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذى جدد الاعتراف باستقلال البلاد ووحدته الترابية فكان ذلك خير ما قدمه المولى عبد العزيز قبيل الاحلاف السرية التى أدت الى الحماية

(١) حتى فى الصحراء (توات وغيرها) راجع كتاب «أربعة قرون من تاريخ المغرب فى الصحراء» للصابط مارتان المطبوع عام ١٩٢٣ وبحثنا المنشور فى مجلة «صحراء المغرب» (العدد الخاص بعيد العرش ١٩٥٧)
(٢) أكد نفس الارقام تقريرا كودار فى تاريخه الصادر عام ١٨٦٠

اقتصاد المغرب في ألف عام

يظهر أن المغرب عرف - خلال عهود السيطرة الأجنبية - فترات من الفوضى يستعصى وصفها فلم يحاول الفنيقيون ولا القرطاجنيون ولا الرومان - كما يقول ميشو بيلير في محاضراته - ابتداء شيء من النظام لجعل حد لهذه الفوضى فقد استنزفوا خير البلاد جهد المستطاع صارفين نظرهم إلى خيراتها أكثر من اعتنائهم بأهلها ويلوح أن سكان النواحي التي خضعت مباشرة للسيطرة الرومانية والبرنطية كانوا في حالة أقرب إلى الاسترقاق يرضخون لأقسى أنواع التسخير ولاشدد التكاليف إرهابا « وإذا كانت إفريقيا الشمالية قد استطاعت في كثير من الأحيان أن تستفيد من بعض مبعثات القرطاجنيين في الميدان الفلاحي وأن تضمن بشق النفس استهلاكها الداخلي « فإن إفريقيا الرومانية كانت كلها في ملك خمسة من كبار الشخصيات الرومانية - حسب بلين - وكان أكبر ملاك عقارى هو الامبراطور نفسه « وأمسّت البلاد عبارة عن حقل شاسع يستغل استغلالا كليا « (أندري جوليان) لهذا رأينا أنه عند ما حمل عقبة بن نافع الإسلام إلى المغرب للمرة الأولى عام ٦٨٠ هـ (٦٨٠ م) تقبل أضعف الناس هذا الدين الجديد بمثابة خلاص من الجبايات المرهقة ذلك ما لاحظته ميشو بيلير الذي قارن بين مفعول الإسلام



المراعى باعلى الجبال (قمم سيروا البالغ علوها ٢٨٠٠ م)

ومفعول المسيحية فى الربوع الافريقية فأكد أن المسيحية لم تحمل الى افريقيا على ما يظهر
سوى الحروب الدينية والاضطهادات والنزعات الطائفية ولعل ذلك هو ماسماه الاستاذ
طيراس « بالنظام اللاتينى والمسيحى »



منظر داخلى لهرى عام فى تملوت ويوجد صهريج وسط الاجدير

وهكذا استقبل المغاربة الفاتح العربى كمحرر لاسيما وأن العرب حملوا معهم كما يقول كوتى
« حكومة نظامية مجهزة بجميع الهيآت العسكرية والادارية » ولكن الكاهنة اليهودية نشرت
الدمار والخراب فى بلاد كان الناس يمشون فى ظلال أشجارها فأثارت ضدها المزارعين والحضرين
معا

وفي عام ٨٥ هـ تم اسلام مجموع المغرب واستطاع القادة العرب تفهم البيئة البربرية لما بين العالمين العربي والبربري من تشابه في الجهاز الاجتماعي والقوام الاقتصادي وعاش الجانبان فترة يسيرة في وئام كدر صفوه عامل طنجة عمر بن عبد الله المرادي الذي أراد تخميس البربر خارقا بذلك مبدأ المساواة حيث اعتبر البربر فيئا للمسلمين ، فثار البربر عام ١٢٢ بقيادة ميسرة المدغرى تحت شعار مذهب الخوارج الداعى الى المساواة بين المسلمين (البيان المغرب ج ١ ص ٥٢)

ولكن ما لبث المغرب أن تحرر من القيود الجبائية لاسيما فى عهد الادارة فتنفس الصعداء وانطلق الاقتصاد المغربى من العقال الذى كان يخنقه فازدهر وانتظم وأصبح « منطقيا قارا » كما وصفه المؤرخ طيراس

وكان هذا الاقتصاد فلاحيا فى جوهره : سوائم وزروع وفاكهة . واذا استثنينا الصحراء القاحلة نجد أن الجنان والغابات كانت تغطى مقاطعات مترامية الاطراف حتى فى الاطلس الذى وصف ابن خلدون ثرواته الضخمة والذى قال عنه الاستاذ سيليرى بأن جانب النقص فيه هو قلة الارض لا قلة الماء

وكان الطابع الحضري يعوز المغرب قبل الفتح الاسلامى واذا كانت هنالك مدن قديمة وجدها العرب فى المغرب فانها لم تكن حواضر متماسكة كالتي سيعرفها المغرب منذ عهد الادارة وانما كانت عبارة عن مجموعة مداشر أو « قصور »

فمدينة فاس التي بناها المولى ادريس (ادريس الاول حسب أبى بكر الرازى وابن سعيد وادريس الثانى حسب بقية المؤرخين) والتي كانت - فى نظر كوتى - آية فى الاقتباس من الحضارة الشرقية أسست فى ناحية كانت تعتبر منذ ذاك من أغنى نواحي المغرب وما لبث محيطها الخاص وموقعها فى مفترق الطرق الكبرى قرب ممر تازة - الذى هو أعظم ممر بين افريقية والمغرب - ان جعل منها المركز الثقافى والاقتصادى للمغرب وكانت هذه هى أولى الخطوات نحو التركيز والتخفيف من عوامل التششت القبلى .

فقد وجد البربر فى بساطة الاسلام السمع مقومات الوحدة وجاذب نحو الحياة الحضرية التي طعمتها عناصر جديدة هاجرت الى المغرب كالاندلسيين الذين انتقلت منهم الى فاس ٨٠٠ (١) عائلة حوالى المائة الثانية الهجرية على اثر وقعة الربض ثم ٣٠٠ أسرة من القيروان التي بناها عقبه بن نافع والتي كانت اذ ذاك ابهى الحواضر الاسلامية فى افريقيا الشمالية

وكان من بين هؤلاء ادباء وتجار ومزارعون مهرة مالبثوا أن نشروا أفكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطورية طبعت مختلف مظاهر الحياة المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به فى مجتمعاتهم واقتصادياتهم ، نعم ظهرت نواة مجتمع بورجوازي فى عدوة القيروانيين الذين فتحوا قيسارية ودكاكين تجارية وضربت أول دراهم مغربية عام ١٨٥ هـ وما زال متحف كاركوف بروسيا يحتفظ بدرهم منها كما يوجد فى المكتبة الوطنية بباريس درهم ادريسى آخر يرجع عهده الى عام ١٨٩ هـ

وقد عثر فى ويلي عام ١٩٥٢ على ٢٣١ درهما فضيا ودينار ذهبى وكلها نقود أموية شرفية كما عثر على دراهم أموية يرجع عهدها الى ما بين ٧٩ و ١٢٥ وقد لعب الدرهم اذ ذاك دورا مهما فى تجارة اوربا نحو من أربعة قرون حيث ظل العملة الوحيدة

(١) - كما ذكره طيراس فى تاريخه وذكر دوزى فى تاريخ المسلمين باسبانيا ان هذا العدد بلغ ثمانية آلاف عائلة (ص ٣٠١)

وفى هذه الحاضرة الجديدة تجمع لف من التجار فيهم المسلم والمسيحي واليهودى تنافسوا فى جلب البدو لاقتناء بضائعهم المتنوعة وكانت هناك حواضر أخرى مثل أصيلا والبصرة التى هدمها أبو الفتوح صاحب إفريقية من قبل العزيز بالله عام ٣٦٨ « وكانت تعرف ببصرة الكتان » لانهم كانوا يتبايعون فى بدء أمرها أكثر تجارتهم بالكتان (المغرب ج ٢ ص ١٣٣ و ٣٣٠) وقد تمخض هذا الاشعاع الحضارى عن نزوع الى الاستقرار لدى بعض القبائل الرحالة وبذلك اتسم الاقتصاد نفسه بشئ من الاستقرار وظلت الصحراء مسرحا للرعاة الرحالين الذين يتعيشون من تربية السوائم ومن تجارة القوافل بين الواحات وأطراف الصحارى

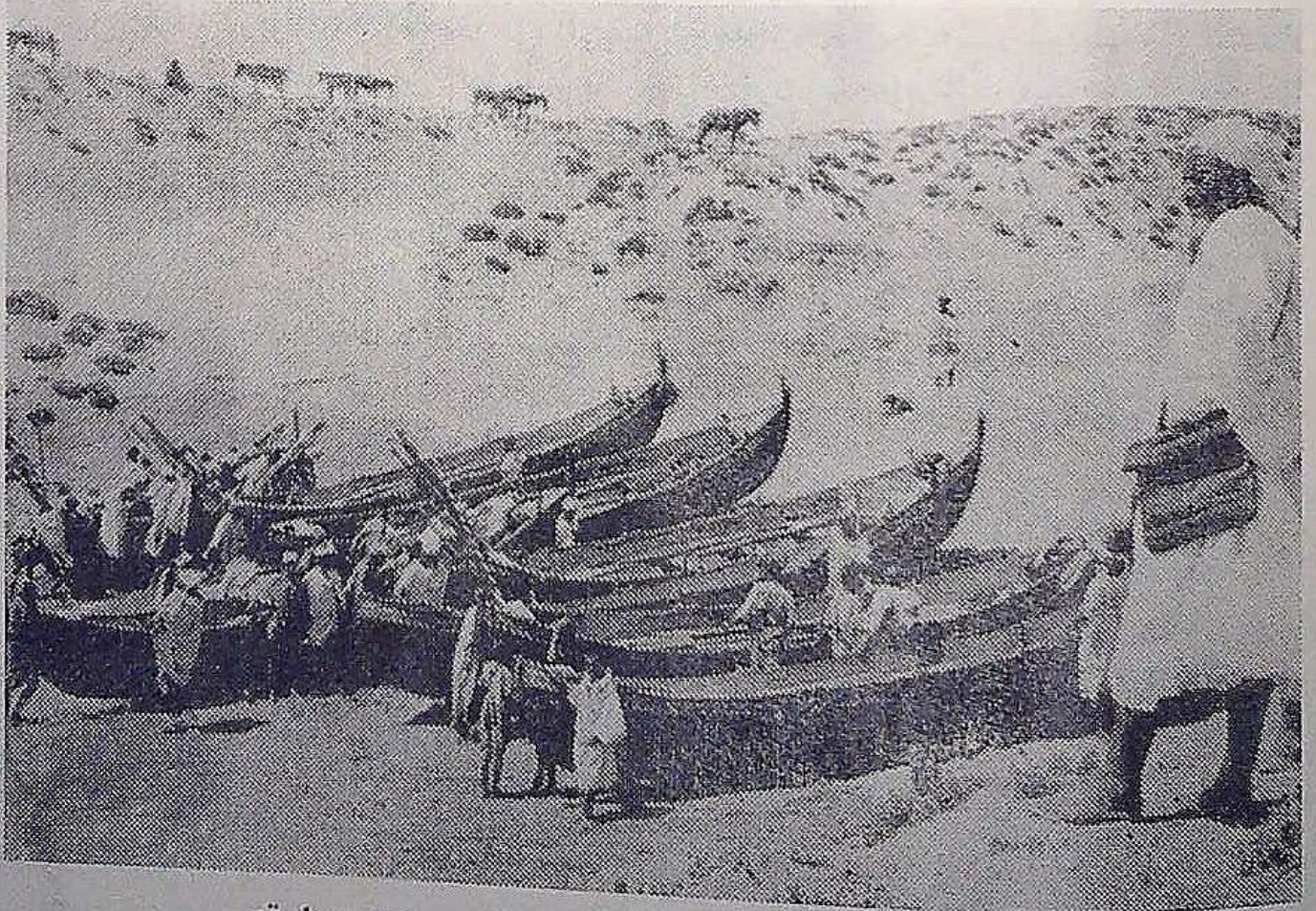
وبعد انحلال المملكة الادريسية استمر الامراء الادارسة من الشمال الى الجنوب فى اقامة أو توسيع حواضر صغرى على نسق فاس نشرت حولها تدريجيا أسباب الحضارة الاسلامية مثل أصيلا وقصر كتامة أو قصر عبد الكريم ومدينة جنيارة (قرب فاس) و تيكيساس و تيطاون التى مالبثت الادارسة أن عدموها .

وقد أكد الاستاذ طيراس ان أعمال الرى التى هى ضرورية لكل ازدهار فلاحى ولكل تطور حضرى كانت من أهم أعمال الاسر المالكة المسلمة ويظهر أن العهد الادريسي لم يلحق المغرب أثناء ارهاق وقد وصف ابن حوقل ثراء المغاربة الوافر فى ذلك العصر

وفى عهد بنى عامر و بنى زيرى اتسعت شبكة نفوذ الحضارة الاندلسية فبلغ اشعاعها جبال فازاز فى قلب الاطلس حيث هاجر بعض القرطبيين .

وكانت سجلماسة مركزا تجاريا تتوارد عليه القوافل من البصرة والكوفة وبغداد كما كانت تصل الى تافيلالت - كما يقول جورج مارسى - قوافل مدينة تلمسان التى تنصب عليها افواج التجار المسيحيين والمسلمين

وقد أكد الجغرافى ابن خرداذبه فى القرن الثالث أن التجار الصقالبة الذين كانوا ينتقلون



مراكب بربرية عائدة من الصيد بايسوان (ساحل حاحة)

في جميع مناطق العالم كانوا يصلون الى السوس الادنى عن طريق طنجة ومن هناك يتوجهون نحو افريقية ومصر *
وفي شرق المغرب كانت وجدة التي أسسها زيري بن عطية واتخذها عاصمة له محاطة بالحدائق والغابات ومنها أرسل ابن عطية الى الحاجب ابن أبي عامر الهدايا الثمينة التي تحتوي على رقيق المنسوج وذكي العطر وتمر نادر الوجود على قدر الخيار *
وفي اغلى حاضرة سوس كان قصب السكر موفورا حيث حدثنا البكري أن السكر كان يباع مثقالين للقنطار اذ بربع درهم كان الناس يحملون منه ما يشاءون *
وهكذا يتجلى لنا أن المغرب عرف في الفرون الاربعة الاولى للهجرة الوفرة والثراء والطمأنينة النسبية

وقد أكد طيراس أن وجود بعض الضيع منتشرة هنا وهناك وانتشار السكان يدلان على أن المغرب كان يتمتع بالامن الكافي
فعند ما استولى المرابطون على الحكم وجدوا اذن المغرب وفيه الموارد هادئا هادئا نسبييا ولكنهم دعموا وحدة المغرب ووسعوا رقعة وبدأوا احتلال الاندلس الذي امتد منذ ذلك نحو من ثلاثة قرون وكان للتبادل المغربي الاندلسي أثناءه أثره الفعال في تكييف الاقتصاد الوطني وتوسيع موارده ومصادره في دائرة الاشعاع العام المتبادل *

وقد شجعوا - رغم انبثاقهم من قلب الصحراء - على الاستقرار الحضري وبنوا مدينة مراكش على بعد نحو ثلاثين كيلومتر من أغمت التي كانت مركزا لتمويل مجموع الصحراء كما ساهموا في ازدهار فاس وبالرغم عن الاضطرابات العارضة التي تحللت الثورة الصنهاجية « ما لبث المغرب المرابطي أن استعاد هدوءه واصبح كما يقول طيراس مزدهرا غنيا » -

وقد اتسعت رقعة المغرب من جديد فبلغت طرابلس ابان الموحدين واكتملت بذلك وحدة المغرب والاندلس الى ابعد الحدود ومسحت الاراضي الافريقية دعم للتنظيم الجباني حتى بلغت مداخيل الخراج « وقر ١٥٠ بغلاهدا في افريقية وحدها حلا بيجية وعمدها رندمسار وأعمالها والمغرب » (المعجب ص ١٥٥) ولم تكد تمر ثلاثون سنة على اعتلاء عبد المؤمن اريده الملك حتى « كانت منجزاته نثير الاعجاب » وعمت الرفاهية مجموع البلاد لما يقول صيراس الذي أكد أيضا ان مدن المغرب بلغت من الازدهار ما لم يسبق لها ان بلغه من قبل اما في الاندلس فان النظام الذي أقره الموحدين في مجموع البلاد قد جعل حدا - حسبما أوضح ذلك اندري جوليا في تاريخ افريقيا الشمالية - للنمو المالى التي كان يحيط فيها ملوك الطوائف وقد شجع الموحدين الفلاحة التي كانت ضيع المئارة التجريبية (١) سم عن ازدهارها حتى وصفه رحالة انجليزى زار مراكش عام ١٧٤١ بأنها أجمل بفعه من افريقيا (دوكاستر) وازدهرت الصناعة في عهدهم واصبحت سبته في طبيعة مراكش انتاب الورق الذي سم يلى صناعته جودة سوى ورق شاطبة الشهير وقد أخصيت في فاس وحدها زمن المنصور والناصر الموحدين ٣٠٩٤ من اطرزة النسيج ٢٧ معملا للصابون و٨٦ معملا للدباغة و٨١٦ للصباغة و١٢ معملا لتسييك الحديد والنحاس و١١ معملا للزجاج و١٣٥ مصنع للمحمر ١١٧٠٠ فرنا للحرير و٤٠٠ معمل لصنع الكاغد (٢) علاوة على المطاحن والمعاصر ومعامل الحرف التقليدية وكان

(١) ولماولى محمد بن واجاج في اول ايام الموحدين بلاد المغرب غرس بحيرات فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع الحمل بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة تازة ب ٦٥ ألف دينار (الروض الهتون ص ٣)

(٢) - زهرة الآس ص ٣٣

المغرب يستغل اذ ذاك قسطا من ثروته المعدنية مثل معادن الحديد الموجودة بين سلا ومراكش ومعادن الفضة قرب مكناس وفي سوس حيث «النحاس والتوتب التي يصبغ بها النحاس الاحمر فيصير أصفر» (المعجب ص ٢٢٤)

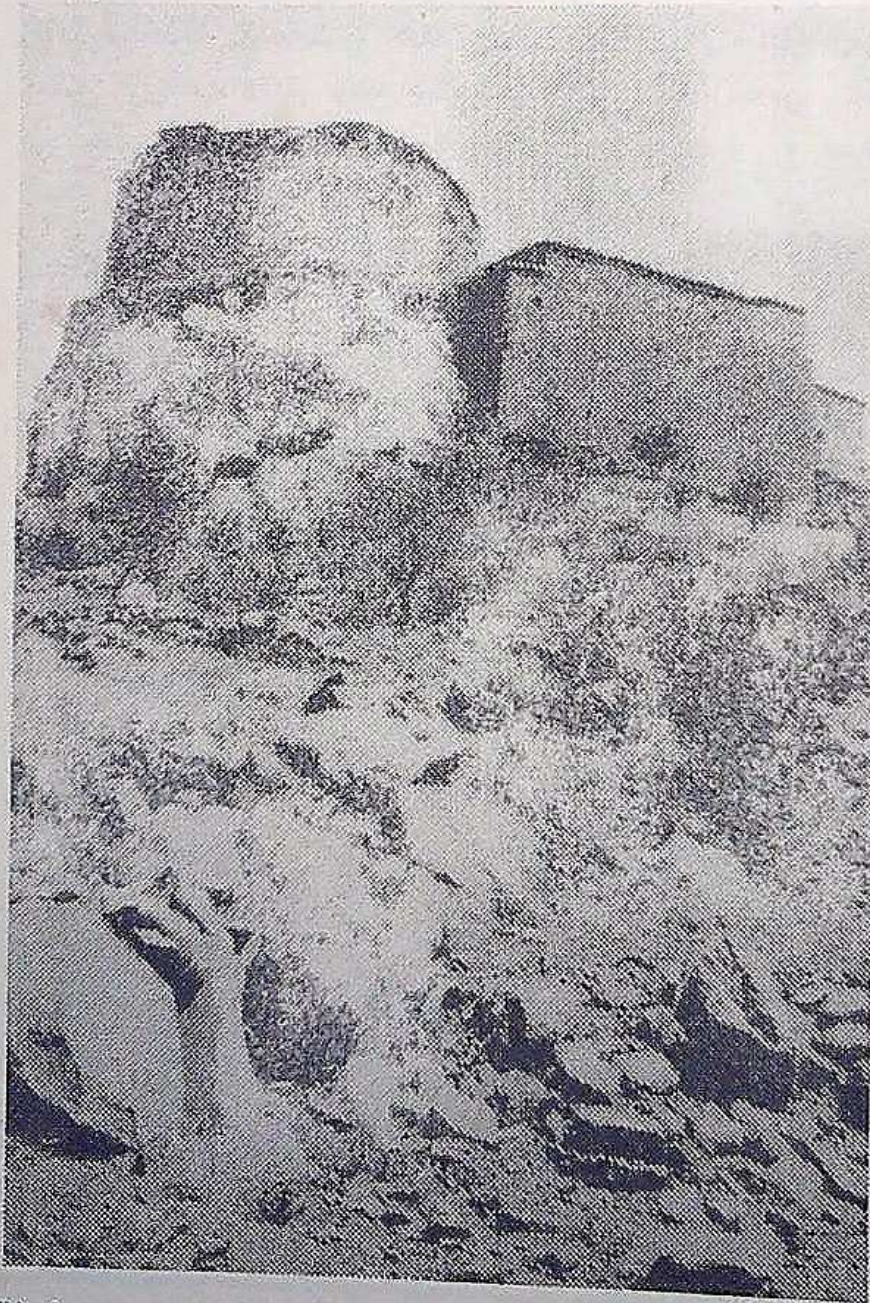
وفي نفس الوقت أمست مراسى المملكة مراكز لحركة تجارية قوية ومبادلات مع بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وقد أكد اندرى أن المسلمين الذين كانوا حينذاك أول من نظم أساليبهم التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية قد طوروا انظمتهم التي اقتبس منها المسيحيون» وكانت أربعمئة قطعة من الاسطول الموحدى الذى كان أول اسطول فى المتوسط حسب (أندرى جوليان) تمخر عباب المتوسط بدون انقطاع بين تونس ووهران وعاصمة الجزائر لحماية السواحل .

وقد تضاعف التبادل بين المغرب وتونس فتفتحت مظاهر الحضارة ومراسم العمارة والاساليب الصناعية وبنيت بى الرباط وسلا قنطرة من الحجارة والخشب ومقصورة فى مسجد بمراكش انبهر الناس لاساليبها الميكانيكية كما اقيمت قنوات لرى على يد مهندسين اندلسيين هذا علاوة على الجهاز الاجتماعى

النادر المثل مثل مارستان مراكش المجهز بالاشجار والبيوت المرحية والفرش والاطعمة والملبوسات والصيدلة

ثم الاطباء والاشربة والادهان والاكحال (المعجب ص ١٧٧)

وقد ازدهرت حركة البناء والفن المعماري لاسيما فى عهد المنصور حيث تم بناء الرباط ومنارات حسان والكتيبة واشبيلية وغيرها من الاعمال الكبرى وقد أشار صاحب المعجب الى ما امتاز به هذا العهد من كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معاش ولم ير اهل المغرب اياما قط مثلها واستمر هذا صدرا من أيام أبى يوسف» (ص ١٥٦) ولكن بعد المنصور توقفت الحركة الاقتصادية ومنها حركة البناء التى شلت نحو القرن لاسيما بعد وقعة العقاب التى انهزم فيها المغرب واندحرت جيوشه فى الاندلس فكان ذلك تدبر انهيار



يوجد فى هذا الاجدير الكائن بالاطلس الصغير ٦٠٠ غرفة
ويبلغ ارتفاع بنائه ٢٠ متر

للدولة الموحدية وكان مما حدا بالمرينيين الى دخول المغرب ، أصابها بعد غزاة العقاب حيث «أقفر التبلاد» التي ظلت مع ذلك جذابة « بخصبها وثقائها ووعاءها ومزارعها وعدوبة مياهها وكثرة انهارها والتفاف اشجارها » (الدخيرة السنية ص ٢٤) ولم تكن لتقضى عليها أزمة عابرة فقد وجد المرينيون مغربا وفيرا السكان غنيا برجاله وموارده بديه حركه اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسم الرقيق ولعل من أبرز مظاهر ازدهار الاقتصادى قوة النفود الافتتائية لان العملة هى معيار ثراء الدولة فقد لاحظ ابن بطوطه ان القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة أضعافها بمصر مثلا واتجهت حركة البناء فى المغرب اتجاها اجتماعيا حيث تزايد عدد المدارس وازدهرت الاوقاف الوفرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصر أبى الحسن المرينى كان نهاية عهد ازدهار وقد كان أبو الحسن على حد تعبير اندرى جوليان - أقوى ملك فى القرن الرابع عشر الميلادى -

لقد اندحر أبو الحسن فى معركة طريف وبدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وتقلص المجهود الاقتصادى بسبب طغيان عوامل الفتنه ومقتضيات التسليح لمواجهة الخطر الداهم وقد عرف المغرب أيام أبى عنان المرينى أزمة اقتصادية كانت تؤدى بحياة الاسرة المالكة وتفاخش الغلاء بسبب تضائل مواد العيش حتى ارتفعت قيمة منزل للسكنى يقاس الى ألف دينار وهو مبلغ باهظ فى ذلك العصر ولكن السلطان قاوم الأزمة واسعف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية حيث وزع عليهم مجانا الاراضى الفلاحية وأزواج البقر حرثها .

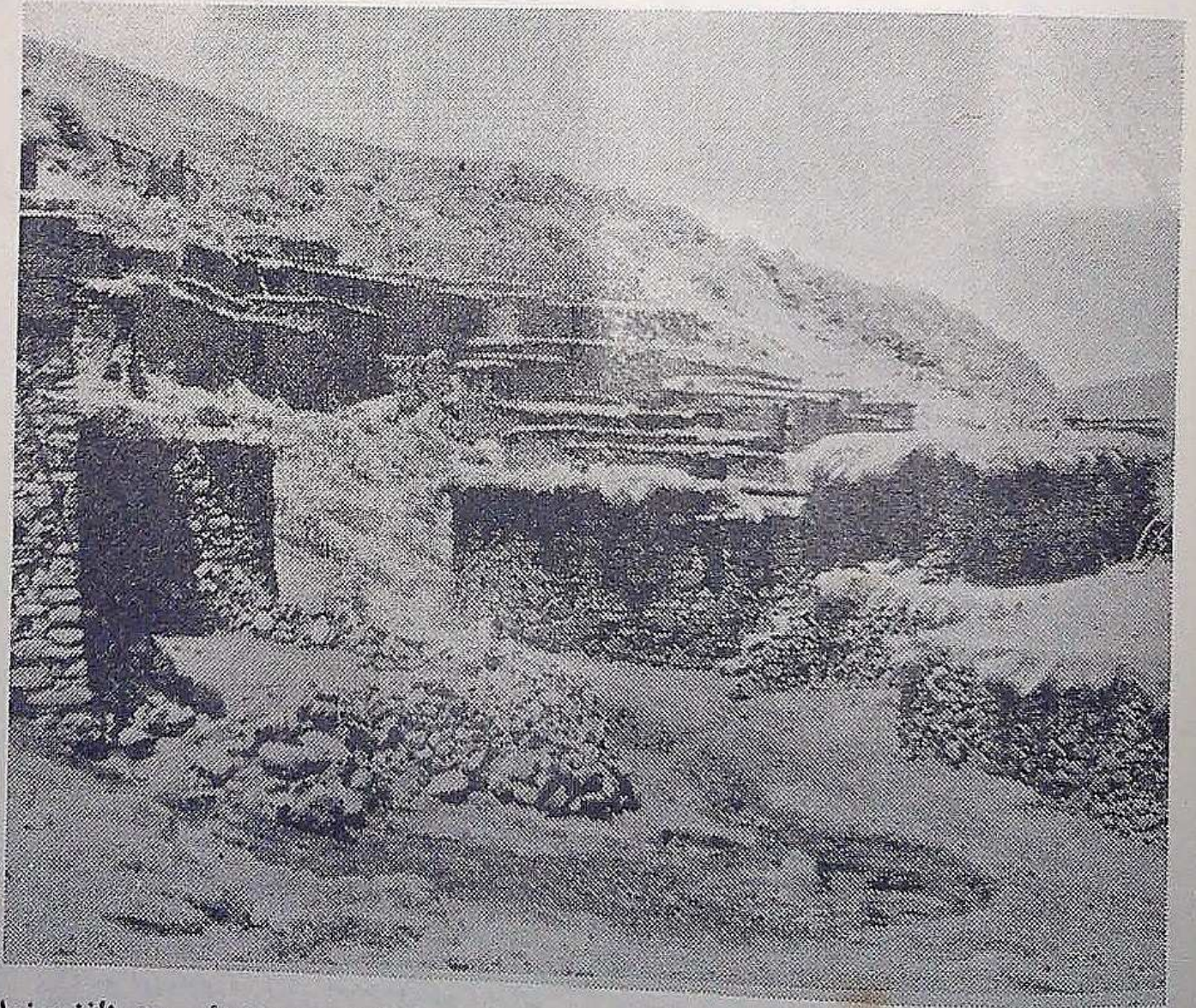
وفى الوقت الذى احتدم الصراع بين المرينيين والسعديين بدأ البرتغاليون ينزلون ضرباتهم بالسواحل المغربية وسيطروا على اكادير ومنهراقبوا مجموع الحركة التجارية فى الجنوب واحتلوا كلا من أنفواصيلا حيث ابتزوا خزينة أموال الوطاسيين وشرع لاسباب فى نفس الوقت فى اعتداءاتهم على مليلية وحجرة بادس وعلى الشمال عموما فتقلص النشاط الاقتصادى على اثر اختلال الامن وانخراق طرق المواصلات وتوقف معظم المزارعين عن فلاح الاراضى بعد أن هبوا تلقائيا وبدون بطة - كما يقول طيراس - للصمود فى وجه التسرب الاجنبى وقد شوهد تحت أسوار سبته مجاهدون تواردوا من أقصر الجنوب لنجدة الوطن المهدد . وهكذا اضطر المغرب الى تحمل أعباء حرب دفاعية أثرت فى اقتصادياته التى لم تستعد ازدهارها سببيا الا بعد أن استأصل السعديون موقعا لخطر البرتغالى الداهم فعندما اعتلى الشرفاء أريكة العرش وجدوا الاقتصاد المغربى مضطربا بسبب الاختلال والقوضى الناتجين عن تسرب البرتغال الى المراكز المهمة فبادروا بتحرير أكادير وأقروا عدالة اجتماعيه نسبية بالرجوع الى المساواة والاعتدال فى الجبايات وعمد السلطان السعدى للتخفيف عن الشعب المغربى المرهق الى احتكار بعض المواد للدولة من أجل تسديد الخصاص الذى أسفرت عنه ضالة مداخل «النائب» لاسيما تعبئة جيش قوى استلزم من الدولة نفقات باهظة وحتى قبل هذا العصر ببضعة عقود لم يكن التوازن يتحقق بين مداخل الدولة ومصاريفها الا بشق الاكسر وذلك بالرغم من موارد الدولة التى بلغت فى احدى السنوات ٢٦ مليون فرنك (١) حسب قيمة الصرف فى القرن الماضى (انما اذا اعتبرنا الصرف قبل الحرب العالمية الاولى فيجب أن نضاعف المبلغ مائتى ضعف بحيث يصير مجموع الموارد ٥١٢٠٠ مليون فرنك)

(١) ذكر كودار فى تاريخه ان موارد المغرب كانت تتراوح بين ١٥ و ٢٥ مليون فرنك (ص ١٦٢)

ولكن انتصار المغرب في معركة وادي المخازن اذاح الخطر وأرجع للبلاد سمعتها في الخارج وجلب لصندوق الدولة من مبالغ الفداء مع ذهب السودان سيلا فياضا من الخيرات واصبحت كثير من دول أوربا يخطب ود المغرب وترسل سفراءها لتهنئته المنصور السعدي وكان المغرب على وشك الاندراج في سلك الدول العظمى بأوربا لولا أن المنية أنشبت أظفارها يوم المعركة الكبرى في السلطان مولاي عبد المالك الذي « كان يتكلم اللغة الاسبانية باناقته ويحرر بها بأسلوب صحيح ويحذق الايطالية والتركية » (حسبما رواه دوشافروبيير في كتابه عن تاريخ المغرب ص ٣١٦)

وأضافت الدولة الى هذه الثروة والى موارد المحتكرات الصناعية مداخل مزارع قصب السكر التي اتسع نطاقها في الجنوب وأصبحت تنافس المزارع التي غرسها مهاجرون غرناطيون في ناحية فاس حيث تكثر أشجار التوت التي اعتنى هؤلاء الاندلسيون بها توفيراً للاوراق التي يتغذى منها دود القز .

وبالقضاء على النفوذ البرتغالي استرجع الجنوب ازدهاره الاقتصادي وثروته التجارية وقد حكى لنا الرحالة مارمول عن سوق جزولة السنوي الذي كان التجار موزعين فيه على أجنحة مختلفة تبعا لنوع البضاعة وحيث كانت تسود الحرية في المعاملات وحسن النظام بين نحو العشرة آلاف من التجار الواردين من السودان وغر السودان



دور تستعمل في فصل الشتاء كاصطبلات ويؤوى الاغنياء فيها نحو ٣٠٠٠ رأس من الغنم بينما يؤوى الفقراء معدل الخمسين

ومما زاد في ازدهار تجارة المغرب الخارجية ان العملة كانت - حسبما أكد ذلك الاستاذ طيراس - من نوع جيد قار «وللدينار الذهبي المغربي اتفاق لدى التجار الانجليز الذين اغتنموا هزيمة البرتغاليين لبيع منسوجاتهم للمغرب بالذهب ومبادلتها كذلك بالسكر والجلود المدبوعة وملح البارود ومما يدل على ضخامته انتاج المغرب من السكر لليون الانجليز انفسهم كانوا يستوردونه من المغرب وان المنصور الذهبي كان يستورد من ايطاليا كميات وفيرة من المرمر ويدفع في مقابلها السكر وزنا بوزن غير ان تجارة المغرب الخارجية انتظمت بالاخص مع الاقاليم المتحدة (وهي هولندا الحالية) لاسيما بعد معاهدة ١٦١٠ ويقال بان المنصور اقترح على هولندا اد ذاك منحها قرضا قدره مليون ونصف دينار (١) (أى نحو ١٨ مليون فرنك بصرف ذلك العصر و ٣٦٠٠ مليون بصرف ١٩٥٦) وهو مبلغ باهظ كنا برتاب في صحته لولا أن المنصور كان يستهيج عمده السياسة ازاء أوروبا حتى انه منح الدون انطونيو الاميرالطامع فى عرش البرتغال سلفا قدره ٤٠٠.٠٠٠ ليرة (٢)

اما فرنسا فان مبادلاتها مع المغرب لم تنتظم الا بعد سنة ١٥٧٧ ولكن ما لبثت العلاقات ان فترت بين البلدين عام ١٦١٦ على اثر اختلاس قنصل فرسى لعدة ملايين من المجوهرات والكتب القيمة التى ائتمنها عنده المولى زيدان (المؤرخ اندرى جوليان) وقد بعث المولى زيدان هذا - تقوية لمبادلات المغرب مع أوروبا - عملاء قاموا خلال الاقطار الأوروبية بدعاية واسعة لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه (النحاس والرصاص والحديد والكبريت وغيرها) ولكنه عمده فى نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاحمة الاجنبية فحظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية (٣) وكانت أهم المراسى اذ ذاك هي أسفى وأكادير وماسة أمامية سلا فانه لم يزدهر الا فيما بعد حيث بقى مدة من قرن اكثر مراكز المغرب نشاطا

وقد امكن للمغرب ان يصدر الى انجلترا فى عهد محمد الشيخ الثانى نسيجاً غليظاً مصنوعاً من الوبر وكذلك الذهب والزيت والسكر فى مقابل الحديد والرصاص والقصدير وكانت تبدو من انجلترا بوادر اطماع بالمغرب ومن جملة ما كانت برى الى استقلاله ملاحات الرباطوسلا التى كانوا يعتبرونها - كماورد ذلك دو كاستر فى وثائقه - كافية لاستهلاك مجموع البلاد البريطانية وكانت الاطماع الانجليزية تثير اطماع دول أخرى ويتمخض التنافس بين الدول عن تشجيع بعض رؤوس الفتن من المغاربة على اشاعة القلاقل والفوضى للاضطهاد فى الماء العكر وكان من نتائج ذلك تقلص المبادلات الداخلية بين الشمال الذى كان ينتج المنسوجات والكتان والزيت والخزف ومواد الحياطة والجنوب الذى كان يبيع المواد الخام وقد شوهدت خلال عدة شهور قوافل من الجمال (ما بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ جمل) تعبر وادى ابى رقراق يسوميا حاملة قموح الغرب الى الجنوب (كاييى فى تاريخ الرباط ص ٥٢)

(١) - وثائق دو كاستر ج ١ ص ٥٢٨

(٢) ايد المنصور بايعاز من ملكة انجلترا - ترشيح انطونيو لعرش البرتغال وأسلفه ٤٠٠.٠٠٠ جنيه ضمانتها استرهان الامير كريستوف نجل انطونيو فى القصر السعدى حيث مكث ثلاث سنين ناعم البال موفور الحال ثم رده فى الاخير لوالده بعد استشفاع اليزابيت دو كاسترى (ج ١ ص ٣)

(٣) - فى عام ١٦١٧ اصدر مولاي زيدان الى هولندا ستة آلاف من الجلد البقرى وستة وثلاثين صندوقاً من السكر وثلاثمائة قنطار من العود الذى يصبغ به وفى عام ١٦٢٥ ٢٥٠ ١٧ ارطلا من النحاس

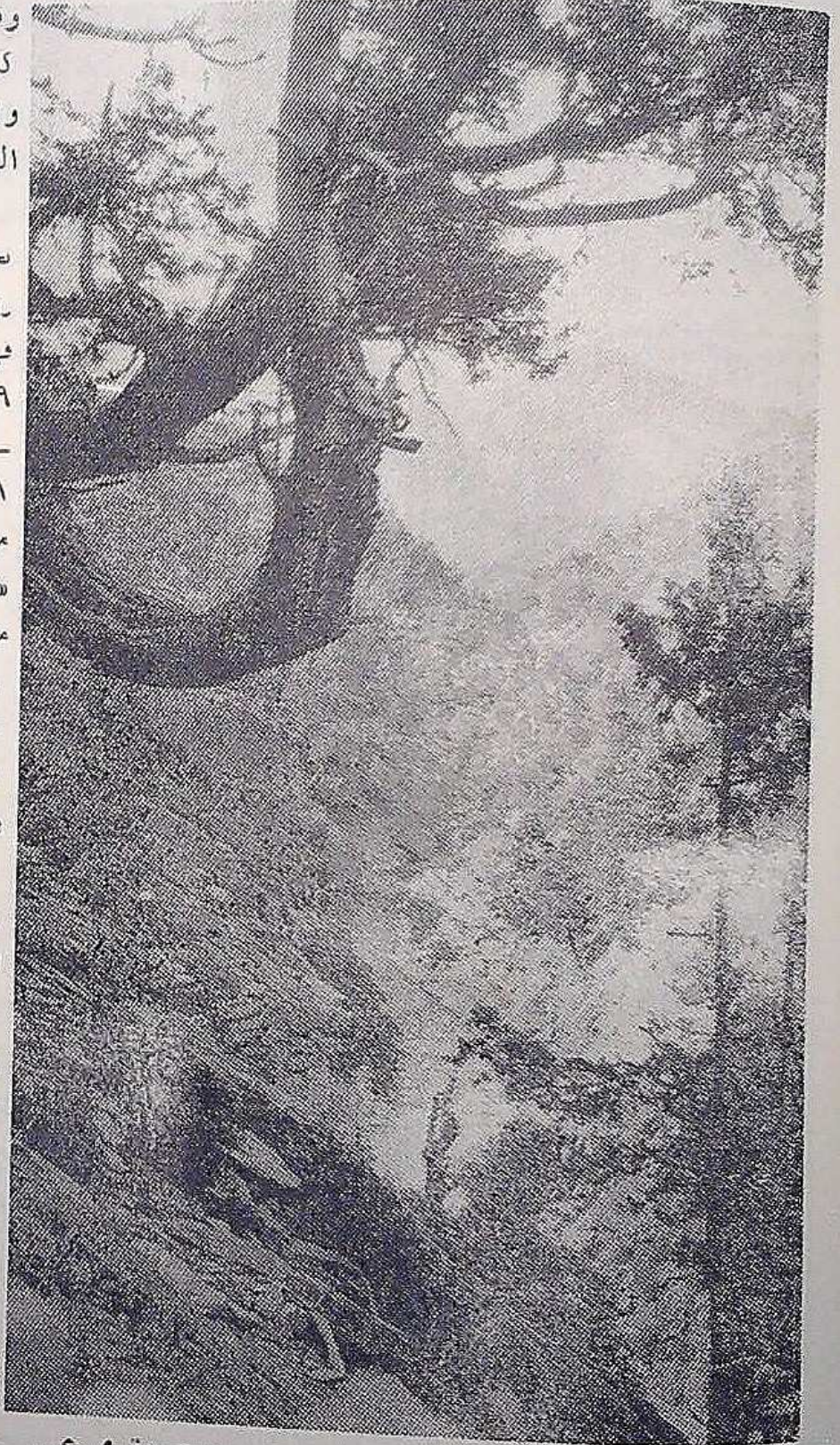
غير ان العدوان الاجنبى على المغرب فى اواخر السبعينين استفحل واقتطع الانجليز والاسبان والبرتغاليون لانفسهم من تراب المغرب مراكز زادت عن الاضطراب الداخلى والفتور الاقتصادى .

وكان اول عمل قام به مولاي رشيد ، هو القضاء على النفوذ الانجليزى فى الشمال باستئصال شافة الخضر غيلان الذى كان صنيعة الانجليز ثم حرر المولى اسماعيل المراسى التى كان يحتلها العدو وسعى فى تحقيق الوحدة بين اجزاء البلاد وقد اكد اندري جوليان ان عناية المولى اسماعيل بتقوية نشاط المغرب الاقتصادى لم يكن اقل من اهتمامه بالنزب عن حوزة البلاد

وقد قال قنصل فرسى عنه بانه كان يسعى فى تقوية رعاياه وتنمية ثرواتهم عن طريق التجارة التى كان يفضلها على القرصنة وما كادت تمر سندان على تحرير اصيل عام ١٦٩١ (يقول روبر ريكار بان اصيل لم يقع فى قبضة اية دولة اجنبية منذ ١٥٨٩ وهو خلاف المتعارف

- انظر هسبريس ج ٢٢ ص ٢٠١) حتى استأنف المغرب مبادلاته مع اوربا - حسب وية «دوسان اولون» فاصبحت فاس مخزنا عاما لمجموع المغرب بمدلا من سلا ويطوان ويجب لمغرب مختلف البصانع من سبانيا وابلجسترا وهولندا واطاليا ، وكانت الواجبات لجمركية المقروضه على الواردات والصادرات تبلغ احيانا ٢٥ فى المائة ، وتلى مدينه فاس فى لاهمية من اربع ، توزعت فيما بينها النشاط التجارى وهى مراكش وتارودانت وايليغ ومدينه مكناس السى كانت اول سوق للحبوب بالمغرب

وقد قصى سيدى محمد بن عبد الله على التهريب فى الجنوب بعد احتلال البريجة (الجديدة) وتأسيس الصويرة واضطر - ازاء دسائس بعض دول اوربا اللاتينية - الى التعامل مع دول



ممر بين صميد وادى اغبار حوض بدودانت وتري عى
جانبى الجبل غابات السمرووالعرعر

بروتستانتية مثل انجلترا والسويد والدنمارك التي عقد معها معاهدات تجارة وصداقة
كما عقد - قبل وفاته ببضع سنوات - معاهدة تجارة وملاحمة لمدة خمسين سنة مع الولايات
المتحدة وهذه المعاهدة المؤرخة بـ ١٦ يوليوز ١٧٨٦ قد جددت عام ١٨٣٦ .

وقد عرف المغرب ايام سيدي محمد بن عبد الله عهد رفاهة وسلام وكان للدولة ثروة موفورة
حيث بلغت موارد مكوس فاس سنويا ٥٠٠ الف مئقال اي ٢.٥٠٠.٠٠٠ فرنك بصرف ذلك
الوقت (سوردون في كتابه عن افريقيا الشمالية ص ٢٤١) وقد ذكر صاحب درة السلوك ان
السلطان تصدق خلال ازمة الجفاف التي استمرت خمس سنوات بـ ٥٠٠ مليون دينار
وهو مبلغ باهظ نشك في صحته وان كان هنالك ما يؤكد ان الدولة وزعت اذ ذاك على المدن
والبوادي الاقوات ومختلف الاعانات المادية ، وقد عهد السلطان - ضمانا لتموين البلاد
بالمواد الحيوية - الى منح قرض لدور تجارية تكفلت بجلب المواد من الخارج وبيعها بسمن
بخس ، وقد ورد من جهة اخرى ان مولاي احمد الذهبي وزع غداة اعتلائه اريكة العرش
٢٠٠.٠٠٠ دينار ذهبي اي نحو ٢٦٠ مليون فرنك وقد وجد في بيت المال ازيد من مائتي
مليون .

وقد ظل المغرب غنيا مما حده مولاي اسماعيل الى الغاء المكوس والجبايات المفروضة على البضائع
وكانت هذه تكفي وحدها لتسديد نفقات الدولة، وقد عدل السلطان حتى عن احتكار التجارة الخارجية
ولكنه اسس الديوانات في المراسى المفتوحة واقام عليها امناء لمراقبة المداخل الجمركية
وكان المغرب يصدر الى اوربا افائض منتوجاته ففي عام ١٢٦٠ اصدر عن طريق الصويرة وحدها
٧٥.٠٠٠ طن من القمح والقطاني وقد قدر مبلغ رواج هذا الميناء الفتي عام ١٢٦٧ هـ بستة ملايين
فرنك واستمر نشاطه الى عام ١٩١١ حيث زارته ٤٦٢ باخرة واصدر المغرب عن طريقه
٣٨٠٠٠ طن من المنتوجات المغربية في مقابل واردات لا تعدو حمولتها ١٢.٠٠٠ طن اي اقل
من ثلث الصادرات وفي سنة وفاة السلطان مولاي عبد الرحمن اي منذ قرن كان في المغرب
- حسبما ورد في كتاب قضية المغرب لم . لامارتنيير الصادر في نفس السنة اي عام ١٨٥٩ (ص ٤٨)
مليون رأس من الغنم و ٦ ملايين من البقر . (١)

اما الصناعة ففي اواخر ايام السلطان مولاي عبد الرحمن كانت الرباط وسلا تحتلان
الدرجة الثالثة في ضخامة الانتاج بعد فاس ومراكش وقد انتجتا معا ٨٤٠ زربية صدر
ثلثها الى الخارج و ٦٣.٢٠٠ حايك و ٤٦٠.٨٠٠ مبيبة ومات «الحرق» من المنسوجات
وكانت المنتجات المغربية مشهورة في اوربا بمئاتها وجمالها وكان بالمدينتين علاوة على ذلك ١٥
معملا «للبلغة» و ٤٠ دارا للصبغة و ١٠ دور للصبغة و ثلاث دور لضرب السكة تقوم بتدوير
تسعة قناطر من المواد الاولية كل يوم وكان نظام الحناطري يعمل في اطار من الحرية الكاملة
ولم يقصد - حسب اعتراف م . باليس (٢) الا بالاحتكاك مع نظريات اوربا وكان المخزن محرم
حرية التجارة وقد قام الاستاد ماسينيون عام ١٩٢٤ بتحقيق حول «الحناطري» في فاس
ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه ان عدد رجال الحرف
في هذه المدن يعادل مبدئيا عدد السكان في نفس المدن والفتور الذي لحق الصناعة

(١) - النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم ٤٩ و ٥٠

(٢) كان المغرب يملك في عهد مولاي عبد الرحمن ٤٠ مليون رأس غنم وما بين ١٠ و
١٢ مليون معز و ٥ الى ٦ ملايين رأس بقر وخمسة ملايين من الجمال والافراس والحمير والبغال
(كودار ص ١٨٨)

الاهلية هو من الاسباب التي تمخضت عنها البطالة بالاضافة الى هجرة البدويين الى الحواضر وتكاثر مدن القصدير الناجين عن سياسة الافكار التي نهجتها الجماعة في البادية على الخصوص اما الفلاحة فالظاهر انها كانت مزدهرة والشيء الذي يلاحظ بصورة عامة ان الثروة الفلاحية من محاصيل وغابات على الخصوص كانت في مختلف العصور اوفر منها اليوم فقد وصف لنا مرمول غابات امحى انرها اليوم ووصف لنا الحسرا ابن الوزان المعروف بليون الافريقي بحيرة الجبل الاخضر حيث كان هو نفسه يصطاد السمك وقد غاضت هذه البحيرة الآن .

وكانت حدائق اكدال بمراكش عبارة عن ضيع تجريبية حيث تغرس انواع شتى من الازهار والرياحين المجلوبة من اوربا

وكان القطن يغرس في النواحي التي لا تعلق كثيرا عن سطح البحر وحول المدن الكبرى منذ اوائل العصور الوسطى بل وحتى قبل الفتح الاسلامي ولكن في عام ١٨٦٦ كتب نائب القنصل الفرنسي بالدار البيضاء تيودور جيلبير تقريراً (١) ذكر فيه ان إنجلترا شجعت في عام ١٨٦٤ رعاياها القاطنين بالمغرب على زرع القطن في ناحية الجديدة فانتجت دكالة وحدها عام ١٨٦٥ نحو ٤٠٠ قنطار قيمتها ١٠٠.٠٠٠ فرنك ذهبية اي ازيد من ٢٠ مليون فرنك بالصرف الحالي وهو مبلغ لا بأس به اذا قورن بقيمة مجموع صادرات المغرب التي بلغت في نفس الوقت ٢٢ مليون فرنك ذهبية اي ٤.٤٠٠ مليون بالصرف الحالي وكان في هذا القطن المغربي نوعان معروفان في اوربا «سي -



واحة بالمنحدر الجنوبي لاطلس الصغير على مجرى الوادي وفيها غروس غنية : زياتين ونخيل وخضر

ايسلاند لهماسدى حريرى طويل من الطراز الامريكى الذى تقبل عليه اوربا عظيم الاقبال وكذلك اورليان الجديدة وكانت المصانع المحلية هي التى تنقى القطن الخام من الحبوب بواسطة الآلات .

وكان الانتاج الفلاحى يقوى ويضعف تبعا للمؤثرات الجوية كما هو الحال اليوم ومن جملة النكبات التى كانت تتوالى على المغرب علاوة عن الجفاف غارات الجراد غير ان الحكومة المغربية كانت تقاومها بوسائلها البدائية فتدعو السكان الى جمع بيض الجراد وتشتريه منهم بثلاثة ريالات للقنطار ثم تقذف به فى البحر على ان يبدو كانوا يحفرون خنادق حول ضيعاتهم لصد هجوم الجنادب وكان آخرون يحيطون هذه الخنادق بصفائح من القصدير كحافز وقائي من هذا الهجوم

وقد اعتنى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بزراعة قصب السكر وحاول استقدام فنيين اوربيين فأبوا ف جلب اختصاصيين مصريين لمباشرة تصفية السكر فى مصنع اكسال بمراكش (الاتحاف ج ٣ ص ٥٥٦) ومعلوم ان سيدي محمد بن عبد الرحمن كان يهتم عند ما كان خليفة لوالده بمراكش بترقية اساليب الفلاحة على وجه العموم ف جلب آلة لدرس الزرع ذات اربعة افراس وعدة آلات اخرى كما جدد حفر قنوات السقي وحاول حفر ابار على الطريقة العصرية وتاسست مصانع وطنية وبالاخص مصانع النسيج وقد احوال الامير بعض اراضى الرحامنة الى جنان مزهرة .

ولكن منذ احتلال فرنسا للجزائر بدأت النكبات تترى على المغرب الذى انهزم فى معركة ايسلى ، ثم فى حرب تطوان فاجبر على امضاء معاهدات لم تستفد منها سوى اوربا وعلى اداء غرامات فادحة (نحو ١٢٠ مليون بسيطة لاسبانيا و ٥٠ الف جنيه لانجلترا) وهذه الدبلوماسية المالية - كما يسميها اندرى جوليان - هي التى حدثت بعض الدول التى كانت تعمل على التعجيل بانهياء المغرب الاقتصادى للسيطرة عليه سياسيا - الى الضغط عليه لمنحه قروضا منوالية (٦٢ مليون ونصف مليون عام ١٩٠٤ و ١٠٠ مليون عام ١٩٠٧) وتسليمه كمصر مكتوف الايدي الى دول جشعة وكان المغرب يتوفر لحد الآن على « مالية وفيرة » و « حساب منتظم » كما يقول جوليان - فارتعن مستقبله وتوالت الدسائس والاتفاقات السرية التى تمخضت عن ازمة خطيرة ادت الى اجبار المغرب على قبول الحماية .

فاستعمار المغرب الاقتصادى بدأ اذن قبل الاستعمار السياسى وقد استقل المغرب الآن ولكنه ما زال لم يتجرد من رواسب الاستعمار الاقتصادى فالواجب يقضى بمضاعفة الجهود من اجل ابراز ذاتيتنا الاقتصادية كنتيجة محتومة لاسترجاعنا للذاتية السياسية ، ولكن ذلك لا يتم ولن يتم الا اذا نهجنا سياسة اكتفائية فى الكماليات واشباه الكماليات كما وقع فى بعض دول اسيا - ووسعنا نطاق التصنيع مع ترقية الاساليب فى الحرف التى نتج عن انهيارها ظهور جيش من العاطلين الذين يتعين شغل القسط البدوى منهم فى استغلال الاراضى الزراعية الصالحة فمقدراتنا موفورة وبلاد غنية كالمغرب من شأنها ان تصبح جنة وان يرتفع مستوى عيش مجموع سكانها اذا عرفت كيف تتكشف سنوات لتعيش فى الرفاهية دهورا .

الجيش المغربي

ان الجيش المغربي الذي هو مظهر من مظاهر حضارتنا وقوام جوهرى لسيادتنا قد اعتوره اطوار شتى فقد كان فى اوائل العصر الاسلامى جيشا غير نظامى يتكوا فى معظمه من المتطوعين او من اولئك الذين تعبئهم السلطة القائمة لغاية مؤقتة فكنت تجد فى نفس الجيش اشتاتا من مختلف القبائل كما وقع فى عهد موسى بن نصير الذى جاز الى الاندلس بالمصامدة وفلول من القبائل البربرية الاخرى المنتمية الى افريقية والمغرب ولم يكن العنصر العربى يمثل فى هذه المجموعة سوى طائفة معدودة حيث لم يرافق مثلا الجيش البربرى الى الاندلس تحت امره طارق بن زياد سوى سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشعائر الاسلام كما يقول ابن عذارى المراكشى فى البيان المغرب (ص ٣٧) ويظهر ان هذا الجيش الافريقى كان مجهزا اذ ذاك بما يتطلبه العصر من عدة اذا اعتبرنا الانتصارات التى احرزها رغم قلة عدده على جيوش العلوج المشهورة بحسن نظامها وقوة جهازها ولعل مثلا واحدا يعطينا نظرة عن الجهاز العسكرى العربى اذ ذاك وهو أن موسى بن نصير انصرف سنة ٩٥ هـ من الاندلس الى افريقية مجيزا الغنائم التى افاء الله عليه بها فى المراكب الى طنجة ناقلا اياها على العجلات الى الشرق (البيان ص ٣٨)

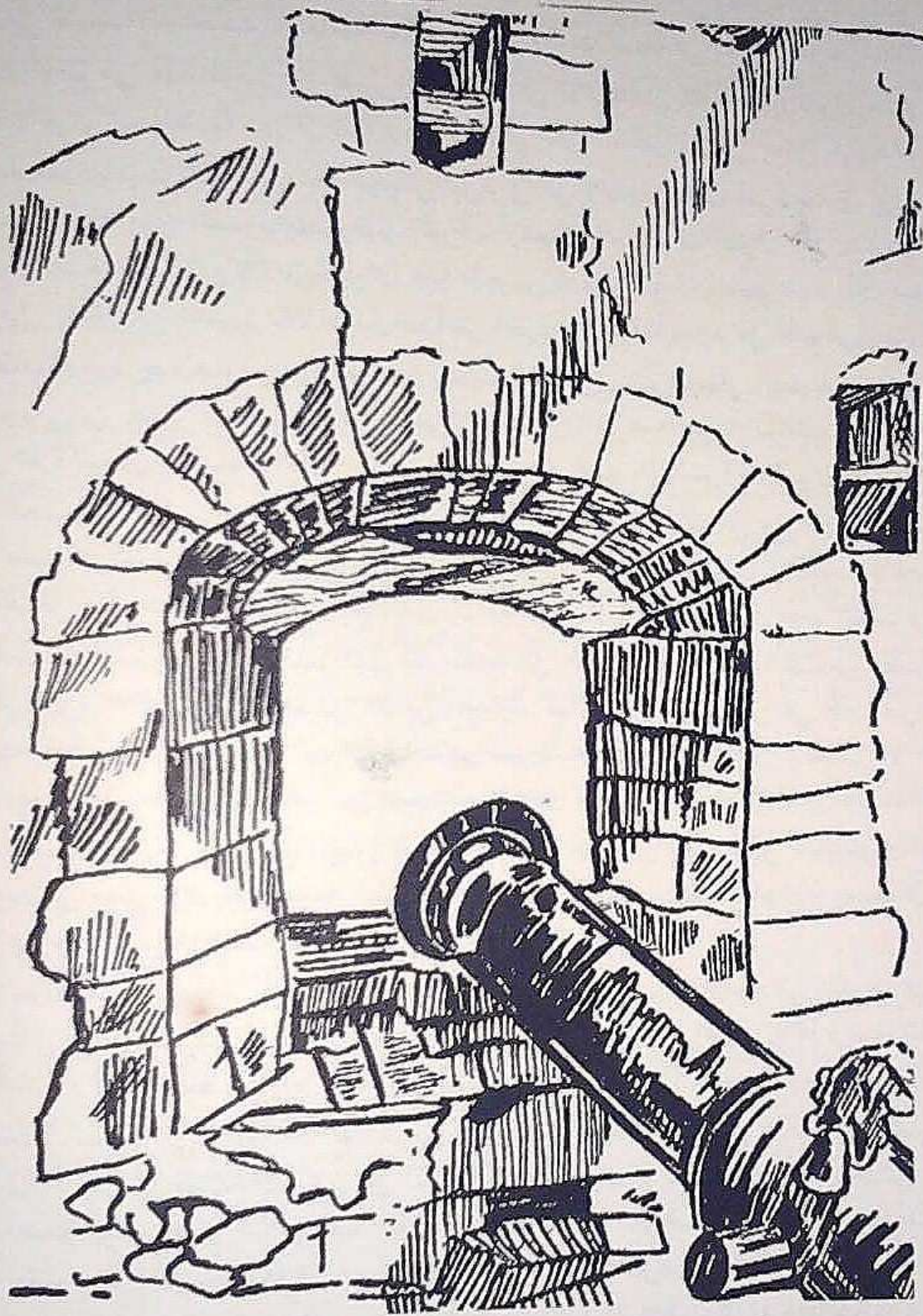
ولعل الجيوش الافريقية البربرية ظلت مبعثرة تتجاذبها القبائل من البتر والبرانس التى ما فتئت العصبية القبلية تمزقها الى ان جاء الاسلام فوحد هذه الصفوف والتأمت تحت ظله مختلف القبائل منذ عام ٨٥ هـ هو التاريخ الذى تم فيه اسلام اهل المغرب الاقصى تحت ولاية طارق ابن زياد فحولت المساجد التى كان المشركون قد بنوها الى القبلة ونصبت المنابر وطلق البربر يدخلون فى دين الله افواجا حيث تقبلوا الدين الجديد كما يقول ميشوبلير فى محاضراته بصدور ربح لانه خلصهم من الارهاق الجبائى وجعلهم سواسية لافرى بين عربى وعجمى الا انه ما كاد يمر نحو ربع القرن حتى رلى عمر بن عبد الله المرادى عاملا على طنجة من قبل عبيد الله بن الجبحاب فاساء السيرة واعترمت تخميس البربر زاعما انهم فى المسلمين فاستعرت اول ثورة بربرية حيث شق ميسرة المدغرى عصا الطاعة عام ١٢٢ هـ ووجدت دعوة الخوارج ميدانا خصبا لنشر دعايتها على اساس ما يقتضيه الاسلام من مساواة .

وبقيت الحالة متارجحة بين الاستقرار والفوضى الى ان ظهر الادارسة فى المغرب فتجمعت حولهم القبائل التى لم يسبق لها ان تكتلت فيما قبل فكنت ترى زواغة وزناة وسدراتة وغياث ونفزة ومكناسة وغمارة ومطعرة (او مدغرة) التى ساندت ميسرة المذكور ومغيلة وبنى يفرن ومغراوة تسير جميعا فى ركاب الفاتح العربى مخترقة تامسنا الى الاطلس الكبير الى السوس الاقصى فكان للمولى ادريس حينذاك جيش من المتطوعين البربر ثم مالبت هذا الجيش ان قوى وترعرع وانتظم حيث انضم اليه فى عهد المولى ادريس الثامى خمسمائة فارس من افريقية والاندلس ينتمون للقيسيه والازد والحزرج (زهرة الآس ص ١٣)

وفى عهد المرابطين ظهر جيش نظامى جديد (١) درب على الحياة العسكرية وانقطع لها غير ان هذا العدد من الجنود النظاميين لم يكن شيئا يذكر بجانب أجناد القبائل التى يستنفرها الامير للجهاد ضد

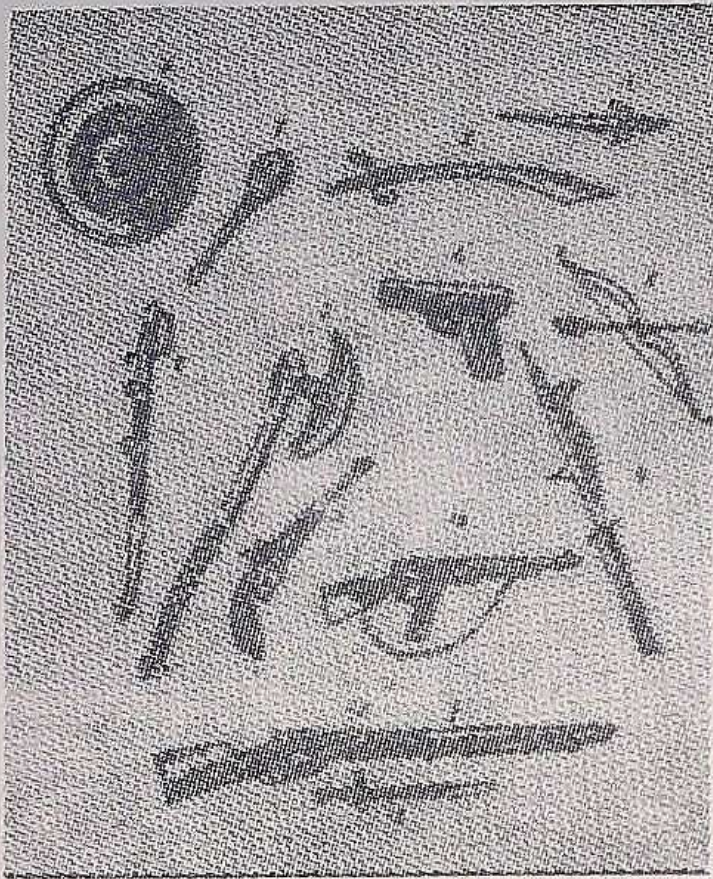
(١) - فى عام ٤٥٤ ادرج يوسف فى جيشه الاغزاز والرملة «فكمل له فى جيشه ازيد من مائة الف فارس من صنهاجة وجزولة والمصامدة والاغزاز (الانيس ج ٢ ص ٤١)

الأقتضاء وقد تمكن الأمير يوسف بن تاشفين من توحيد الاندلس واسترجاع حصونها وقلاعها من يد الجلالقة وغير الجلالقة ووحده المغرب بفضل استبسال جيوشه المظفرة من الصحراء الى الجزائر الى قشتالة ببلاد الاندلس حيث ترك حامية قوامها ثلاثة آلاف من البرابر وقد توفر لامير المسلمين المظفر جيش عتيد استعرضه رسميا في حصن لركة في جوازده الاول للاندلس (المعجب ص ٧٧) كما استعرض حفيده تاشفين الجيش المرابطي في تلمسان قاعدة المغرب الاوسط عام ٥٣٨ هـ (٩)



قصبة الاوداية - قلعة مولاي رشيد

(١) قصة استعراض الجيش من طرف عبد المومن بمحضر الوزير ابن عطية (المعجب ص ١٢٢)



(الحلل الموشية ١٠٨) ولم يكن لهذه الجنود على ما يلوح ديوان خاص لتسجيلها (١) كما كان يجري اذ ذاك في نفس العصر وقبله في كثير من الاقطار الاسلامية الاخرى والظاهر ان المرابطين كانوا كالفاطميين اول امرهم يحشدون بغير ديوان انما كان يكتب الى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم وامتدت رقعة المغرب في عهد عبد المومن بن علي الى طرابلس فكان له جيش عتيد اقتلع جدور الاستعمار النورمندی من افريقية بفضل اسطوله الذي كان كما يقول اندري جوليان في تاريخ افريقية الشمالية) ول استطول في البحر المتوسط (٢) ودخلت العناصر الهلالية العربية في الجيش الموحدى الذى اتسم بطابع جديد ضاعف قوته وكتل صفوفه ولم يكن الجيش الموحدى ولا

١ خنجر - ٢ سيف - ٣ دبوس - ٤ ترس - ٥ قوس ونبلة
٦ مسدس - ٧ فاس - ٨ سيف - ٩ صنجة - ١٠ بندقية
رشاشة - ١١ فرد - ١٢ بندقية - ١٣ حربة

الجيش المرابطى قبله يخلو ان من مرتزقة مسيحيين بحيث يبرهن وجودهم عما كان يذكى أمراء المغرب من روح التسامح ولكن اجل ما كان يلفت النظر في هذا الجيش الفتى علاوة على نظامه واستماتته الاشعاع الروحى بين صفوفه فقد ذكر المؤرخ ميليه في كتابه عن الموحدين ان فى كل فيلق من الفيالق الموحدية كانت الصلوات تقام بانتظام ولم يكن ذلك من قبيل التزمتم البارد ولكنه كان ينم عن ادراك صادق لمعنوية هذه الشعوب التى لم تكن تصل بينها سوى رابطة الدين فكانت كل قبيلة وكل فخذة تحت امرة قادتها الطبيعيين اللهم الا فيلق العبيد (ص ١٢٤) وقد تحدث المؤرخ المذكور عن حملة الموحدين فى افريقية فذكر ان عبد المومن زحف على رأس مائة الف مجاهد وانه لم يسبق لحملة ان سارت تحت قيادة اجدى واحسن فكانت ترى هذه الجماهير تخرق حقول الزرع دون ان تدوس سنابلها وفى كل مرحلة كان الجيش يصطف بكامله وراء امام واحد لاقامة الصلاة (ص ٨٠) وقد نظم فى مراكش ايام عبد المومن تدريب ثلاثة آلاف من الطلبة بالاضافة الى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرماية والتجديف فى البحيرة المؤسسة لهذه الغاية وقد استنفر عبد المومن لغزو الاندلس بعد ذلك الف جندى من كل قبيلة استقر معظمهم بالعدة واندرج كذلك فى جيش الموحدين فريق من الاغزاز والاكراذ الذين نزحوا من الشرق الى المغرب فتقبلهم

(١) - تحدث صاحب المعجب عن كتابة ديوان الجيش فى عهد الموحدين (ص ١٦٢)

(٢) - ذكر ابن خلدون فى تاريخه ان يعقوب المنصور امد صلاح الدين الايوبى بمائة وثمانين اسطولا لمقاتلة النصارى بفلسطين ثم قال : «وهذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالاساطيل الجهادية وعدم عناية الدول بمصر والشام لهذا العهد بها»

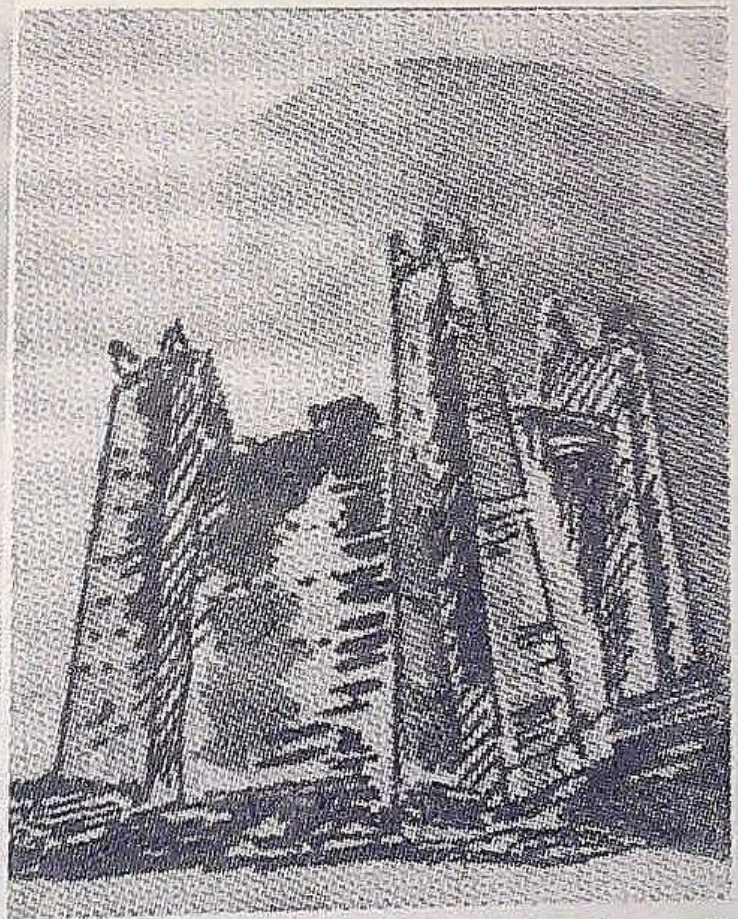
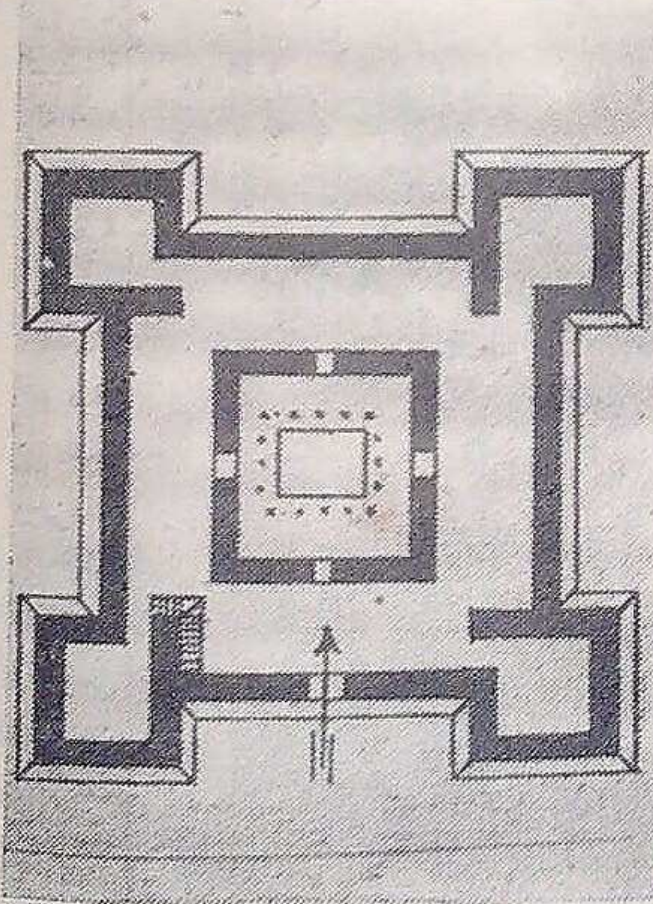
الموحدون لمزاياهم العسكرية ولبيت هذا الجيش في نمو مطرد حتى بلغت مقاتلته في عهد الناصر ستمائة ألف مابين رجاله وفرسان ينتمون للمغرب وافريقية أجازوا كلهم لانجاد الاندلس (الذخيرة السننية ص ٤١) (١)

وقد شمل الجند المريني الذي اتسم بنفس القوة وتوفر على نفس العتاد بل اشد - قبائل زناتة وقبائل العرب المستقرة في المغرب فكان من العرب الفرسان ومن الاندلسيين حملة الاقواس ومن المرتزقة النبالون والرماة

ومعلوم ان العرب هم الذين اخترعوا العتاد الناري كما اكد ذلك جوستاف لوبون في حضارة العرب (ص ٦١٦) وأوضح ابن خلدون ان ابا يوسف المريني حاصر سجلماسة عام ٦٧٢ بالمجانيق واكد ذلك صاحب (الذخيرة السننية ص ١٥٨) ويفهم من هذا ان المرينيين كانوا ول من استعمال الاسلحة النارية الا ان صاحب الجلل الموشية تحدث عن استعمال ابن عباد للسهم والمطارد والرعادات وغير ذلك من الآلات في الجواز الثاني لابن تاشفين الى الاندلس أي عام ٤٨١ هـ (ص ٥٥)

على ان هناك كثيرا من العادات العسكرية يظن انها حديثة العهد في حين كان العمل جاريا بها منذ عدة قرون من ذلك - وان كان مخالفا لما يجري به العمل الآن ولكن اصل الفكرة موجود - ما رواه صاحب الذخيرة السننية نفسه من ان رايات العدو نشرت في عهد ابي يوسف المريني منكسة في اعلى منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بعد انتصار الجيش المغربي في الاندلس (ص ١٧٤)

في عهد السعديين اقتبس المغرب من تركيا نظامها العسكري في كثير من مظاهره واستند المنصور



تصميم لحصن بربري في لاطلس مع صورة لهيكله الخارجي ، وتتجلى فيها بروج

(١) - كان في جيش عبد المومن ٣٨٠ ٠٠٠ فارس و ١٠٠ ٠٠٠ راجل كلها رابطة في سلا (الانيس المطرب ج ٢ ص ١٦٧)

الذهبي الى ضباط اترك تدريب العلوج والاندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان وقد أكد سوردون ان قبائل الجيش (الكيش) اسندت قيادتها الى ضباط يسمون باشوات وهو لقب تركي دخل لأول مرة في العهد السعدي الى المغرب (فرسافي افريقيا الشمالية ص ١٥٤) وقد بلغ عدد الجنود المرابطين في فاس وحدها في عهد المنصور ٢٢٠٠٠ من بينهم ٤٠٠٠ مخازنية كلهم بكساي الملقب بالحرير والكتان (تاريخ الدولة السعدية ص ٧٣) وكان عدد الفرسان في مراكش اثني عشر الفا (نفس المصدر ص ٧٤) والسلطان مولاي عبد الله السعدي هو الذي ادخل الاندلسيين في الجيش المغربي (ص ٣٨) وقد كان لولده المسلوخ ثلاثون الفا من بينهم ١٨٠٠ اندلسي (ص ٤٨) في حين ان مولاي عبد الملك هو اول من ادرج أهل فاس في سلك الجيش مع ما كان له من رجال الاندلس وشرذمة قليلة من الترك (ص ٥٣)

ومما يدل على اهمية الجيش السعدي (١) ان احدي محلات مولاي محمد كانت تحتوى على اكثر من ١٥٠ نقضا اهدى منها مولاي عبد الملك الى الاتراك عشرين ومائة من الجرائحين والحجامين وادوات للمجاريح واردة الكتان للرباطات والجباثر وكان يوتى بالمجاريح من ساحة القتال الى المحلة فتشد جراحتهم ويصنع لهم الدواء في الحين (ص ٥١) وكان الملك قرر التجديد العام في ظروف خاصة حيث استنفر السلطان مثالا في فاس واحوازها لمعركة وادى المخازن كل بالغ من عرب وبربر ووجه قوادا لمختلف القبائل والمدن للسهر على التعبئة العامة (ص ٦٠) وبفضل هذا الجيش العتيدي تمكن المغرب من الانتصار على البرتغال في وقعة وادى المخازن التي لم ترفع البرتغال الرأس بعدها طوال عدة عقود من السنين كما استطاع المغرب ايضا تأمين البلاد حيث الزم شيوخ المداشر ورؤساء القبائل ضمانة ما يضيع في مقاطعاتهم «فانتشرت العافية وظهرت الهدنة من باب تازة الى اقصى سوس» (ص ٦٦)

وفي العهد العلوي بدأ نظام جديد انقسمت بموجبه البلاد الى ثلاث مقاطعات عسكرية تافيلالت ومراكش وفاس واصبحت هذه المقاطعة الاخيرة بعد قليل مركز قيادة الجيش المغربي بعد مكناس في العهد الاسماعيلي

وكان عشرات الآلاف من المتطوعين يتواردون من شرق البلاد وجنوبها للانخراط في الجيش الاسماعيلي العتيدي الذي تكونت نواته الاولى من شراكة (المغرب الشرقي) والاوادية من الجنوب واحواز الرباط والشراردة وكذلك العبيد الذين كانوا يرابطون في مكناس وتنضم الى هذه العناصر القارة فلول من سوس وعبدية والمنابذة والرحامنة واولاد احمر

وكان الى جانب هؤلاء الجنود المرابطين في القصبات فيالق من المخازنية الذين يقومون بحراسة السلطان او الباشوات وكان عمال المدن يشرفون على الجنود المرابطة ويراقبون في منطقة نفوذهم ويظهر ان المغرب كان مقسما الى سبع نواح (يزيد العدد وينقص) (١) ناحية طنجة وفي ضمنها تطوان واصيلا وفجيج ووجدة (٢) وناحية العرائش التي يمتد نفوذ جيوشها

(١) - ذكر جان نيكو في مذكراته التي كتبها عام ١٥٦١ ميلادية ان الامير محمد السعدي فتح الجديدة بجيش يبلغ مشاته ١٢٠٠٠٠ وفرسانه ٣٧٠٠٠ علاوة على ١٣٠٠٠ جندي آخرين من الطلائع التي تعبد للطرق و ٢٤ مدفعا منها مدفع يسمى الميمونة الذي كان يبيت الرعب في النفوس وكان المغاربة في البرتغاليون يستخدمون الالغام والآلات المضادة لها - وفي عام ١٦١٠ قرر المجلس الهولندي السماح السلطان مولاي زيدان بصنع ثلاث او اربع بواخر حربية في الاوراش الهولندية ونقلها الى المغرب (وثنائق دو كاستر ج ١ ص ٥١٩)

الى وزان والقصر (٣) وناحية الثالثة مع الجديدة وآسفي وأزمور (٤) وناحية مراکش مع الصويرة
واكادير وتارودانت وسوس والاطلس الكبير وتافيلالت (٥) وناحية الرباط مع مهدية والدار
البيضاء (٦) وناحية مكناس مع زرهون (٧) وناحية فاس مع تازة وقصبات الريف
وهكذا كانت معسكرات الجند منتشرة في جميع انحاء المغرب في ناحية فاس مثلا كنت تجد
من الخيالة ٣٠٠٠ من شراكه و ٤٥٠٠ من شراردة و ٢٠٠٠ من الاوداية وكلهم تابعون لقائد المشور
على ان جميع الرجال الاصحاء المنتظمين لمختلف القبائل والحواضر كانوا خاضعين لمبدأ
التجنيد العام اما لتكوين جيش الرديف واما لتشكيل فيالق تعبد عند الحاجة لمواجهة القلاقل
في جهة من الجهات .

وفي مجموع هذه النواحي اقام المولى اسماعيل بالنقط الاستراتيجية معاقل (قصابي)
ترابط فيها حاميات يتراوح افرادها بين ٤٠٠ و ٣٠٠٠ وتمدها القبائل بالمير والمؤن وقد احصى
من هذه الحصون ٧٦ في غربي البلاد وشمالي الاطلس على الخصوص وكان القائد في كل قصبة هو
المستول عن سلامة منطقة حراسته حيث يجب ان تسود الطمانينة والهدوء وقد عاشت البلاد خلال
هذا العصر في بحبوحة من الامن الاستثنائي كما يقول اندري جوليان في «تاريخ افريقيا الشمالية»
ولم يكن هنالك ديوان عام للجيش على ما يلوح اللهم الا فيم يخص العبيد واهل سوس
الذين كانوا يمثلون العنصر النظمي في الجيش المغربي فكانت اسماؤهم وحيثياتهم
تقيد في سجلات خاصة و كان المولى اسماعيل اول الامر يستمد جند من القبائل حتى اطلعه عمر



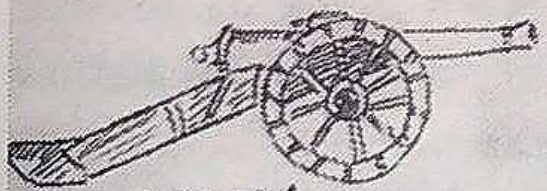
منجنيق



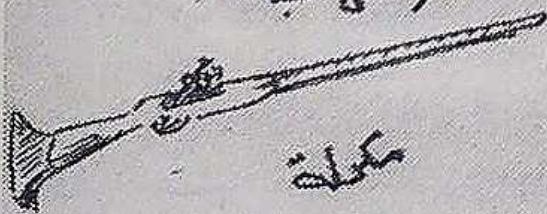
مدفع عربة



مدفع على سكة



مدفع من طراز الفرنج
الرايع عشر
(على عجلة)



مكحلة



نماذج من أسلحة قديمة

عليش على دفتر فيه اسماء العبيد الذين كانوا في جيش المنصور السعدى وكانوا منتشرين في مراكش واحوازها وقبائل الدير فجمع منهم ٣٠٠٠ ، وهذا يدل على ان السعديين كان لهم ديوان عسكري (١)

وما زال البعض من هذه الدفاتر محفوظة في الخزائن الزيدانية ، وتوجد دفاتر اخرى تحتوى على لوائح جنود القبائل وكان في كل قبيلة بجانب السجل الجبائي سجل خاص بالخدمة العسكرية يحرر في نسختين .

وقد اشار الناصرى الى ان قضية تجنيد العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلى (ج ٤ ص ٤٢) ومن بينهم اهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة على وجه الجذبة وكانت الى جانب هذا الجيش عناصر من المخازنية تشكل الحرس الملكى منها ٤٠٠٠ من العبيد (٣٠٠ فارس) علاوة على العناصر التى تنتمى الى القبائل التى تمد البلاد بالرقاصة الفرسان والمسخريين والعساكر الموزعة على المدن والمراكز الملحقة غير ان هذه القوة لا ترابط الا للدفاع اما الجيش فانه يستمد عناصره فى الحقيقة من القبائل التى يتعين على كل منها مبدئيا تجنيد طابور يتركب من ٥٠٠ رجل يحمل اسم القبيلة ، وكان مجموع هذه الطوابير يحتوى على ٢٥.٠٠٠ المشاة النظاميين مع طليعة من الفرسان وفرقة من الطبجية او الرماة .

اما جيش المشاة غير النظامى الذى برهن عن استماتته خلال حرب تطوان (١٢٧٦ - ١٨٥٩) فقد بلغ ٢٥.٠٠٠ وكان الطابور القبلى يبلغ احيانا ٣٠٠٠ او يقل عن ذلك تبعا لاهمية القبيلة حيث يجند فرد من كل عائلة وربما تزيد عدد افراد الطابور فى القبائل الكبرى فاصبح عبارة عن آلاى او فيلق ، اما الطابور العادى وهو المحتوى على ٥٠٠ جندي فانه كان تابعا لقائد الرحى الذى لم يكن شبيهه بالكلونيل ، كما يظن البعض ولكن مجرد قائد معسكر ، كما لاحظ ذلك روني لوكير فى بحث كتبه عن الحالة فى المغرب سنة ١٩٠٧ ، وكان لقائد الرحى خليفة يساعده (وهو اشبه بالليوتنان كولونيل حسب البعض) وكل رحى تنقسم الى سرايا من مائة رجل تحت امرة قائد المائة الذى يريد بعضهم تشبيهه بالقبطان ، والمائة تتوزع بدورها الى جماعات يتركب كل لفيف منها من ١٢ شخصا عليهم مقدم (أو نقيب عسكري = سوزوفيسى) وهذه تنظيمات مبدئية لاندري - لعدم ورود ذلك فيما نعرف من مصادر - هل كانت تتحقق دائما فى كل عصر من عصور تاريخنا الحديث على ان الدولة كانت تستعين عند الحاجة بالمتطوعين البالغين لسد الفراغ الملحوظ أحيانا فى صفوف الجيش ، أما فى الحواضر فان الطابور كان يتسم باهمية خاصة فيناهم افراده الالف ولا ندري هل كانت المدن كلها تساهم فى حركة التجنيد هذه ام لا . الا ان الصحافى الانجليزى هاريس يحدثنا ان مولاي الحسن عمل على تنمية الجنود المشاة فى هذه الطوابير الحضرية بفرض مدد من الجنود على كل مدينة باستثناء مدينة مراكش .

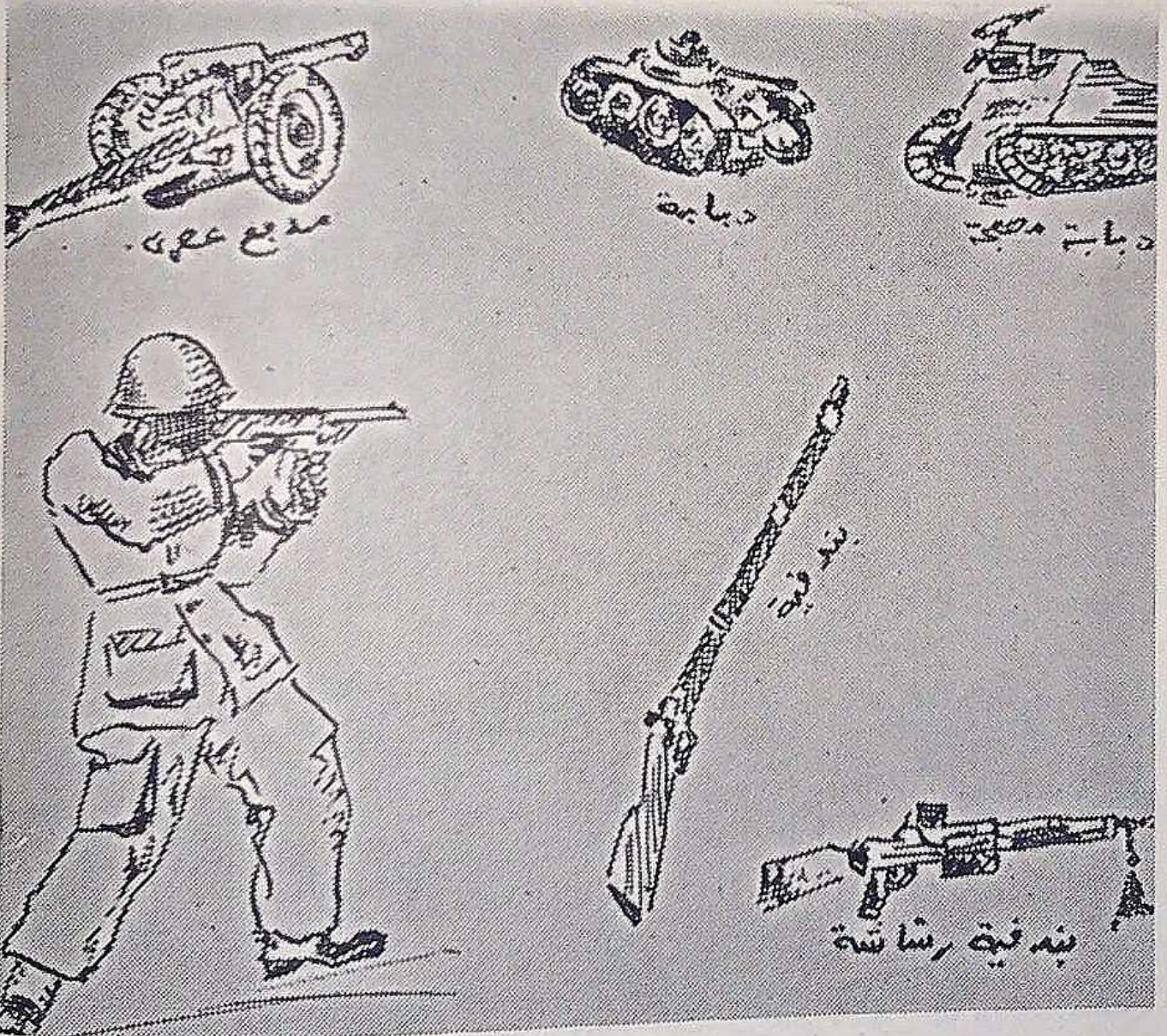
وهناك ما يدل على ان مولاي اسماعيل ربما حصن بعض الحواضر بالجنود استجابة لليوسى الذى لاحظ عليه عدم عمارة الثغور وبدائية العتاد الشعبى كالعصى والمقاليع ، وطلب منه تفقد السواحل من قلعية الى ماسة .

على ان الخيالة الذين بلغ عددهم نحو العشرة آلاف كانوا يعبأون ويوزعون بنفس الطريقة

(١) جمع عليش بأمر من قاضى القضاة محمد العياشى نحو سبعين الفا من العبيد الحقها بمشرع الرملة وألحق بباب السلطان نحو العشرة آلاف من الذكور ومن الاناث عشرين الفا

حيث كان الطابور من الفرسان أشبه بكوكبة من ٦٠٠ فارس ولم تكن كتائب الخيالة تدخل في العمليات الا عند الاقتضاء في حين ان المشاة كانوا دائما على سباق لمواجهة الطواريء او خوض غمار «الحركات» وكان قسط مهم من هؤلاء الفرسان لا يجندون من بين القبائل الا عند الضرورة الحربية الملحة اما في عهد السلم فان الخيالة لم تكن تعدو كتيبة من فرسان السدرك او الحرس الموزعين على مختلف المراكز العسكرية (٤٠٠ فارس في القلعة من القلاع الست والسبعين) ، وفي عهد مولاي عبد العزيز اصبح الفرسان يجندون خاصة من قبائل عبدة والوداية وشراكة والبخاري والشراردة والرحامنة والمنابهة وحربيل .

اما جنود المدفعية فان عددهم كان يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ رجل يربط جزء منهم في فاس ووجدة ، وقد استعمل المولى اسماعيل «المدافع والمهارييس والمجانيق وسائر آلات الحصار والكور والقنابل (البنب) وجند في تادلا وحدها ٢٥.٠٠٠ من الرماة (الاستقصا ج ٤ ص ٣٨) وعندما فتح جبال فازاز غنم ١٠.٠٠٠ من الخيل و ٣٠.٠٠٠ بندقية (مكحلة) مما يدل على ان البربر كانوا مسلحين على احدث منوال اذا رو عى مستوى العتاد في ذلك العصر ، على ان المولى اسماعيل لم يترك للقبائل لاختلا ولا سلاحا ، اللهم الا عند العبيد والودايا وآيت يبور وأهل الريف المجاهدين في سبته الترحاصرها ايضا ٢٥.٠٠٠ من أهل فاس وكان جيش الودايا



نماذج من الاسلحة الحديثة

يحتوى على ثلاثة ارساد : أهل سوس والمغارة والودايا .

وعند فتح العرائش وضع الجنود «المينات» (البارود) تحت خندق سور المدينة الموالى للمرسى ، ثم اوقدوا النار فنقطت وسقط جانب من السور واقتحم الجند المدينة حيث غنموا ١٨٠ مفعاً ، وقد استعمل الجند المفرقات فى الحصار عند تحرير مدن الشمال ، وكانوا يصنعونها بانفسهم كما استعملوا اساليب راقية فى الهجوم (طنجة وناحيتهاج ٧ ص ٨٣) (١)

وفى العهد الحسنى كانت لفرقة الطبجية هذه عشرون بطارية من نوع كروب وشنايدر او من نوع رشاشات «ماكسيم» وكان المشاة يستخدمون البنادق من طراز «شاشبو» او «مارتينى هانرى» المصنوعة بفاس على سق خمس فير اليوم ، أما الفارس فانه كان يستعمل الحراب والرماح والمسدسات والسيوف والخناجر والبنادق (٢)

وقد عمد الـ سلطان مولاي الحسن من اجل تجهيز القبائل بالعتاد العسكرى وتمكينها من الدفاع عن حوزة البلاد بجدوى - الى تكديس مخلف الاسلحة بفاس كما سلاه، نهجا مرنا فى مدافعة الدول ، بعضها لبعض وتحقيق نوازل يهدف الى الحيلة بينها وبين اى تدخل فى شؤون البلاد فأسند الى ضابط انجليزى قيادة احد الفيالق والى بعثة من الخبراء الفرنسيين التدريب العسكرى للجنود المغاربة ، كما اناط بضباط ايطاليين ادارة مصنع الاسلحة بفاس وكلف مهندسا المانيا ببناء برج بالرباط ، وقد سبق للملوك العلويين ان أقاموا عدة أبراج فى كبريات المدن مثل برج صقالة الذى بناه سيدى محمد بن عبد الله عام ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) فى الرباط على يد احد الانجليز وبرج الصراط الذى تم بناؤه ايضا على يد الانجليزى المذكور عام ١١٦٩ (١٧٥٦ - ١٧٥٥ م) وبرج الدار الذى شيده بعد ذلك المولى عبدالرحمن عام ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤ م) وكلها فى نفس المدينة

وقصبة الاوداية التى بنيت ايام المرابطين كانت مركزا لجند الاوداية الذين ثاروا فى فاس أيام المولى عبد الرحمن فطردهم من فاس عام ١٢٤٨ هـ (١٨٢٣ م) ومحاصروهم من ديوان الجشر

(١) - بلغ عدد المراكب فى دولته عشرين كبارا وثلاثين من البوارج (الفراكيط) وبلغ عدد قواد البحر ستين قائدا كلهم بمراكبهم وبحريتهم وبلغ عسكر البحرية الفا من المشاركة وثلاثة آلاف من المغاربة ومن الطبجية أى رجال المدفعية الفين وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر الفا ومن البيض سبعة آلاف واما عسكر القبائل الذى كان يغزو مع الجند فمن الحوز ثمانية آلاف ومن الغرب سبعة آلاف .

وكان لدى سيدى محمد بن عبد الله ٥٠ مركبا منها ثلاثون من الفراكت تحتوى على ٦٠ قائدا وخمسة آلاف بحار والفين والفين من الطبجية و ١٥ ٠٠٠ من العبيد و ٧٠٠٠ من الاحرار و ٨٠٠٠ جندي من الحوز و ٧٠٠٠ من الغرب

- وذكر محمد بن القاسم المراكشى فى كتابه الحلل البهجة فى فتح البريجة ان السلطان محمد بن عبد الله وصل الى البريجة (أى الجديدة) فى رمضان عام ١١٨٢ فشرع نصارى البريجة فى ارسال المجانيق من اسوارها فتقع وراء المحلة فامر السلطان بضربهم بالكور والبنب وهو شئ على قدر القنور مصنوع من سبعة معادن وزن كل واحد يزيد على القنطار ففرت سفن النصارى وغرقت اربعة زوارق منها وانهمزم النصارى واسترجع المغاربة المدينة .

(٢) - كان مولاي الحسن يحضر تدريب الجند كل اثنين ويستعرض الجيش كل أربعة (سوردون - فرنسا فى افريقيا الشمالية ص ٢٠١) وكان مولاي عبد العزيز يستعرض الجند فى المصلى بفاس

وشتنتهم في البلاد فاستفروا بعضهم في قصبة الرباط المذكورة وقد بلغت حامية إيسى
رقراق ٢٠٠٠ من الرماة والبحارة

وقد تضخم عدد «القصابى» والقلاع حيث أسس المولى اليزيد وحده ١٦ قلعة علاوة على الست
والسبعين قلعة الاسماعيلية ووجهز كل واحدة منها بـ ٢٠ مدفعاً .

أما قيادة الجيش فانها ترجع في الواقع الى السلطان الذى يعتبر القائد الاعلى الذى يشرف
بنفسه على الحركات المهمة وقد لوحظ ذلك منذ عهد الادارسة ثم فى ايام المرابطين حيث به
عبد الله بن ياسين ابا بكر بن عمر اللمتونى الى ان مهمة الامير ليست هى القتال وانما تنحصر
فى الاشراف والتوجيه ، ولم يكن العلاف الكبير هو وزير الحربية بكل معنى الكلمة وانما كان صلة
وصل بين الملك والجيش يسهر على تموين الجند - طبقا لمقررات السلطان - بالميرة والعتاد ، كما
ينفذ الاوامر الملكية فيما يخص تعيين الضباط والقادة وكان العلاف يمسك سجلا للعسكر
يقدمه للسلطان يوميا مديلا بمضاء الصلح الاعظم حيث تسطر لائحة الجند مع التغييرات
الطارئة .

ولكن القائد الاعلى الفعلى هو قائد المشور يليه رتبة قائد المحلة (والمحلة مبدئيا هى الفيلق الذى
يرابط موقتا فى ناحية مضطربة) وهو اشبه بجنرال يشرف على قواد الرحي وقواد المائة والمقدمين
وشرطيين العسكرات ورجال الامن الذين يسيرون فى ركاب الجيش ، اما قائد العسكر فهو
كناية عن قائد جيش او فيلق يقوم عمليا بدور الامين العسكرى او ضابط التموين تحت امره
كبير المحلة .

أما التدريب العسكرى فقد اتخذ عدة اطوار اولها الاسلوب المتبع فى تدريب العبيد على
الجندية ، وما يمكن ان نسميه بالهندسة العسكرية ، فقد كان المولى اسماعيل يعمد الى اولاد
العبيد فيوزعهم على البنائين والنجارين ومختلف ارباب الحرف ثم ينظم التدريب على
ركوب الدواب بالتدريج ، ثم تاتى السنة الاولى للتدريب العسكرى الحقيقى فيلبس الجندي
الزى العسكرى ، ثم يمارس ركوب الخيل وسوقها فى الميدان ويمارس الكر والفر «والمطاعنة
والمرامة على صهواتها» كل ذلك خلال سنوات يندرج هؤلاء الجند بعدها فى سلك الجيش ويكتبون
فى ديوان العسكر وقد بلغ عدد من مارس التدريب على هذه الطريقة ١٥٠.٠٠٠ منهم ثمانون
الفا موزعة على قلاع المغرب (٢٥.٠٠٠) منها فى مكناس العاصمة العسكرية كحرس
للسلطان ٧٠.٠٠٠ من المحلة بمشروع الرمل وعلاوة على جيش العبيد نظم مولاى اسماعيل حماة
للسواحل فتمكن من تحرير طنجة والعرائش واصيلا والمعمورة

ويظهر ان المغرب نهج فى التدريب العسكرى مناهج مختلفة منها التركى والانجليزى
والفرنسى لاسيما فى فاس والرباط وطنجة وقد ذكر «رونى لوكير» ان المغرب اوفد
بعثات عسكرية الى الخارج لتتدرب فى الفيالق الهندسية باوربا وبالاخص فى مونبوليى
على حفر الخنادق والتلغيم والنسف بحيث يرجع البعض بتكوين عسكرى حقيقى وكان الجيش
يمارس التمارين ويقوم بالمناورات العسكرية اربعة ايام فى الاسبوع اما فى ارياض المدينة
كفاس واما داخل القلاع كما فى طنجة ، وقد استقدم المولى محمد بن عبد الله بعثة من
الخبراء العسكريين الاتراك لتدريب رماة الجيش كما وجه مثلا ٦٠٠ جندي من آيت عطة و
٤٠٠ من عبيد تافيلالت الى طنجة للتدريب على العمليات البحرية

وفى كل يوم اثنين كان مولاى الحسن يحضر بنفسه فى تمارين المدفعية ، وفى يوم الاربعاء كان
يستعرض الجند لمراقبة عدده وعدده ، وهذا الاستعراض اندرج ضمن العوائد العسكرية
بالمغرب ، كما لاحظنا ذلك منذ عهد المرابطين وقد لوحظ ان اهل فاس الذين اشتروا آخر الدولة

السعدية الخيل ووظفوا على كل دار مكحلة كانوا يستعرضون جيشهم بخيله وسلاحه في باب فتوح ، وحتى اوائل القرن الحالى كان في كل مدينة حامية تتكون من فيلق يخضع مباشرة للسلطة المركزية ويستخدمه الباشا عند الحاجة ، وكان الجند يقومون خلال النهار بحراسة ابواب المدينة والمراكز المهمة فيها كما يحرسون البنايات العمومية ويساعدونهم في الليل عسس مدنى يبلغ عددهم نحو الخمسين يعملون بالتناوب .

وقواد المائة هم الذين كانوا يراقبون جماعات الحرس بينما كان قائد الدور يشرف على الدوريات الليلية وعددها اربعة افراد يطاردون السكاري والمتسكعين والعواهر ، فينفلون اولئك الى القسبة وهؤلاء السى سجن النساء

وفى خارج المدن كان الموظفون العسكريون يرابطون جماعات تحت الخيام بينما يظل الحرس المدنى رابضا فى الطرق الكبرى المؤدية الى المدينة وتختلف الاساليب والمناهج باختلاف اهمية المدن ، ففي الدار البيضاء مثلا كانت القوات الخاضعة لقائد المدينة عبارة عن ثلاثين من المخازنية او فرسان الدرك زيادة على خمسين مدفعا و طابور للمشاة النظاميين تحت امره قائد رحى وقائدى مائة ومقدمين او عرفاء . وفى المدن الاخرى كان الباشا المشرف على الخيالة يسمى باشا او قائد الجيش

اما الزى العسكرى فقد اختلف حسب العصور ولكنه تبلور اخيرا فى سروال ازرق وصدرية حمراء ، وكان المشاة يلبسون «جبادولى» احمر او اخضر وسروالا ازرق وصدرية وطربوشا وكلاهما احمر بينما يحمل الضابط قميصا واسعا الكمام وقفطانا وغرجية وطربوشا او شاشية وبرنسا خفيفا

اما العلم فقد كان ابيض اوائل العصر الاسلامى قياسا على راية الفاطميين والامويين (بخلاف الراية العباسية التى كان لونها اسود ثم ازرق) على ان راية امراء صنهاجة كانت متعددة الالوان ، ولكنها صارت بيضاء ايام الموحدين والمرينيين والسعديين ثم اختار العلويون اللون الاحمر من راية الاتراك وكانت الراية تطلع فى العهد الاسماعيلى كل صباح فوق الابراج كما تزين البنايات الرسمية بالعلم الوطنى اما الخاتم السليمانى الاخضر فانه لم يصف الى الراية الا بظهير يوسفى .

وفى خصوص الاجور العسكرية يظهر ان المخزنى المحظوظ لم يدن يتقاضى اقل من فرنكين فى اليوم وزياد خلال «الحركات» وهو مبلغ مهم اذا ذاك (وكان الجدنى الراجل يتقاضى بسيطه واحدة فى اليوم بطنجة وثلاثة دروش حسنية بفاس) أى درهم ونصف)

وفى ايام الجمعة كان الجند يتقاضون جرنهم كاملة مع نصف جره ريدة ونبذ اجرة المقدم فرنكا ونصفا ، وقائد المائة فرنكين ونصفا ، وقائد الرحى اربعة فرنكات ونصفا ، وارايل الحرب منحة منظمة بشرط ان يكون ازواجهم مسجلين فى الجيش النظامى ، اما جندى المحلة فانه كان ياخذ وجبة من الخبز والسميد والزبدة او الزيت وكذلك اللحم فى ايام العيد وقد لاحظ كاييى ان القائد الاعلى كان يتقاضى ٥٠٠ فرنك فى الشهر عام ١٩٠٥

ومن هذا العرض الموجز ندرك ان الجيش المغربى (١) لم يكن يخلو من نظام محكم فى بعض الاحيان وانه كان يجازى جيوش العالم فى مقتضيات التطور لانك تذكر تجد فيه معظم ما فى غيره مع اختلاف يعلو ويسفل فى المناهج وطراز العتاد ، ولولا تلك الآفة العارضة التى ابتلى بها المغرب عام ١٩١٢ لواصل الجيش المغربى رسالته المقدسة فى هذه البلاد

(١) وقد تحدث كودار فى تاريخ المغرب عن الجيش المغربى فلاحظ أن عددا من العوامل التى تشكل الجندى الصالح كانت تذكى الجيش المغربى مثل العقيدة وحب الاستقلال والوطن (ص ١٥١)

الفن المعماري

الفن الاسلامي

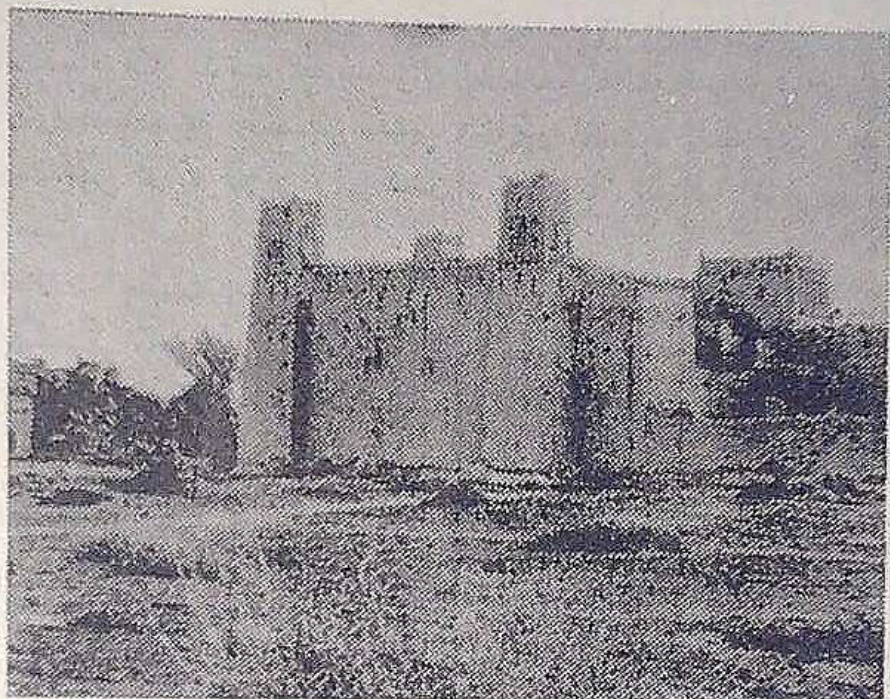
إذا استثنينا الفن الصيني فإننا لا نجد أي أسلوب فني بلغ من السعة ما بلغه الفن الاسلامي الذي يشمل بلاد الهند والعراق وفارس وسوريا وفلسطين وتركيا ومصر وتونس والجزائر والمغرب وصقلية والاندلس وقد ابقى الفن الاسلامي في القرن الاول للهجرة وترعرع وازدهر ثم

تبلور وتحجر في منهجه العتيق الرائع في القرن العاشر او الحادي عشر حسب الاقطار وهناك مظاهر شتى في الفن الاسلامي تسوغ تقسيمه الى خمس مدارس :

١ - مدرسة سوريا ومصر

٢ - مدرسة المغرب العربي

والاندلس



نوع من تفرمت في الدادس

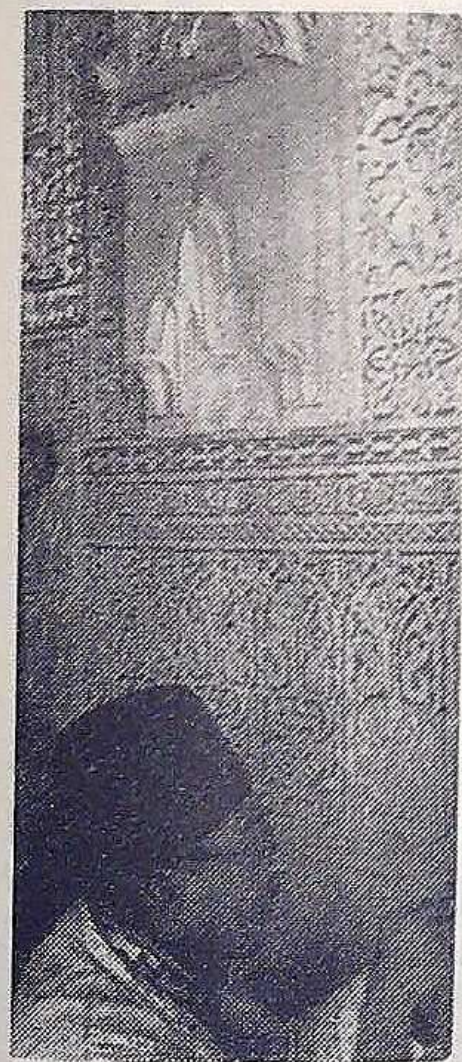
٣ - المدرسة الفارسية

٤ المدرسة العثمانية (تركيا والاناضول)

٥ - مدرسة الهند

ومن خواص الفن الاسلامي انه مزيج من الفن الشرقي والفن الخاص بالاقطار التي اعتنقت الاسلام مثال ذلك : التنميق الهندسي كان موجودا قبل الفتح الاسلامي في الفنين القبطي والبربري ومعلوم ان التصوير الهندسي قام في كثير من الاجيال مقام صور الطبيعة وقد اقتبس الفن الاسلامي من الفرس القباب المزخرفة والاقواس الرخوة (المطلوقة) والمقربصة

فالفن المغربي هو اذن مزيج من الفن الشرقي والفن البربري وسنستعرض المظاهر البارزة لهذا التطعيم المتبادل الذي يضي على الفن المغربي الاندلسي طابعا خاصا

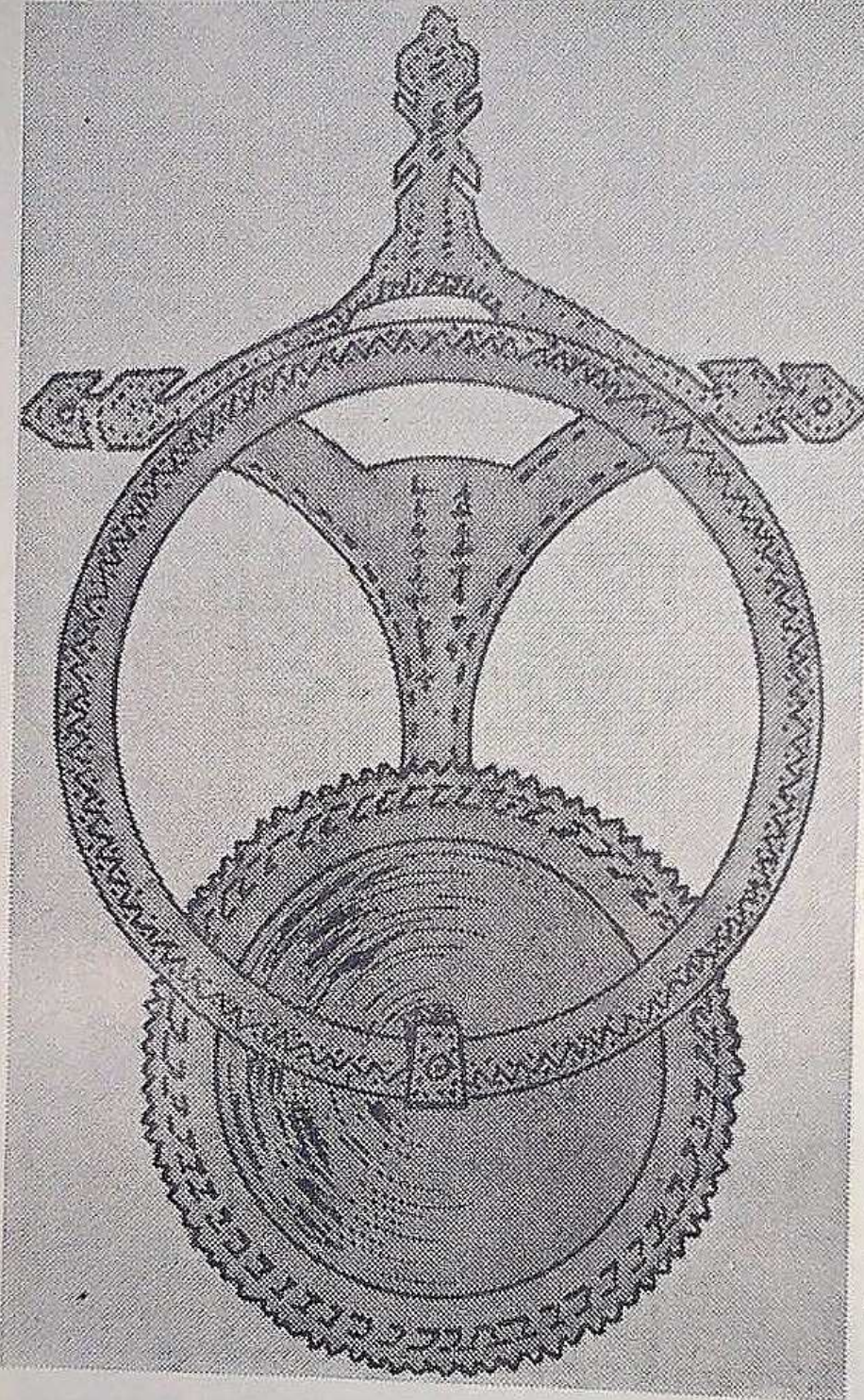


صانع مغربي في العمل

الفن البربري : هندسة الحصون

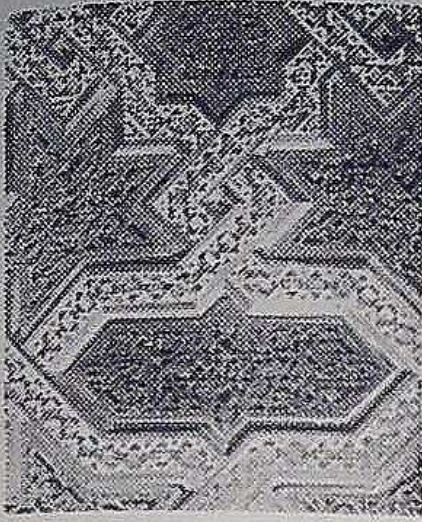
لا يكاد يوجد في المغرب سوى الدور ذات السطوح وحتى في باقي افريقيا الشمالية اللهم الا في مدينتي تنس ومجاز الباب التي اسسهما الاسدلسيور وكذلك في بعض نواحي الجزائر (القبائل)

ففي الاطلس نجد ما يسمى بتغرم (صورة رقم ١) اي الدار المحصنة وهي دار مربعة تقوم في اركانها الاربعة ابراج وفي سورها مدخل واحد يتصرف غرفة تحاذيها ثلاث غرف اخرى في باقي الواجهات الداخلية وفي زاوية من زوايا هذه الغرف توجد درج تؤدي الى الطابق الاول الذي هو عمود طبر الاصل للطابق السفلي حيث الخدم والماشية اما الحصون الركنية فانها تستعمل كذلك كمخازن للمؤن وتؤدي اليها ممرات ضيقة ويحيط بالساحة سقف جانبي من الخشب و يحتوى الطابق الثاني على غرف وانما هو امتداد للسور مجهز بنقوب للحراسة



شكل ٦

ويوجد ايضا عند البربر ما يسمى بالمخازن المحصنة اي اغرم وهي عبارة عن اجنحة منفصلة تفتح في ساحة داخلية وتقوم البناية كلها على شاهق في نقطة استراتيجية لذلك تستخدم كمستودع للمؤن وقلعة يلجأ اليها الناس عند الخطر واكبر منها دار وقصر كبار القواد في الاطلسيين الاكبر والاولى وتقوم في الغالب على ضفة نهر او هوة او على قمة جبل ويحتوى على سكنى القائد ودور الخدم ومستودعات التموين والاصطبلات الواسعة والساحات والحدائق والكل محاط بسور تعلوه حصون وقلاع تشرف على المدشر او القرية الصغيرة المحاذية . وهناك نوع آخر من المستودعات يسمى «اجدير» وهو عبارة عن هري عام يتخذ

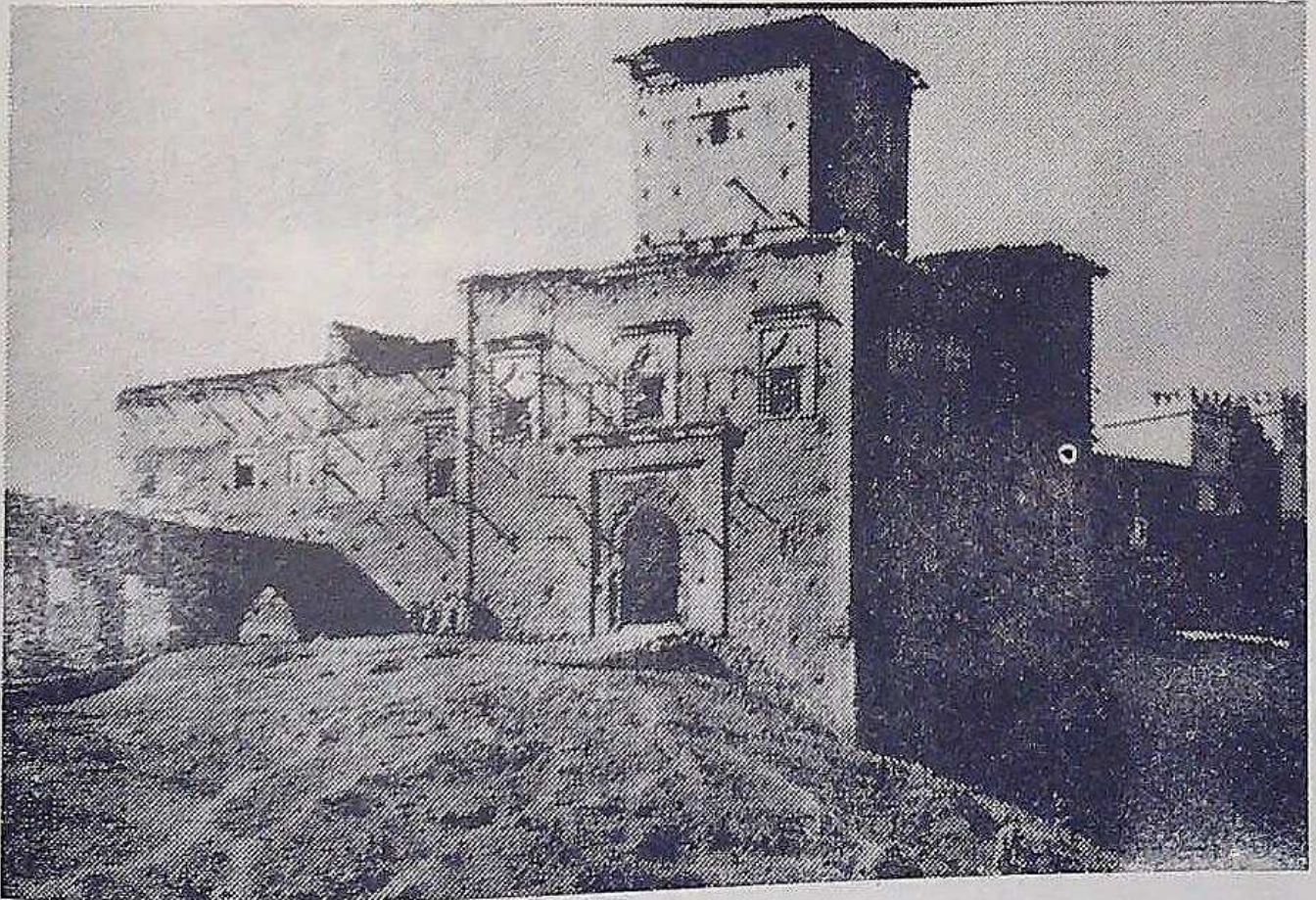


شكل دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي الى ساحة مركزية تنفتح منها اربع او خمس طبقات من الغرف الصغيرة التي يصعد اليها بسلاسل وطرق معلقة تربط بينهما وتجا في سلكسية وكدميوه اجديرات اوسع هي اشبه بحصون مستطيلة نحتوى على ثلاث او اربع طبقات من الغرف المعدة لخرن المؤن وتقوم في اطرافها ابراج وتحتوى في الغالب على مسجد صغير عام وغرف للحراس ودار الندوة للاعيان وفي وسطها صهريج لحفظ الماء للحاجة

نحوس خشبية مطعمة بالعاج والخشب الاسود توجد في جوانب احد المناير

ويبنى البربر بالطابية التي اشار ابن عذاري الى استعمالها في بناء مدينة رقادة عام ٢٩٤ هـ (البيان المغرب ج ١ ص ١٩٣) في حين جدد محمد بن حمدون لاندلسي جامع لقيروان عام ٢٥٢ بالآجر والجص والرحام (نفس المصدر ص ١٤٠) وتظهر في جوانب الناية رسوم هندسية غريبة (شكل رقم ٢) وقد يبنى البربر بالحجارة عند انعدام التراب .

ويديم السطوح والسراديب باعمدة (شكل رقم ٣) وهي عبارة عن جذوع اشجار مجردة من قشورها ويتسع اعلاها لتحمل ثقل الاخشاب العمودية وهي ثلاثة انواع وتستخدم اعمدة خصوصية في الاطلس الكبير (شكل رقم ٤ في تيسك وشكل رقم ٥ في كندافة)

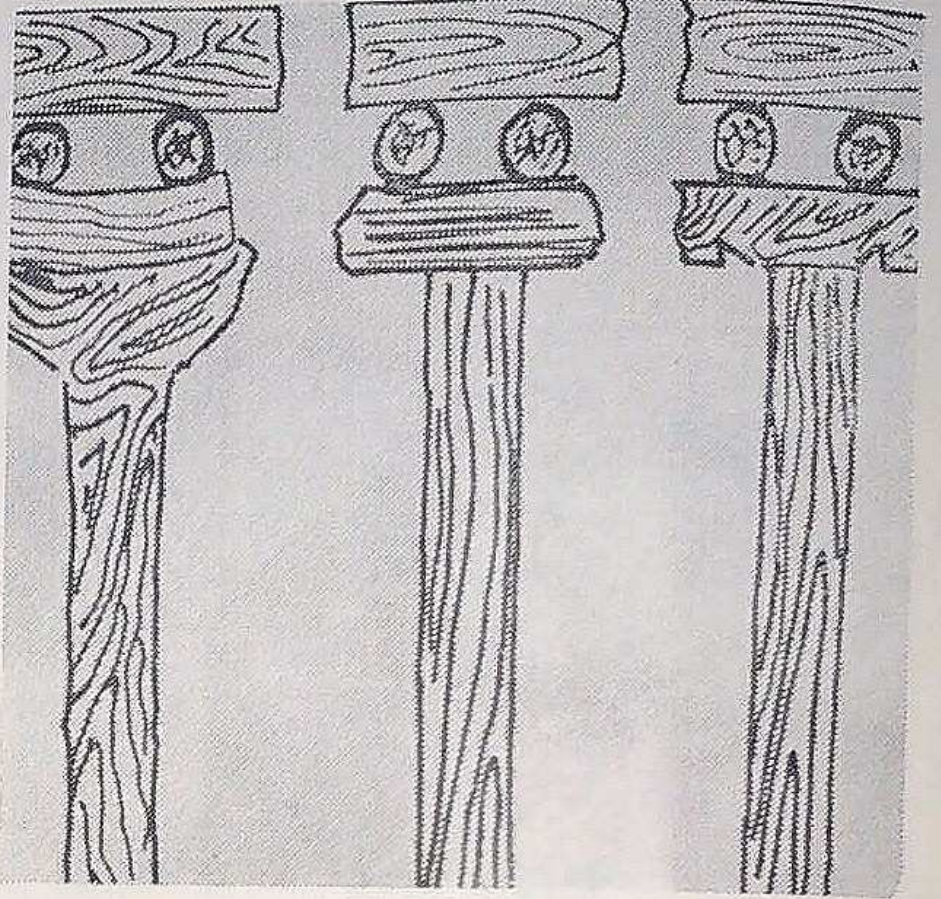


قصبة كندافت ويتجلى فيها تأثير الهندسة الحضرية وهي من بناء اواخر القرن الماضي

وتصنع باب الدار البربرية
من اخشاب مسمرة فى اطار
فوق عوارض عمودية وقد
تنقش عليها رسوم بدائية
وتنوسطها مطرقة من حديد على
انماط شتى (شكل رقم ٦)

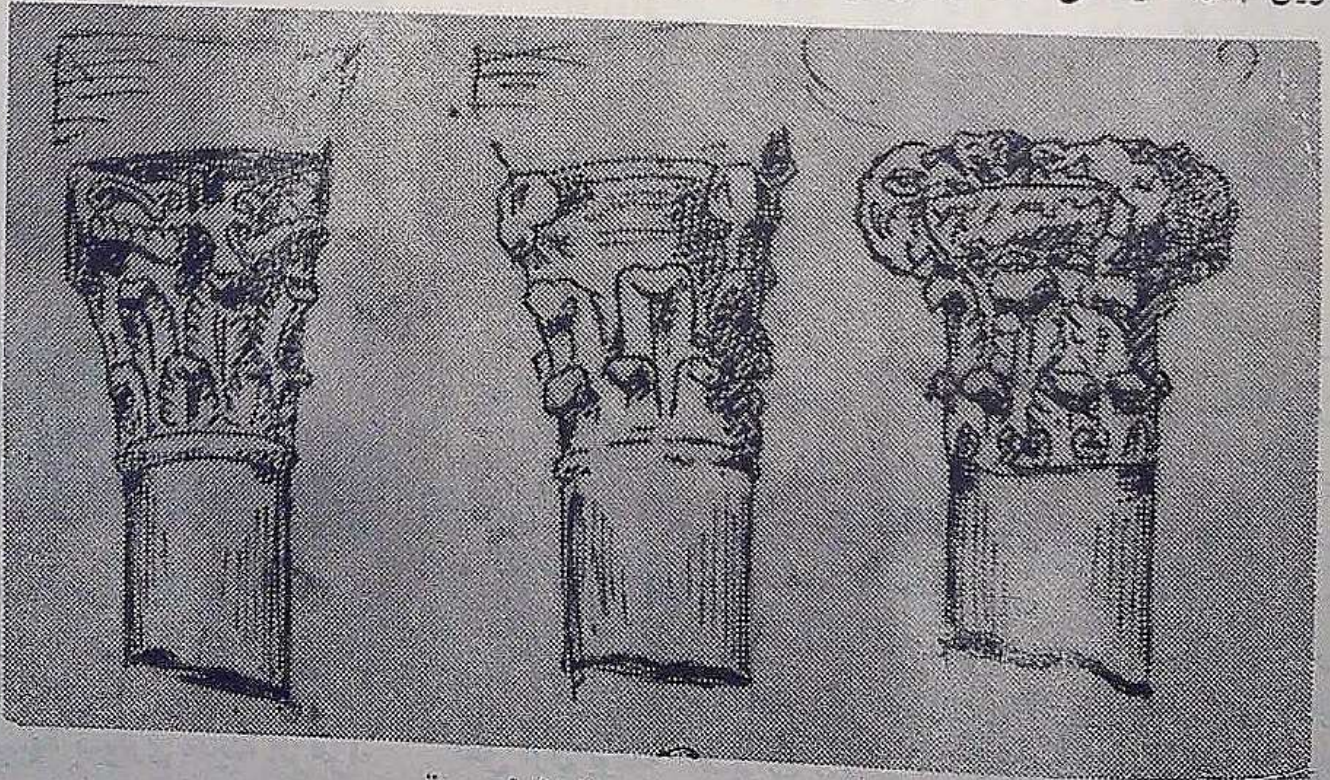
الفن الشرقى المغربى

والاغالبية هم اول من ادخل
الفن الشرقى الى افريقية ايام
لفاطميين وقد وضعوا اسس
لفن الجديد فى القيروان حيث
جددوا مسجد عقبة بن نافع
وافرغوه فى قلبه النهائى على
نمط مساجد دمشق والقاهرة
وقد استخدموا مواد رومانية
وبيزنطية وجدوها فى افريقية



شكل ٣

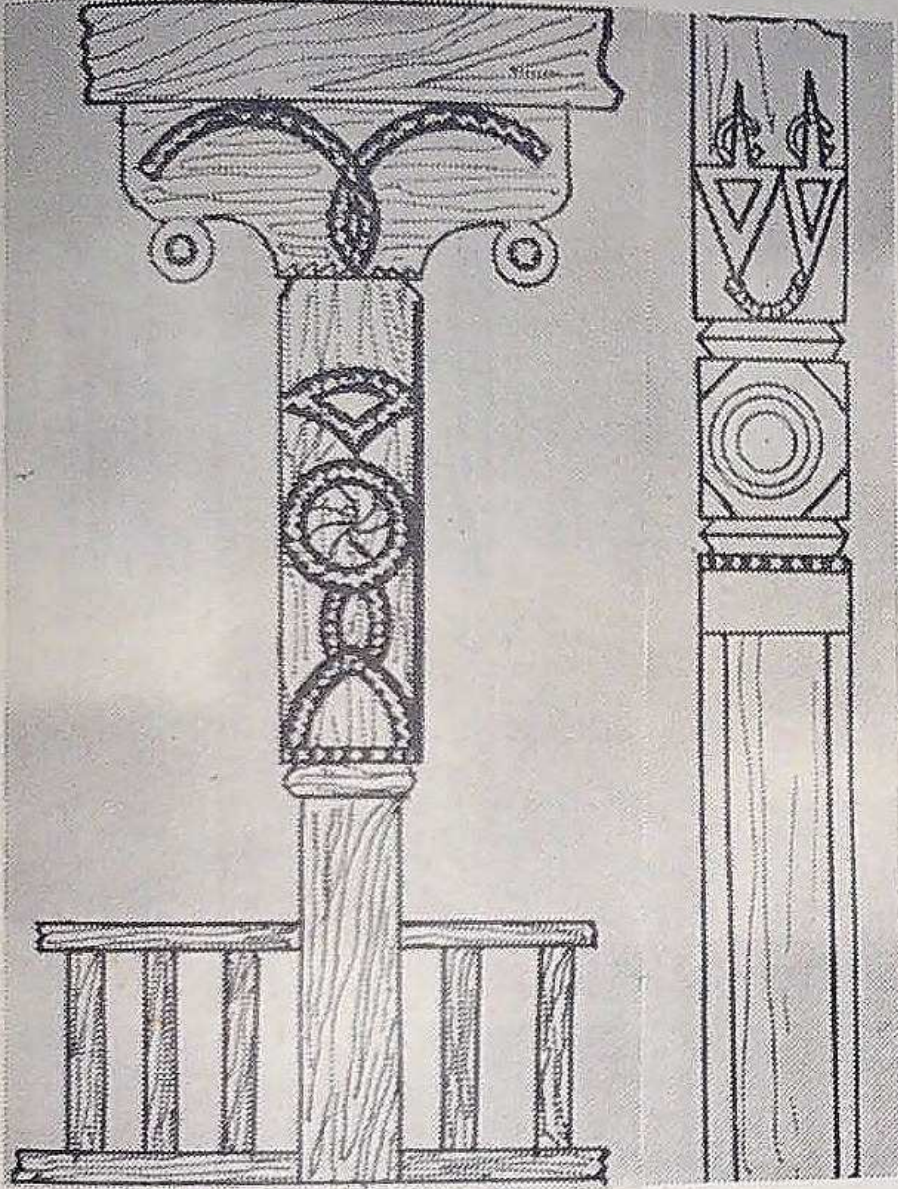
ثم جاء الخوارج فاقاموا فى قاهرت وسجل ماسا ماثر عفى عليها الزمان ولم يبق منها ما يعطينا
صورة عن خواصها ثم اتخذ الفن الاسلامى فى المغرب العربى مظاهر جديدة ايام بنى زيرى
فى اشير وقلعة بنى حماد وبجاية حيث يتبلور التأثير الشرقى فى مزيج من الهندسة
البربرية العربية وفى القرن الثانى الهجرى بنى المولى ادريس مدينة فاس التى يقول عنها
كزىل بانها آية فى الاقتباس من الفن الشرقى



رؤوس سوار مغربية اندلسية

الفن البربري الاندلسي

ولكن عند ما جاء المرابطون لم يجدوا في متناولهم سوى نتف من بقايا الفن البربري ولم تكن لهم صلة مباشرة بالشرق وفنونه التي لم يلمسوها الا عن طريق الاندلس فاستمدت الهندسة المعمارية بميسم جديد ثم اتجه الموحدون في هذا الاقتباس من الاسلوب الاسباني المغربي وقد ظهرت هذه الميزات الاندلسية اول ما ظهرت في المغرب الأقصى التي استبد بها نحو من قرن



شكل ٥

شكل ٤

قبل ان يتأتى شيوعها في مجموع افريقيا الشمالية على يد بنى مرين وبنى زيان (في تلمسان) والحفصيين (في تونس) هنالك ازدهر الفن واتسم بروعة خاصة واعتدلت فخامة البناء وتناسقت النسب واكتمل الترحيم والتسويق ورقت الاذواق واصبح للفن خواصه المغربية التي لم تزدها حجرة الاندلسيين الا تبلورا واكتمالا واحتفظ المغرب بطابعه



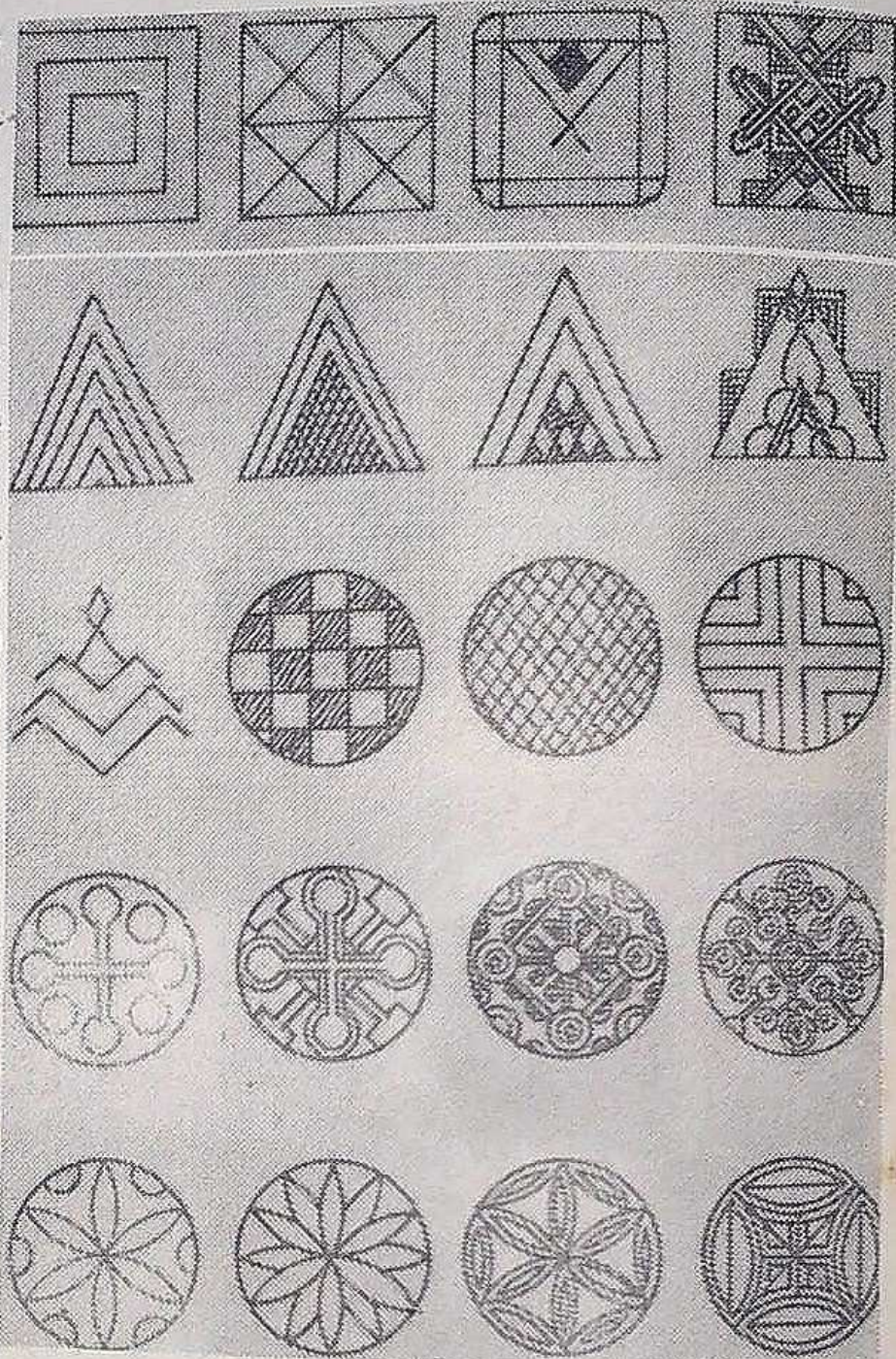
سارية في جامع القرويين مجلوبة من الخارج وتوجد في جامع الجنات بالقرويين وهي شبيهة بسواري مدينة الزهراء في ارباض قرطبة

الخاص في الوقت الذي سرت عناصر من الفن الترمكي الى تونس والجزائر وقد تطور الفن المغربي منذ ذلك بعدد عن كل تأثير اجنبي المهم الا من الشاطيء حيث يلاحظ التأثير البرتغالي والاسباني وتصطبغ الآثار بشيء غير قليل من الاصاله في الحواضر الداخلية وحتى في عصر الانشراح السعديين والعلاويين ظلت الهندسة المعمارية محتفظة بمظاهر روعتها بالرغم من تحجر الاساليب وتعقم روح الابتكار لعل اول بوقة اصبحت فيهما مع الايام مظاهر الفن المعماري الشرقي المغربي هي مدينة فاس التي اقامها المولى ادريس عام

١٩١ هـ بالموضع المعروف بجراوة
 رقد احاط عدوة الاندلس بسور
 فتح في جوانبه عدة ابواب وجيز
 لمدينة بجامع للخطبة وهو جامع
 لاشياخ ثم بنيت عدوة القرويين
 عام ١٩٣ بدار القيطون بسورها
 ومسجدها (مسجد الشفاء)

غير ان العامل الجوهرى الذى
 جعل المدينة تتسم فى عقودها
 الاولى بسمة خاصة هى مزيج من
 الفن الشرقى المثل فى هندسة
 افريقية ومن الفن العربى
 والاندلسى هو أن ثمانية آلاف
 عائلة اندلسية هاجرت اليها بعد
 وقعة الربض وكذلك ثلاثمائة
 عائلة قيراونية وبها سميت
 العدوتان وتبلور هذا المزيج منذ
 أول القرن الثالث الهجرى من
 نحن موحد يعتبر البادية الاولى
 للفن المغربى الاندلسى

وقد تركز المزيج المغربى
 الاندلسى منذ عهد المرابطين
 واستمرت عملية الانصهار نحو
 من ثلاثة قرون اتخذ هذا الفن
 بعدها اطاره النهائى



شكل ٢ : زخارف بربرية

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التى لم يعد يخلو منها ربض ولا دقاق لاسم
 فى فاس كما اهتموا ببناء الحصون والقلاع حيث تتجلى المظاهر الاستثنائية للهندسة العسكرية
 التى استمدت كثيرا من هندسة الحصون الاطلسية وقد برهن المرابطون من شتى الوجوه عندما
 بسطوا نفوذهم على العدوتين على أنهم صلة وصل فعالة بين الاندلس والعالم البربرى فازدهر
 التبادل بين شعبى الامبراطورية المرابطية فأوفد المثلثون المجاهدين لتوحيد الاندلس وبعثت هذه الى
 المغرب بصناعتها وأساليبها الفنية

وأول ما تجلى هذا الاقتباس فى العهد المرابطى فى فاس ايضا حيث استقدم يوسف بن تاشفين
 من قرطبة جملة من صديق زادو فى مساجد المدينة رسة ابائهم وحماماتها وخاناتها .
 العدوتان (زهرة الآس من ٣٢) كما استقدم على بن يوسف المهندسين الاندلسيين لبناء
 قنطرة تنسيقت قرب مراکش (الادريسي) وهكذا أمكن للمرابطين بفضل اريخيتهم

الفياضة ومهارة الصناع المجلوبين من الاندلس أن يركزوا الفن الاموي الاسباني الذي كانت تنف منه قد وصلت، الى فاس وسبتة ومن المآثر الخالدة التي خدقها المرابطون المسجد الاعظم بتلمسان ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن الاسلامي لاسيما في عهد يوسف الذي عاش في اشبيلية وتشبع بالثقافة الاندلسية وجمع خزائن تضاهي مكتبة الحكم الثاني وقد ذكر ويليام مارسي أننا اذا راجعنا قائمة مؤسساته ملنا الى الاعتقاد بأن اشبيلية كانت اقرب الى قلبه من مراكش وقد زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمرية ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان ابداع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في اشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (الحير الدرة وحسان والكتيبة) واصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحادائقها اشبه ببغداد في الشرق كما اشبهت مدينة فاس دمشق في روائعها الفنية وطبيعتها الخلابة وقد ظل للصناع المجلوبين من الاندلس اليد الطولى في عهد الموحدين الذين نشروا الفن الاندلسي في جميع ربوع افريقية حيث تجدد الاتصال بين الفن المغربي والفن المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء



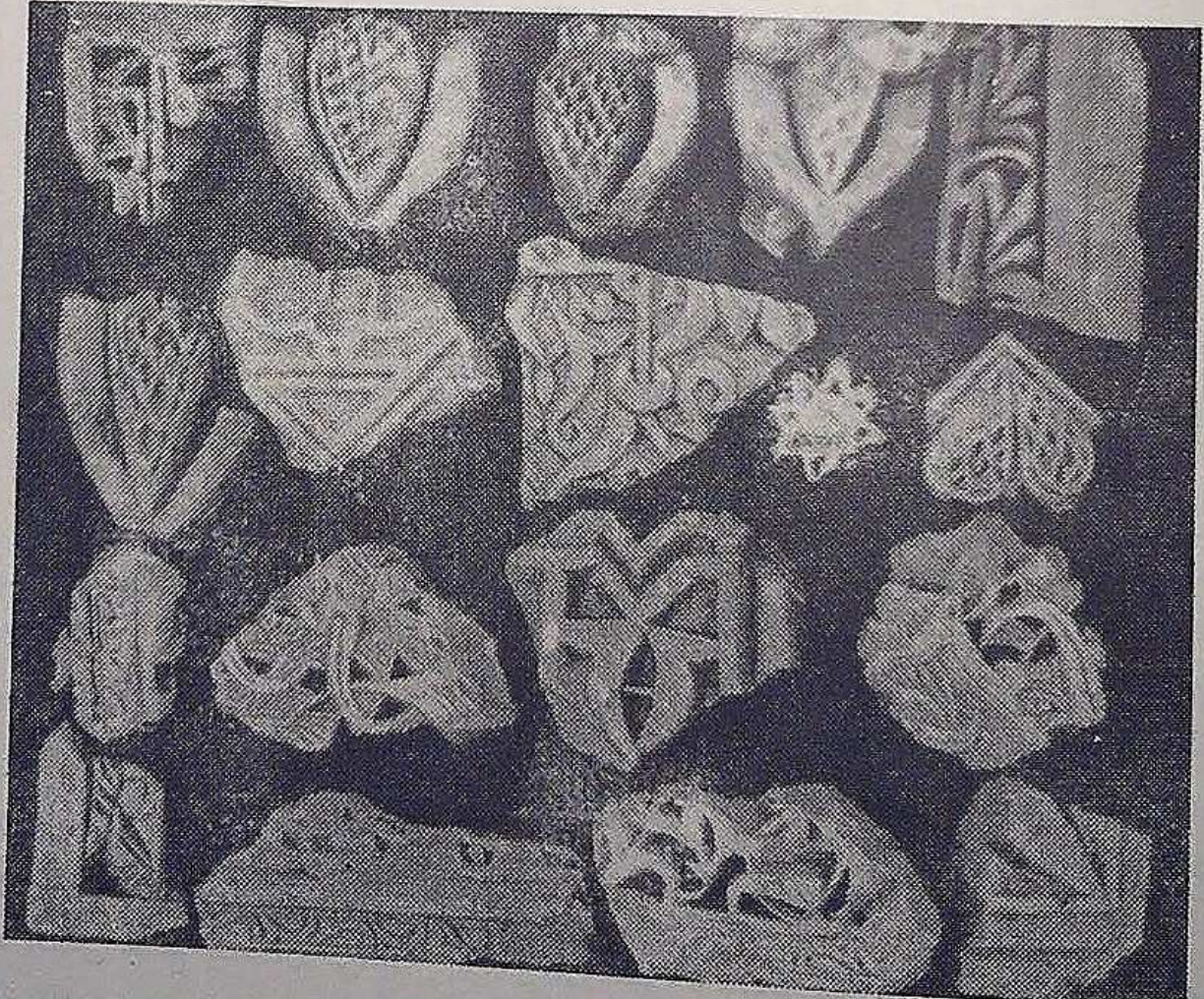
جانب من قبة الخصة المرابطة قرب مسجد بن يوسف بمراكش



وهكذا امكن للموحدين تحقيق وحدة الاسلام السياسية من قشتالة الى طرابلس أن يساهموا في توحيد الفن الاسلامي في الغرب « (ويليام مارسي - الفن الاسلامي) ولتنضرب مثالا للتطور الفني بما طرأ على القرويين من تغييرات في مختلف العصور مع التنظير بالبدائع الاخرى :

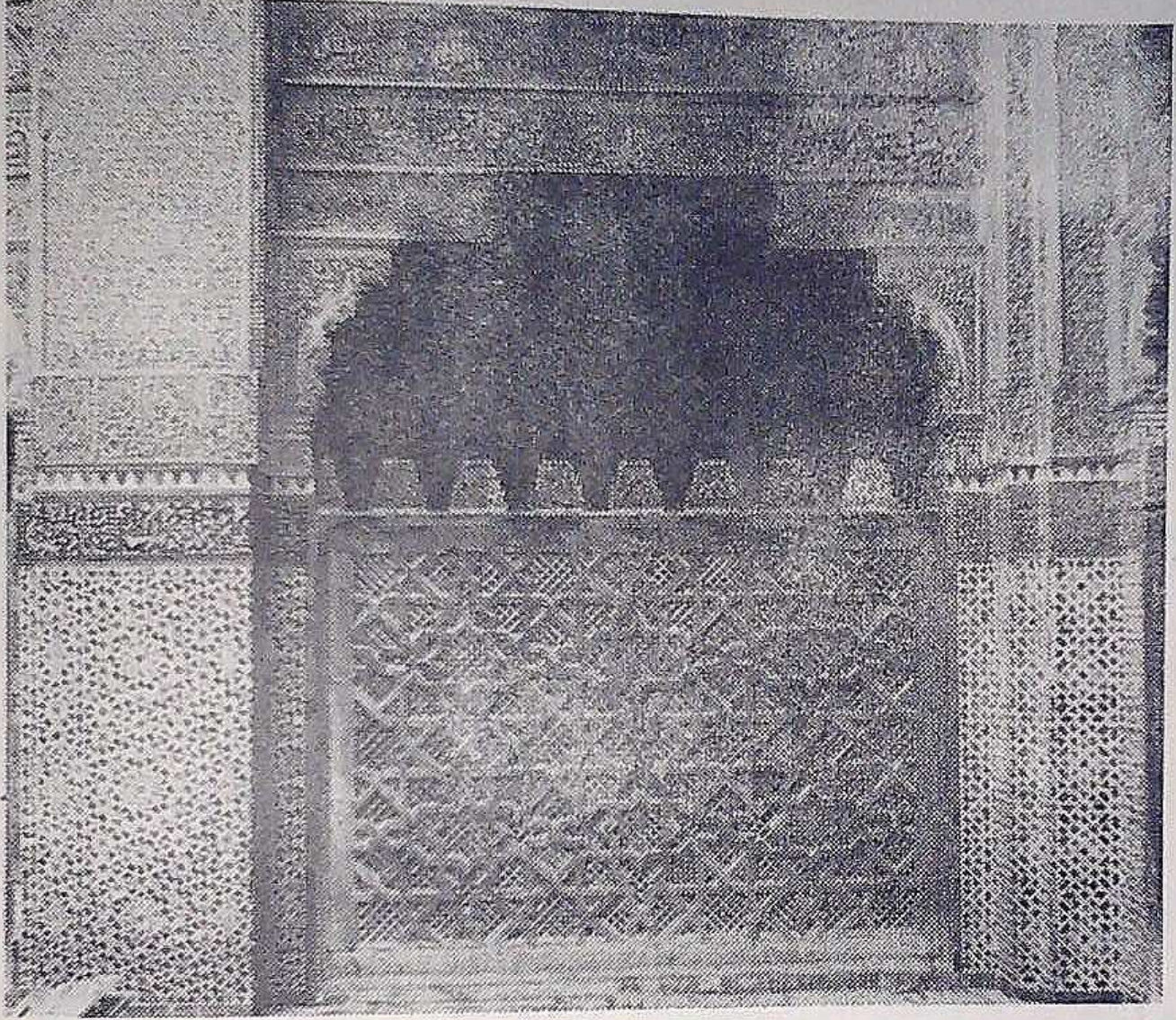
لم يبق مما بناه المثلثون سوى جامعي تلمسان وعاصمة الجزائر المتشابهين لا مدراس اعلام المساجد القديمة بمراكش والمساجد التاشفينية بفاس ولكن جامع القرويين اتخذ في العهد المرابطي (ايام علي بن يوسف) سعته وشكلته الذين مازال يحتفظ بهما الآن

من بقايا انقاض قصر البديع ولعلها مأخوذة من تينمل حيث يوجد مثل لها كما يوجد قريب منها في باب الرواح بالرباط



من بقايا قصر البديع

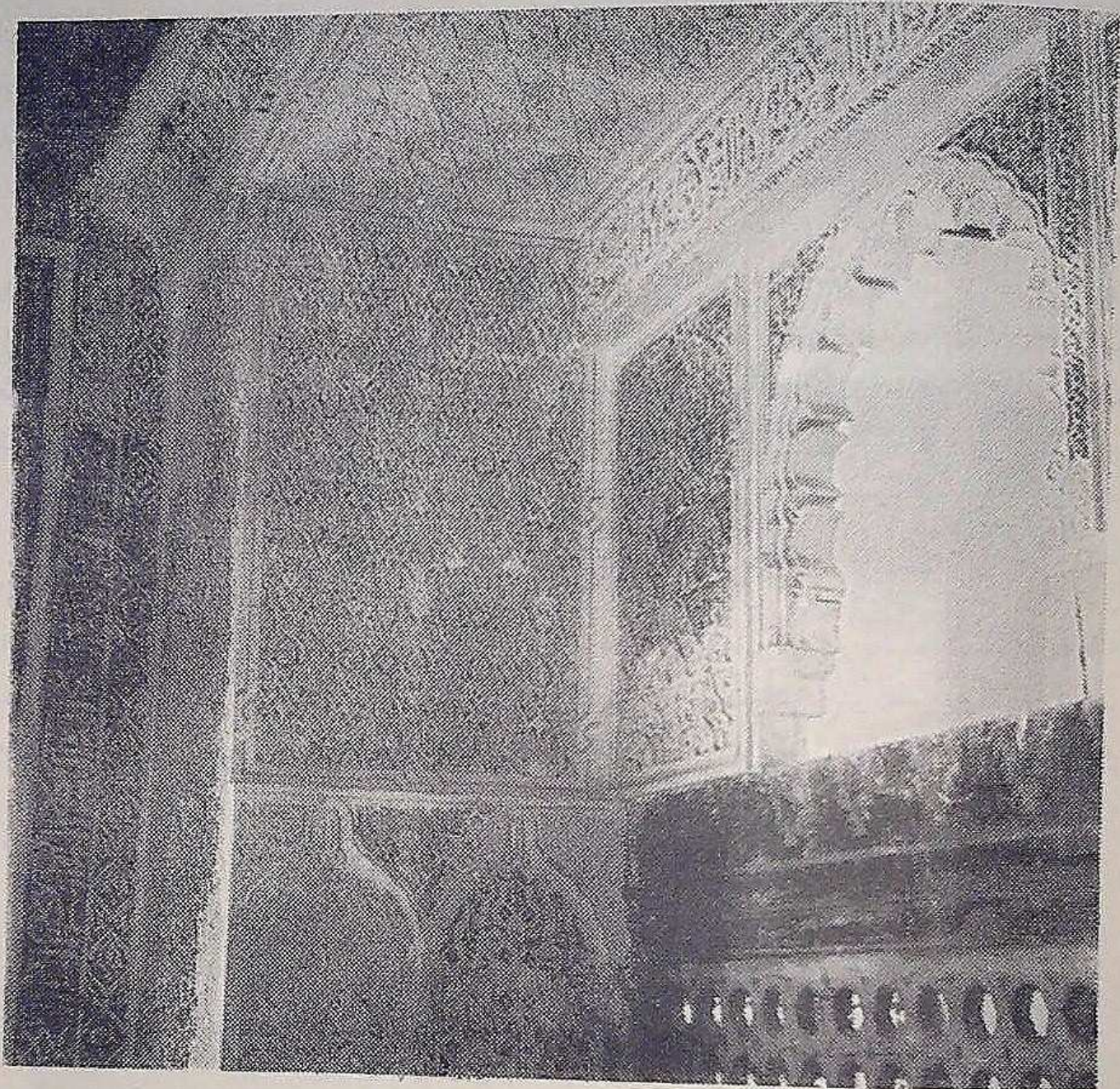
وقد وقع الشروع فى بناء القرويين عام ٢٤٥ هـ على نفقة فاطمة الفهرية المدعوة نام البنين « من اربعة بلاطات فى كل بلاط اثنا عشر قوسا » (زهرة الآس ص ٣٥) وصحن صغير وصومعة حيث العنزة والمحراب حيث الثريا الكبرى وفى عام ٣٠٧ نقلت اليه الخطبة من جامع الشرفاء وصنع له منبر من خشب الصنوبر وفى عهد الناصر الاموى أى عام ٣٤٥ هـ زيدت « اربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف فى موضع الصحن وهدمت الصومعة وأقيمت اخرى وغشيت بابها بصفائح النحاس الاصفر وجعل فى أعلاها قبة صغيرة وفى



مدخل البوعنانية بفاس

دوراتها تفانج مموهة بالذهب (ص ٣٧) ومما يمتاز به جامع القرويين على جوامع افريقيا الشمالية كون البلاطات موازية للمحراب كما هو الحال فى جامع ابن طولون الذى بنى فى مصر فيما بعد وكذلك مسجد بعلبك وجامع دمشق ويظهر أن هذا الوضع مقتبس من مسجد الشرفاء الذى بناه المولى ادريس (مارس ج ١ ص ٣٠٩) اما المنبر فقد جدد فى عهد على بن يوسف - مع التوسيع الذى حتمه تكاثر المصلين - من الصندل والابنوس والعناب والعاج وكان له غشاءان من الجلد المعزى ومن الكتان يزالان عنه فى كل يوم جمعة (زهرة الآس ص ٤٢)

وقد أسس جامع تلمسان فى سنة ٥٣٠ هـ وكان اسم المؤسس منقوشا على الجبس ولكنه محى والظاهر انه هو على بن يوسف ومن خواص الفن المرابطى الملحوظ ايضا فى الجزائر وفاس



سقاية جامع القرويين وقد اعيد نقشها فى العهد المحمدى

كثرة البلاطات فى جوانب المسجد

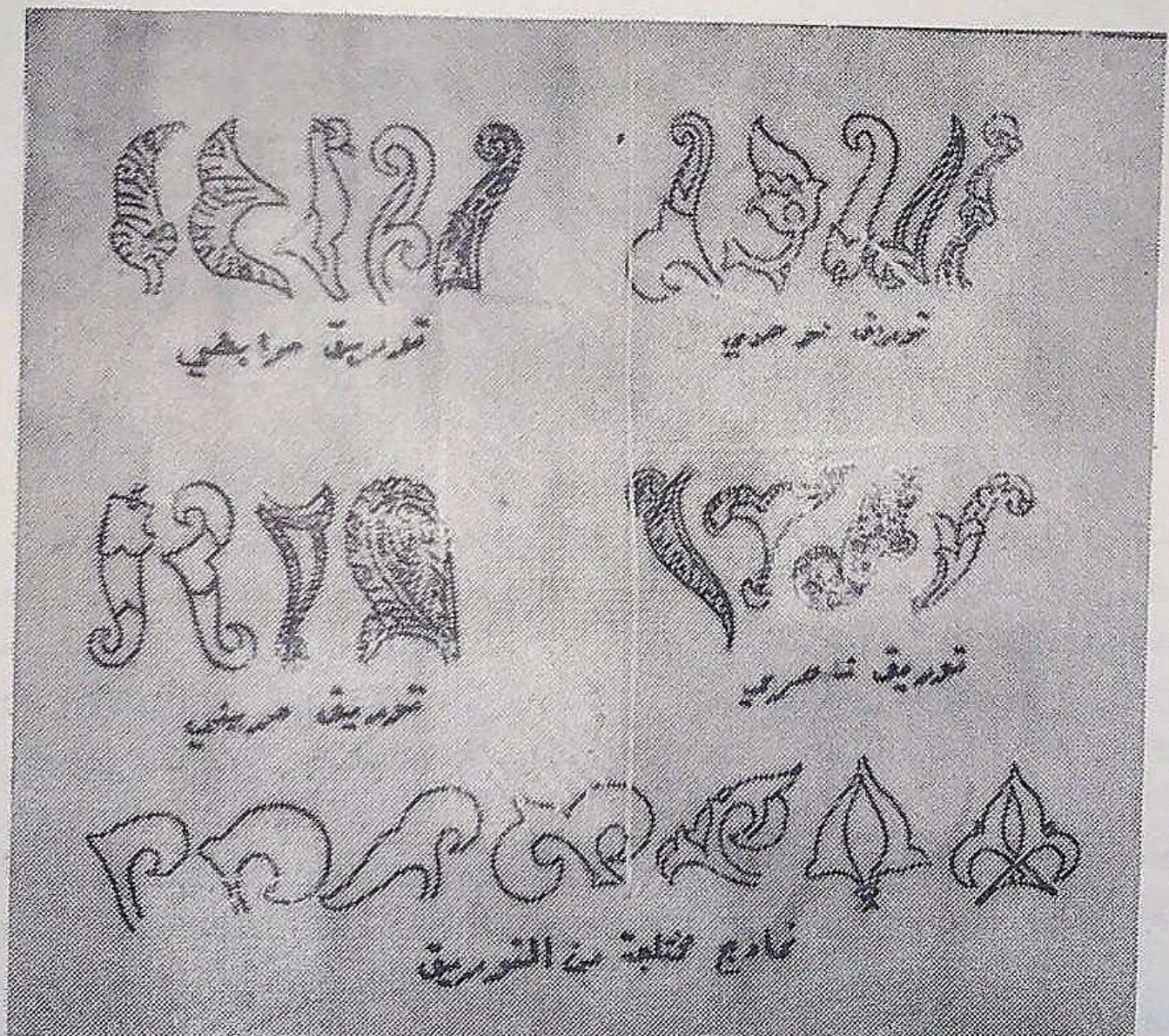
وفى ايام عبد المومن بن على بنى مسجد تازة ومسجدتينمل والكتيبة بمراكش التى اقيمت بازائها منارة اخرى فى ايامه أيضا ، ثم تمت على يد حفيده يعقوب المنصور، ومن خواص مسجد تينمل أن منارته بارزة فوق المحراب ويوجد مسجد موحدى فى سلا على هذا النمط وإذا وفقنا بين روايتى القرطاس والاستبصار نلاحظ أن المنصور الموحدى هو الذى شرع فى بناء جامع حسان وأتم جامع القصبية بمراكش وأنهى منارة اشبيلية ومنارة الكتيبة التى شرع فيها جده

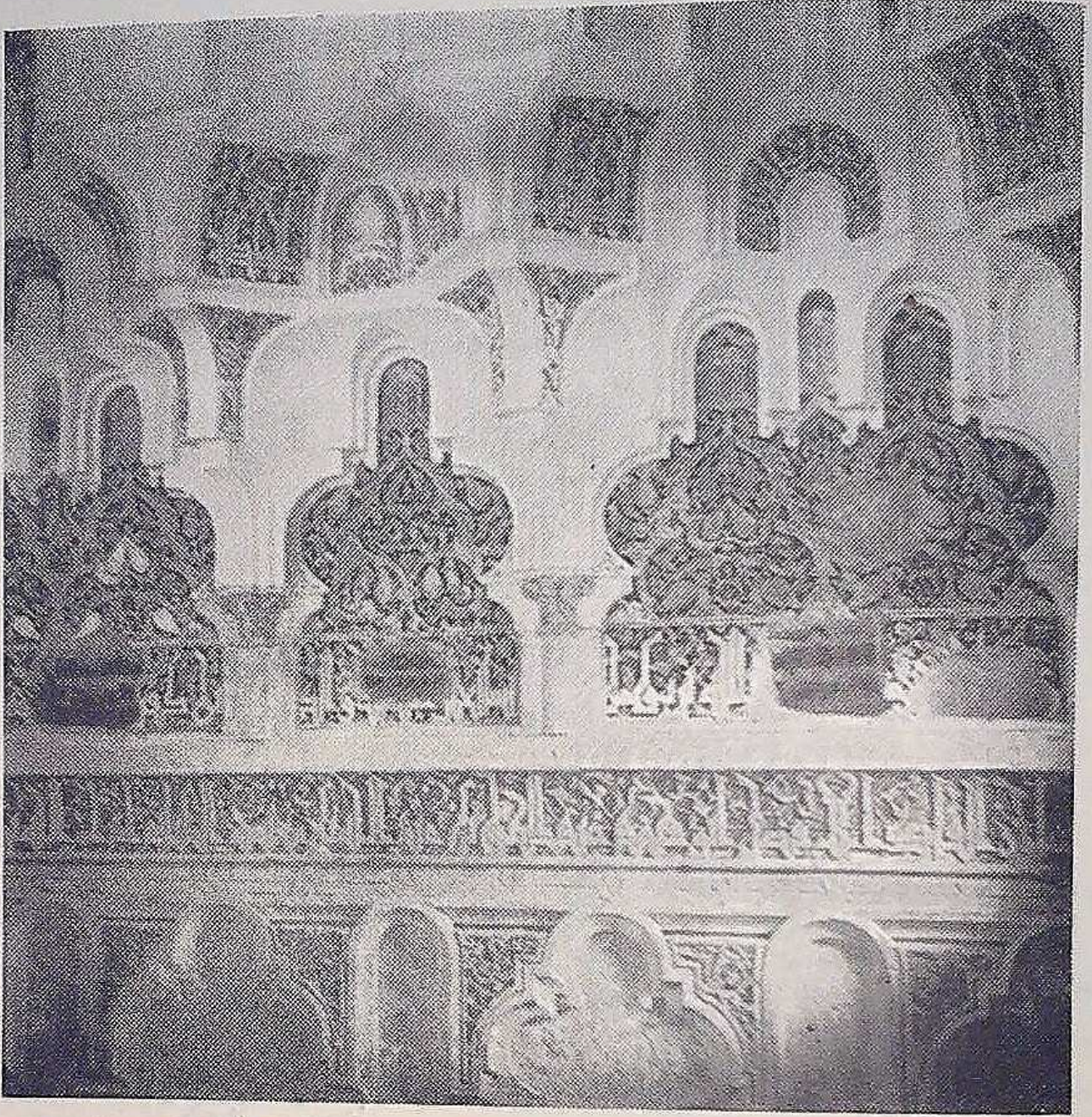
أما القصور المرابطية فالظاهر أنها اندرست وقد اشار صاحب الاستبصار الى « دار الامة » التى بناها يوسف بن تاشفين كم أشار الادريسي الى « دار الحجر » التى أسسها ولده بمراكش أيضا وقد هدمها عبد المومن لبناء الكتيبة الثانية .
والقصور الموحدية وكذلك المدارس لم يبق منها شئ وقد انمحي كذلك أثر المارستان الذى

بناه المنصور والذي وصفه المراكشي في المعجب (ص ١٧٦) بأنه لامثيل له في الدنيا واكد ميللي في كتابه عن الموحيدين أن مستشفيات باريس لا توازي هذا المستشفى الذي احتوى على نقوش بديعة وزخاريف محكمة وبرك من الرخام الابيض علاوة على الفرش والادوية والصيدالة والاطباء

ومن الحصون التي بناها المرابطون قلعتا بنى نودة (فاس البالي) وامركو لمراقبة بدو الريف وقد هزم الموحدون حصن بنى نودة كما هدموا اسوار وهران وتلمسان وفاس وحتى مكناس على ما يقال ثم غير عبد المومن سياسته الاستراتيجية فبنى تازة وجدد حصون تينمل واسس حصن جبل طارق عام ٥٥٥ ثم جهز ابو يعقوب اشبيلية بقصبتين واتجه المنصور بعد ذلك نحو التحصين المنيع فاقام الاسوار والقلاع في مختلف المدن لاسيما الرباط

اما القناطر والسواقي فقد استخدم المرابطون رجال الصحراء والمهندسين الاندلسيين مع (مارسي ج ١ ص ٢٥٩) ويمجلى هذا المزيج الصحراوي الاندلسي في القنوات التي نقلت الماء من الجبل الى مراكش وهذا النوع هو الخطارات التي مازالت تستعمل الى الآن أما في عهد الموحيدين فان أبرز ماصنع هو القنوات التي نقلت ماء غبولة أمام عبد المومن الى المعسكر الذي سيطر فيه بعد ذلك مدينة الرباط وتمر هذه القنوات قرب المسجد الاعظم ثم تتجه الى قصبة الاوداية ثم جدد ابو يعقوب قنطرة تنسبفت ونقل المنصور الماء على غنطرة المراكش كما نقل الماء في عهد





من النقوش التي كانت مغطاة بالجص من كثافة هسنتمترات وكشف عنها في العهد المحمدي فوجدت غضة في نقشها وتطعيمها والوانها والغالب على هذه الالوان الاحمر والاصفر على بساط ازرق

الموحدين من باب الحديد الى عدوة الاندلس بفاس وفي اشبيلية بنى ابو يعقوب قنطرة على الوادي الكبير والارصفة على الضفتين كما بنى قنطرة الماء المنقول من قلعة جابر .
ولا مفهوم لهذه الامثلة فقد أسس الموحدون القلاع والمطامير والملاجئ في مختلف انحاء البلاد ومن الصعب استقراء الروائع الفنية التي ابدعها المرابطون والموحدون وكذلك من الصعب الاحاطة بالجوانب الدقيقة والخواص التي تمتاز بها ولعل الاشكال والرسوم التي ادرجناها في هذا البحث تعطينا صورة مكبرة عن المظاهر الفنية البارزة

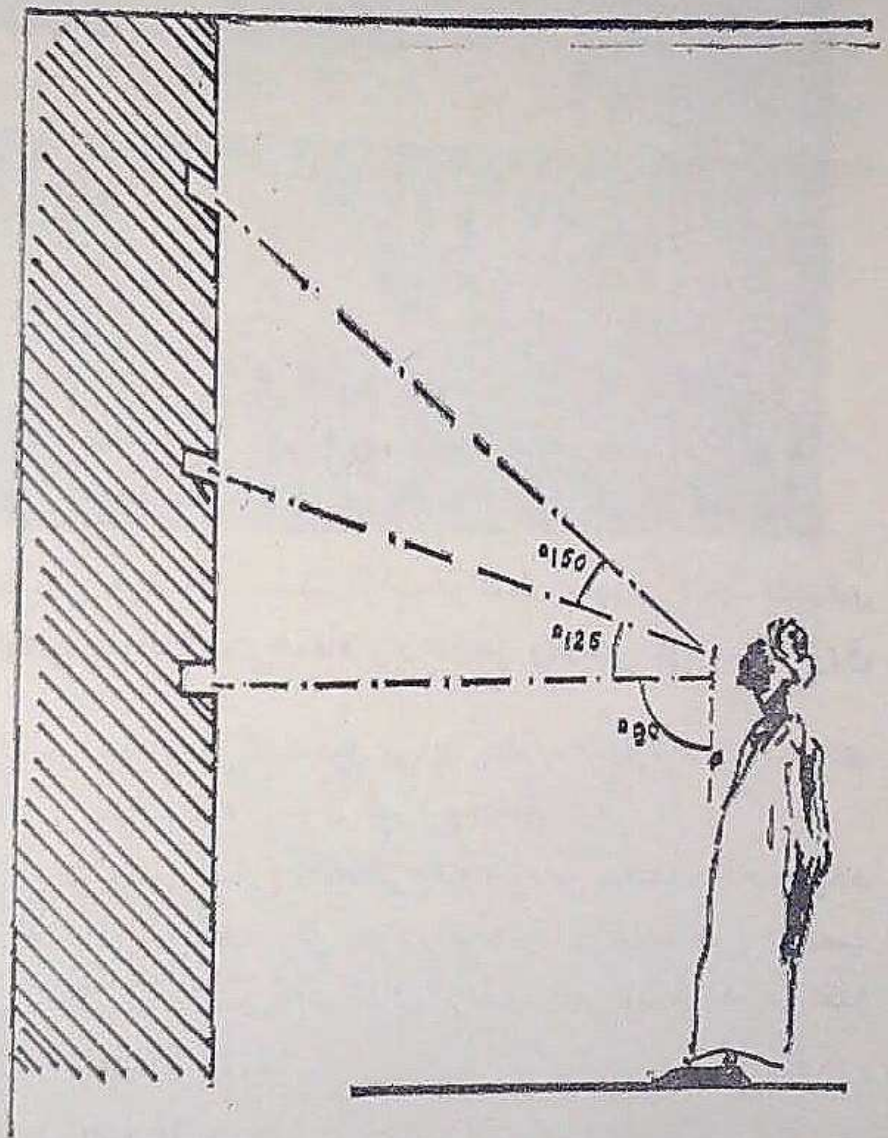
الفن المريني

خلف بنو مرين الموحدون في الربوع الافريقية فكان للفن المريني ميسم خاص ذا قورن بالفن عند بنى عبد الواد في تلمسان والحفصيين في تونس في حين واصل بنو نصر في غرناطة تقاليد الفن الاندلسي

غير أن الطابع العام لم يتغير وكذلك الاتجاه الفنى الذى انصرف عنه بنو الاحمر الى زخرفة القصور فى حين تجلس عند المرينيين فى اقامة المدن المحصنة والمساجد والمدارس وقد لوحظت مدة فراغ تهاجر القرن بين الموحدىين والمرينيين فتسرت فيها الحركة المعمارية (مارسى ج ٢ ص ٤٧٦)

استعادت فاس دورها كعاصمة تغير أن أبا يوسف المنصور أقام مدينة فاس الجديد أو المدينة البيضاء (الذخيرة السنية ص ٩٩) بقصرها الملكى ومساكن الضباط ومعسكرات الجند والمرتزة واحيط فاس البالى بأسوار جديدة

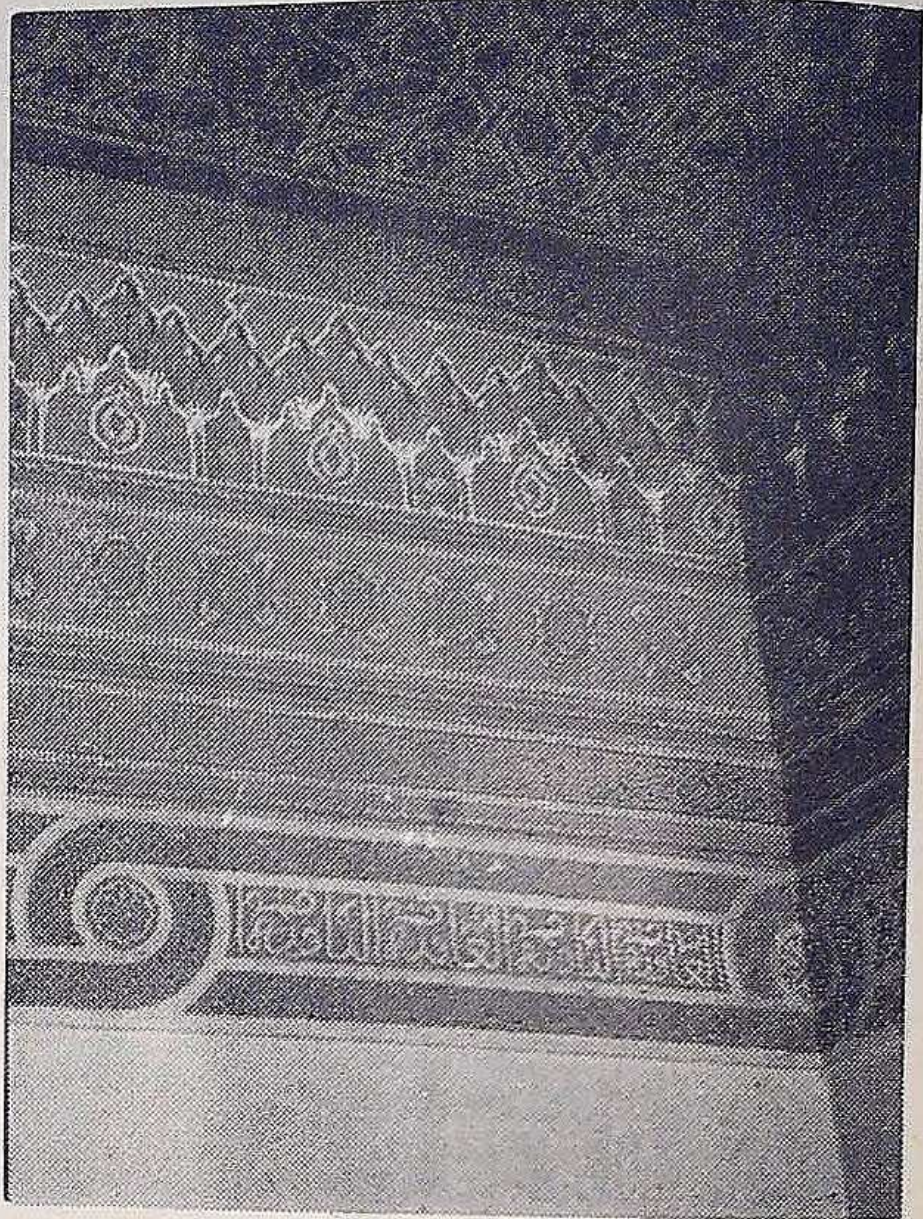
ويتجلى نشاط المرينيين المعماري فى شعورهم بالحاجة الى اقامة المدن الجديدة كالتي بناها المنصور خارج الجزيرة الخضراء حيث يسكن مع حشمه اذا جاز الى الجهاد ليلا يضيق على أهل الجزيرة (الذخيرة ص ٩٩) وكالمنصورة التي أقامها أبو الحسن إزاء تلمسان مدة الحصار وكذلك منصور سبتة (مسند ابن مرزوق) على أن أبا يوسف صنع المدارس وبنى المدارس بفاس وعراكس والزوايا فى القلوات واجرى المرتبات وأوقف الأوقاف (ص ١٠٠) ولم يفته فى كل ذلك الزخرف الفنى الرائع الذى يطبع المؤسسات الجديدة



أسلوب النقش عند الجبابص : ينحى الجبابص مستقيماً الى مستوى نظر العين وعند ارتفاع النقش ينحى ماثلاً ويزداد ميله بازدياد الارتفاع

وتطورت فى العصر المرينى الحركة الصوفية التى اقل كتاب (التشوف) طورا من أطوارها مع انتهاء القرن السادس وعرف بنو مرين كيف يستغلون نفوذ الصوفية الذين كانوا يستصحبونهم معهم فى الجهاد بالاندلس (الذخيرة ص ١٧٤) كما كان العزفى أمير سبتة يستعين بهم لاستعمار الناس الى الجهاد (ص ١١٣) والنسب يهمن من هذا التبجيل هو نتيجة الفنية التى ظهرت فى اقامة القباب مثل قباب شالة مدفن ملوك بنى مرين وقبة أبى مدين العوث فى العباد قرب تلمسان التى حفت بها عمارات ومساجد ومدارس وحمامات وخانات وقد لاحظ ابن مرزوق فى مسنده «أن إنشاء المدارس كان فى المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد مدرسة الحلفائين بمدينة فاس (مدرسة الصغارين عام ٦٧٠)

ثم أبو سعيد مدرسة العطارين
ومدرسة المدينة البيضاء ثم
مدرسة الصهرية ثم مدرسة
لواي ثم مدرسة مصباح ٠٠ ثم
نشا أبو الحسن في كل بلد من
بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب
الأوسط مدرسة» فقامت عند ذلك
مدارس لا يواء الطلبة في تارة
ومكناس وسلا وطنجة وسبتة
وانفا وازمور واسفي وراغيات
ومراكش والقصر الكبير والعباد
(تلمسان) والجزائر « ر نجب
من الكتاب في مجلة مسيريس
المجلد الخامس عام ١٩٢٥) ٠
وقد أكد ابن مروق كذلك أن
بنى مرين بنوا جامع تلمسان
« الذي اتفق الرحالون وأجمع
المتجولون على أنهم لم يروا له
ثانياً » وجامع مدينة هين
بالمقربص وهو نحو من الزخرفة
يضي على الحنايا والأقواس
حيوية وروعة وقد أقام بنو مرين
بذلك « من اسفي لى جزائر بنى
مرعانه واول افريقية محرس
ومناظر اذا ظهرت النيران في

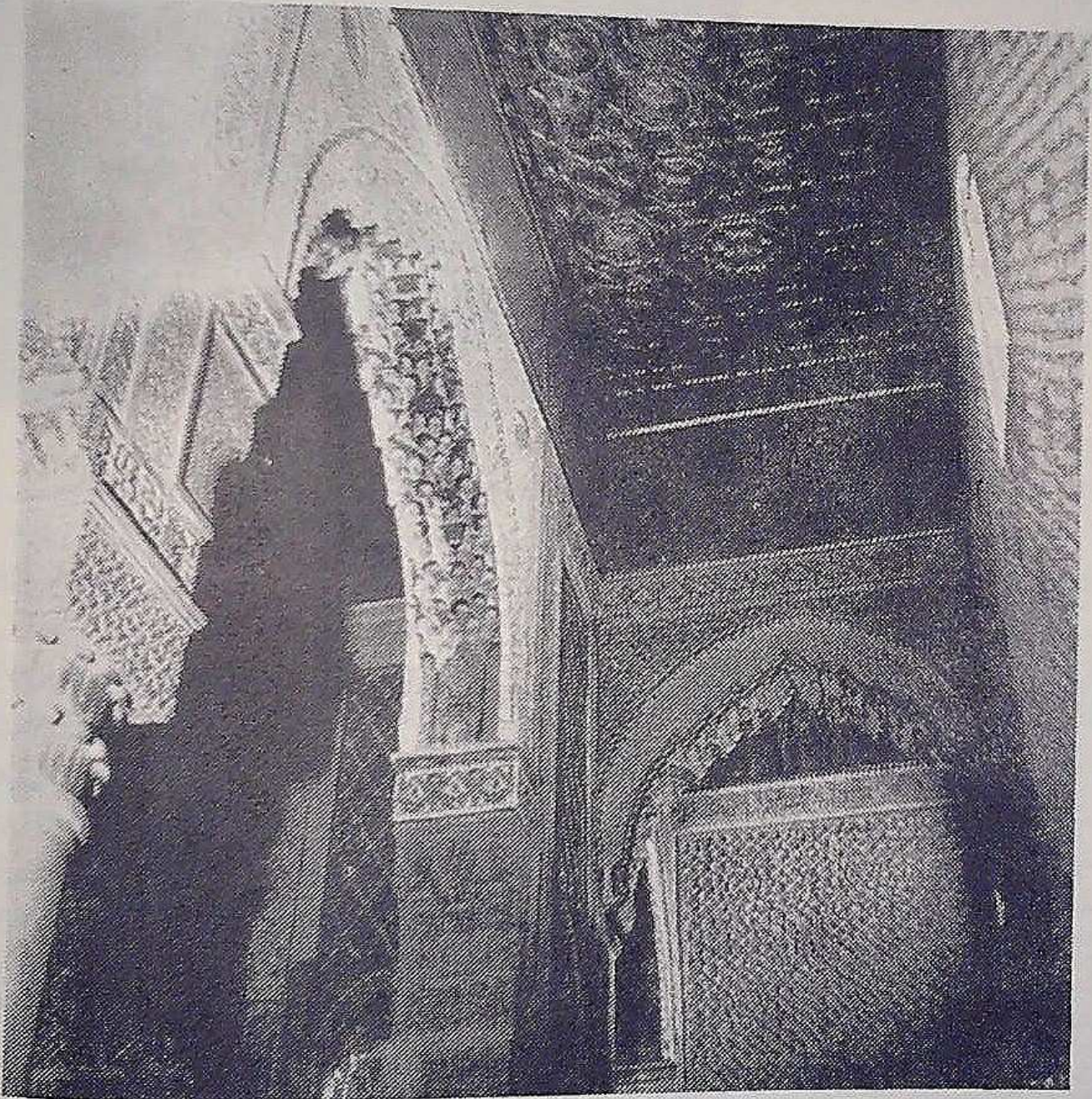


نموذج للفن العلوي : الدار البيضاء بمراكش

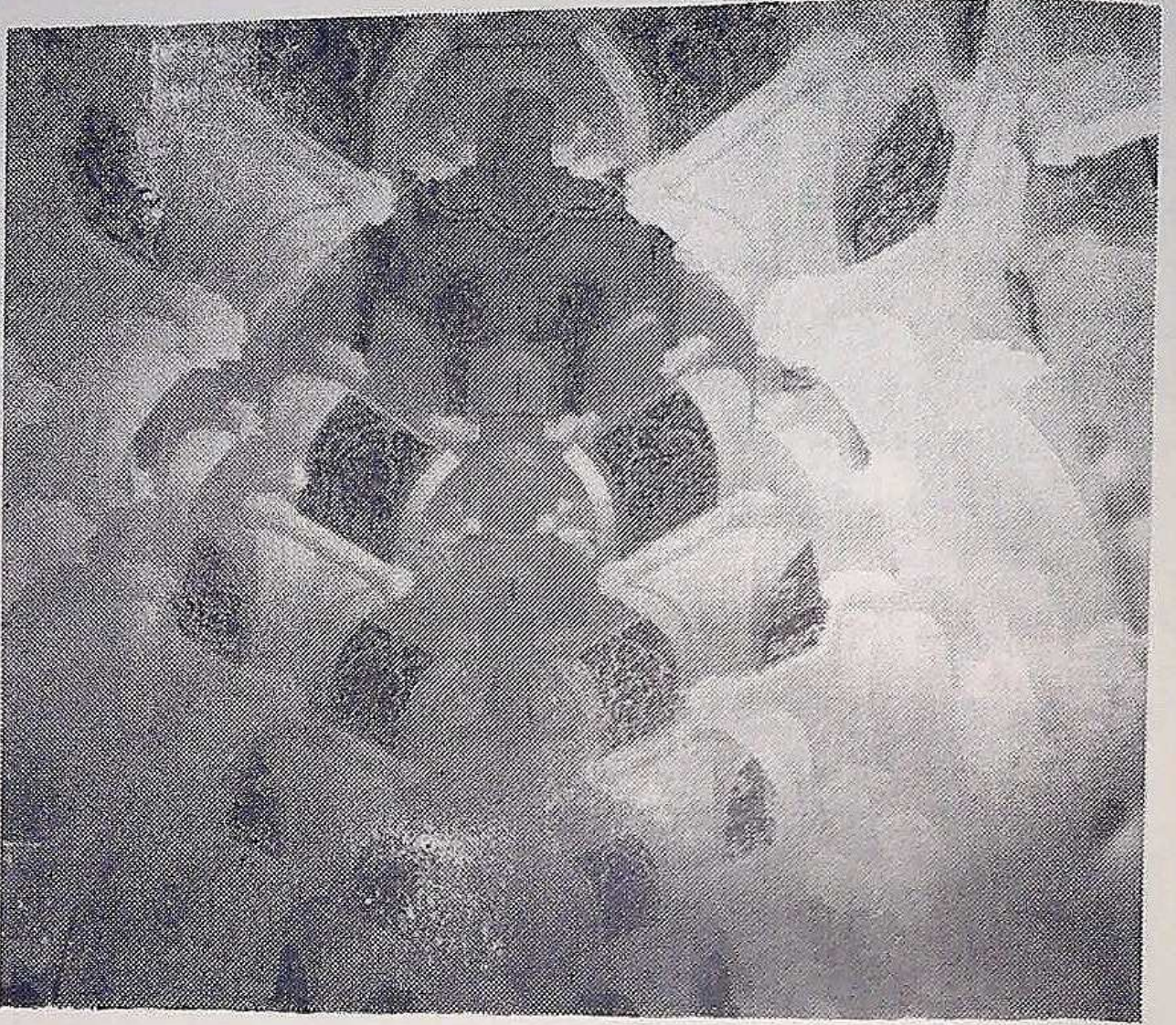
أعلاها تتصل المراسلات بينها في الليلة الواحدة أو في بعض ليلة (المسند)
ولعل أروع مثال يبرز مدى البراعة التي بلغها المهندسون والصناع هو ذلك القصر الذي
بناه أبو الحسن في ظرف اسبوع وساهم في إقامته البناءون والجارون والجاسون والريجيون
والرحامون والفنيون والدهانون والحدادون والصفارون « وف اشتمل على « أربع فناء مختلفة
ودويرتين تتصلان بها منقوشتي الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس والزليج والنقش في
الازر المحكم التجارة والصناعات المشتركة (أي التوريق والسطح) ونقش ساحة الدار وفرشها
بالزليج والرخام أضف إلى ذلك طيافير الرخام والسواري ونقش السقوف ودهن القباب وتلبس
الابواب والخوخ بالنحاس المموه بالذهب والحديد المقصود وكان عدد ساحة هذا القصر قد رسم
على كاه وهو عبارة عن تصميم الذي يشعه المهندس (١)

(١) ذكر الجهمشيار من في كتب الوزراء والكتب أن إباحة لم تصور لما أمر باتخاذ
ضيعة لولده صالح في لبصرة تقدم إلى بعض المهندسين بتصويرها فصورها ومثله رواه
ابن سعيد المغربي عن محمد الأخشيدي عند ما ورد به بستانه في ساحل انفسط
أمر أن يخطوه ويقرروا نفقته ففعل ذلك صالح بن ربح

تلك صورة عن النشاط المعماري الغامر في عهد المرينيين ولكن ما هي ميزات الفن المريني؟ إن الجامع الكبير في تازة وكذلك مسجد أبي يعقوب المريني في وجدة يحتفظان أحيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدى ولكنهما يضيفان رقة الأشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرصات والزليجيات ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والتزييم مع مدارس الشرق وهذه المدرسة هي مدرسة ومسجد في ءان واحد مجهزة بمنارة ومنبر للجمعة ومنجاة ذات ثلاث عشرة من الطسوس «شعار كل ساعة فيها أن تسقط صنجة في طاس وتفتح طاقات ومن خواص الفن المريني استعمال الطابية والآجر والحجر غير المنحوت والنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج وتوجد في المغرب وبالأخص في فاس إلى الآن بنايات خاصة يرجع عهدها إلى أواخر العصر المريني الذي عرف نشاطا معماريا استثنائيا حتى أكد كل من ابن خلدون ، وابن أبي زرع أن في



الاناقة والدقة في الفن السعدى (من ابهاء اضرحة السعديين بمراكش)



سقف القبة الثانية بعد المحراب بجامع القرويين وقد كشف عن نقوشها

عصر ابي الربيع تهاقت الناس على اقامة القصور الفخمة بالحجارة والمرمر والزليجي والنقوش والمضاربة بها واصبح ثمن الدار بفاس الف دينار ذهبية ومن ماثر المرينيين العسكرية دار الصناعة بسلا وباب المريساة واسوار فاس الجديد وقلاع تلمسان وتونس واسوار شالة وبابها وكثير منها مبنى بالطابية التي لا تقل عن الطابية الموحدية متانة

أما في عهد السعديين الذي بدأ الفن المعماري يتحجر فيه نسبيا فانه يمتاز (بقصر البديع) الذي وصفه الافرنجي بأنه يفوق قصور بغداد روعة وجمالا ورعم هذا التحجر لا يمكن ان يعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربي الاندلسي ، مع مميزات جديدة حيث ان المنصور الذهبي استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من اوربا وقد هدم المولى اسماعيل قصر البديع الذي انتشرت ستف من انقاضه في مختلف المدن .

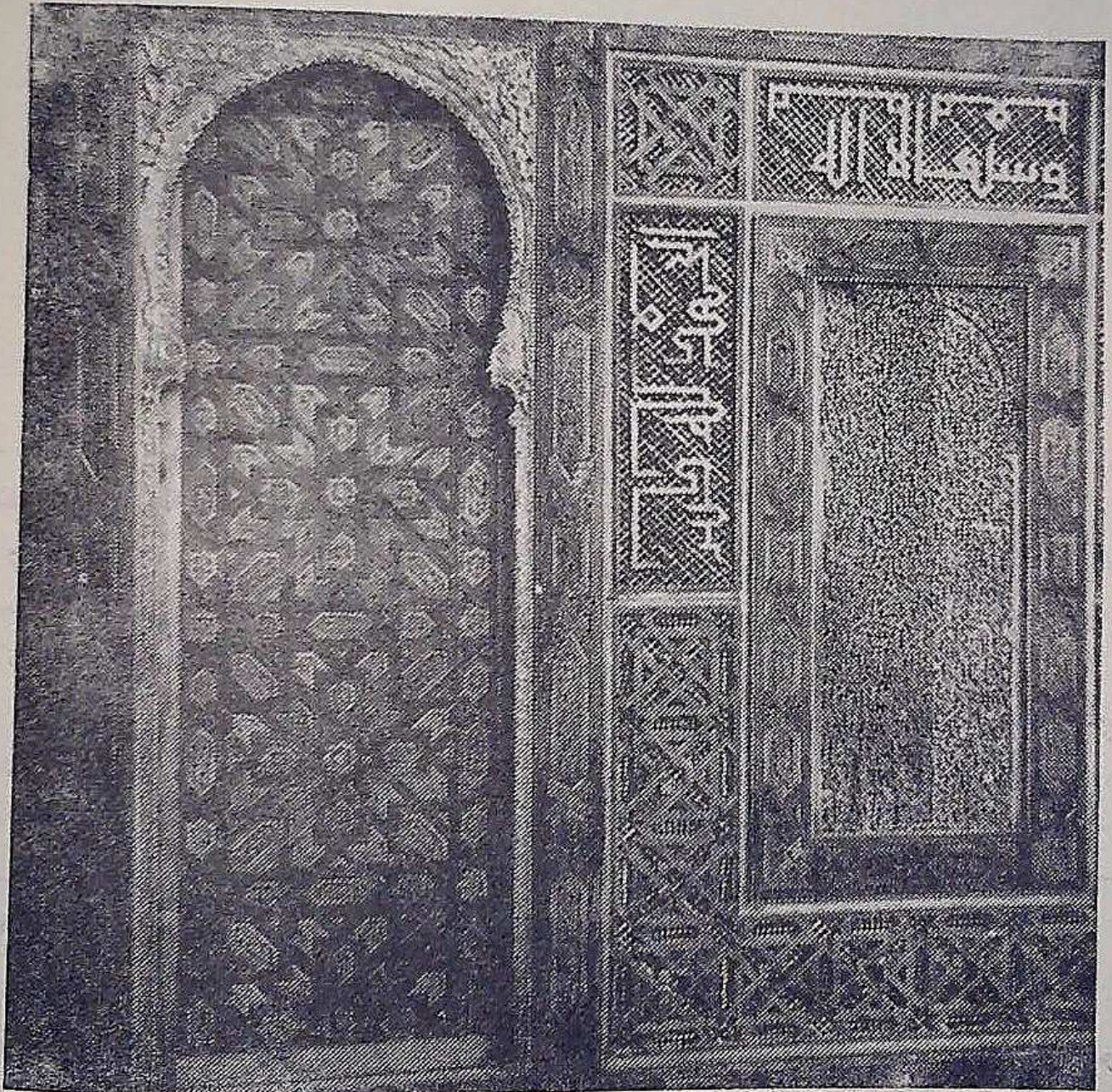
الفن السعدي والعلوي

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش المواسين والقصبة وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة وحناحان في جامع القرويين .
وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية فحضر مولاي رشيد مدينة فاس بالحصون على

غرار بنى مرين واقام مدرسة الشراطين ولكن المولى اسماعيل الذى نشر اول الامر الحصون والقلاع الجديدة فى جميع انحاء المغرب انصرف بكلبته بعد ذلك الى بناء قصر الرياض بمكناس وتنسيق حدائقه على نسق قصر فرساي حيث كان ينافس لويز الرابع عشر ملك فرنسا وقد استعان المولى اسماعيل بالخمسة والعشرين الف اسير مسيحي على انجاز مشاريعه الضخمة التى وافاه الاجل دون اتمامها فاكمل المولى عبد الله اسوار القصة وباب منصور العليج

وقد اراد المولى اسماعيل ان تكون مدينة الرياض شبيهة بفرساي وبالبيديع ولكن تمتاز بشوارعها الواسعة واحيائها المسورة ولا تعطينا الانقراض الباقية صورة دقيقة عن تصميم الرياض اللهم الا اذا رجعنا ما كتبه عنها الزياتى فى الترحمن ونقله الناصرى فى الامم وما زالت الدار البيضاء التى اقامه سيدي محمد بن عبد الله بازاء الرياض موجودة الآن

واستمرت اقامة القصور على النسق التقليدى كدار المخزن قرب انقراض قصر البيديع :مراكش وكقصر الباهية وكالقصور الخاصة التى تنتشر هنا وهناك فى حواضر المغرب وكذلك الرياض

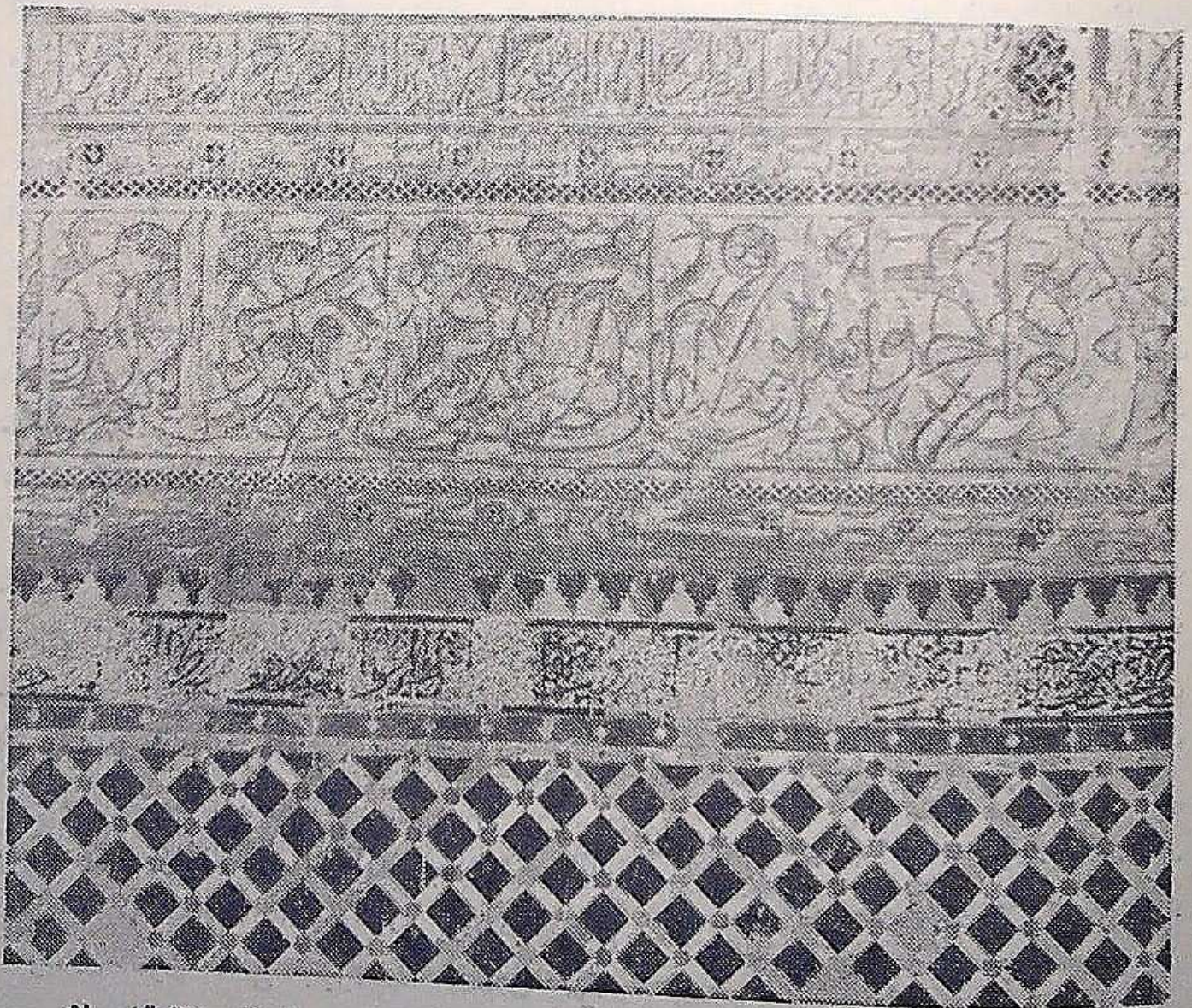


صورة لغرفة جامع مولاي عبد الله بفاس الجديد

الغناء والاكدالات الواسعة التى هى عبارة عن جنان فسيحة مجهز بعضها ببحيرات تجرى فيها المراكب

أما الهندسة العسكرية فان الملابس العصرية و تدخل الاسلحة النارية غيرت الهندام العام فى الحصون مثل باستيونات تازة وفاس وتطوان والرباط حيث تستخدم المدفعية الثقيلة وقد استعمل الاشراف نفس المواد التى كانت مستخدمة من قبل الا ان الحجر المنحوت قليل والاساطين من المرمر الذى كان السعديون يستوردونه من ايطاليا ويقتطعون بعضه من معادن الجنوب كما أن الجبس الزخرف ظل ساريا الى الآن وكذلك السقوف الخشبية المطعمة والاقواس والحنايا المنوعة والزليجى الملون الذى قل فى المنارات خلاف ما كان فى العصر المرينى والتوريق الكثير والتسطيرات الهندسية

واذا قارنا الفن المغربى فى مختلف العصور لاحظنا السمة السطحية التى بدأ تتسم بها فى عهد الشرفاء حيث كاد يتحجر الفن لضعف وازع الابتكار ولكنه فن لا يخلو من روعة ولا يبين عن وهن واعياء بل ان الاخصائيين فى الفن المعماري المغربى لاحظوا وجود نوع من التطور خلال حسة القرون الاخيرة تبعا للمقتضيات الجديدة ويكفى ان نوازن بين النمذج لنلمس الفرق



النقش والفسيفساء فى العصر المرينى (صورة لاحد ابهاء المدرسة البوعنانية بسلا)

العربية لغة العلم والحضارة

في هذه الحقيقة الحاسمة التي يلعب فيها التعريب دورا مهما في حياتنا الوطنية يلدنا ان نستعرض الادوار التي مرت على العربية كأداة لنقل العلوم وتسجيل مختلف مظاهر الحضارة وتتجلى لنا من خلال هذا العرض ثروة هذه اللغة ومقوماتها وامكانياتها الواسعة

لست في حاجة الى بيان الدور الذي لعبته اللغة العربية في العصر الجاهلي كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وأرق العواطف اذ يكفي ان نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الشراء الذي عز نظيره في معظم لغات العالم ولعل من مظاهر هذا الشراء تدرج المعنى الواحد والفكرة الواحدة في مئات المفردات من القوة الى الضعف من خلال شتى الاعتبارات وكذلك تدرج الاسماء لنفس المسميات في مئات التعابير تبعا لادق مجالى الميز ولا تزال هذه الموسوعات اللغوية لم تدرس حق الدرس الى الآن وتنطوي على كنوز تكتشف المجامع اللغوية مع الايام مدى ارتباطها بالمعاني الجديدة واتساقها مع مولدات الفكر الحديث

على ان في مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والادبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هي القوام الاساسي للتفاهم بين العلماء والتعبير عن اعمق النظريات الفنية يوم كانت الحضارة العربية في عنفوان ازدهارها ويكفي ان تتصفح كتابا علميا او فلسفيا لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة . ففي العربية اذن «مقدرات» شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها الا على مدى ضلالتنا في فقه اللغة .

والكل يعلم انه منذ اواخر القرن الهجري الاول انبثقت حركة فكرية واسعة اذكت جامعات الشرق «ولم تستفد من هذه الحركة كما يقول مؤلف « المعجزة العربية » السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وانما استفادت منها لغة شعب عاش لحد ذاك خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن في الظاهر ما يحدوه الى الاضطلاع بالدور الخطير الذي قام به مع ذلك في تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربي »

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ اعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع في نظر م . فنتجو مؤلف « المعجزة العربية » - الى الثمار المادية والروحية التي جنتها من الاسلام اكثر منها الى القرار الذي اتخذه الامريون بجعل العربية اجبارية في الوثائق الرسمية

وخلال القرن الثاني الهجري بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الادنى «وتمخض هذا الانحلال عن « اكبر فوضى في اللغات والاديان » فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة

كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على التواحدتها بالعرب «معتقداتهم واعرالفهم وعوائدهم»

ومنذ ذلك العهد ظهرت شعوب أخرى خلفت العرب في النواحي التي احتلتها «ولكن نفوذ اتباع محمد ظل لازبا لم يتغير» كما يقول جورج ريفوار في جميع نواحي أفريقيا وآسيا التي دخلوها من المغرب الى الهند تغلغل ذلك النفوذ في الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استئصال دين العرب ولغتهم «وقد اكد م. فنتجو ان العربية امست في فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء انفسهم اداة لصياغة القريض في حين «طلت اللهجة البهلوية» مستعملة في الجبل وقد استمر نفوذ العربية في القرون التالية بل صارت العنصر الجوهرى في الاوردية التي هي لغة الثقافة عند الهنوس والتي نصف مفرداتها تقريبا من اصل عربى واذا كان شعراء مثل الفردوسى صاحب الشاهنامة الذى هو عند الفرس بمثابة هوميروس عند الاغريق والذى كان متضلعا في العربية «عادوا يقرضون الشعر منذ القرن العاشر الميلادى بالفارسية» فان معظم المصنفات العلمية ظلت تحرر بالعربية مثل موسوعة الرازى الطبية وغالب مؤلفات ابن سينا .

وقد اوضح كوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» (الطبعة الفرنسية ص ٤٧٣) ان العربية اصحت اللغة العالمية في جميع الاقطار التي دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ووقع نفس الحادث كذلك في فارس مدة طويلة ورغم انبعث الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين وقد اكد جوستاف ايضا (ص ١٧٤) بان الفرس يدرسون اليوم (أى اواخر القرن التاسع عشر) العلوم والدينيات والتاريخ في مصنفات عربية .

هذا وقد عربت اهم المصنفات اليونانية في عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الآداب الاجنبية بحماس «فاق الحماس الذى اظهرته اوربا في عهد الاتبعث» وقد خضعت اللغة العربية لمقتضيات الاصلاح الجديد فانتشرت في مجموع انحاء آسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة (جورج ريفوار في كتابه «وجوه الاسلام») وقد قضت العربية حتى على اللاتينية لاسيما في شبه الجزيرة الابيرية (اسبانيا والاندلس) حيث ندد الكتاب المسيحي الفارو وهو من رجال القرن التاسع الميلادى بجهل مواطنيه باللاتينية فقال «ان المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا بقصد تفنيدها بل من اجل التمرن على الاسلوب الصحيح الانيق في العربية وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية والادب العربى فهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بكامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء المكاتب الضخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن ويعلنون على الملأ حيثما وجدوا ان الادب العربى شئ بديع ما اعظم الالم ! لقد نسى المسيحيون حتى لغتهم الدينية ولا تكاد تجد واحدا بين الالف يحسن تحرير رسالة باللاتينية الى صديق له . أما باللغة العربية فانك تجد افواجا من الناس يحذقون التعبير بهذه اللغة بكامل الاناقة بل انهم يقرضون من الشعر ما يفوق من الوجهة الفنية اشعار العرب انفسهم وقد نقل الاستاذ ليفى بروفنصل مقتطفات من كتاب الفارو في كتابه حول «حضارة العرب في اسبانيا»

وقد أكد المؤرخ دوزي في كتابه «تاريخ مسلمي اسبانيا» (ج ١ ص ٣١٧) أن أهل النوق من الاسبان بهرتهم نصاعة الادب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين»

وقد نقل دوزي عن صاحب كتاب «لوس موزار ايبس دوطوليد» ان العربية ظلت اداة الثقافة والفكر في اسبانيا الى عام ١٥٧٠ ففي ناحية بلنسية استعملت بعض القرى الاسبانية العربية كلغة لها الى اوائل القرن التاسع عشر وقد جمع احد اساتذة كلية مدريد ١١٥١ عقدا في موضوع البيوع محررا بالعربية كنموذج للعقود التي كان الاسبان يستعملونها في الاندلس

ولم يفت المؤرخ «فياردو» الذي كتب منذ نحو القرن تاريخ العرب في اسبانيا أن ينوء شراء اللغة العربية الحارق وشاعرية العرب الفياضة حتى ان معظم سكان شلب - وهي اليوم جنة البرتغال - كانوا شعراء في نظر القزويني بل يؤكد دوزي انهم كلهم كانوا شعراء

ان اللغة العربية التي بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة في العهد الجاهلي ادركت في القرن الرابع الهجري اي في عنفوان العصر العباسي اوج كمالها وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي في هذا القرن ووصف فيكتور بيرار اللغة العربية في ذلك العصر بانها «اغنى وابسط واغنى وارق وامتن واكثر اللهجات الانسانية مرونة وروعة فهي كنز يزخر بالمفاتيح ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير» واعجب ما في الامر - وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الاخرى - ان البدو كانوا هم سدنة هذه «الذخائر» وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعا» ومنهم استمد كل الشعراء ثراهم اللغوي وعبقريتهم في القريض

ان نفوذ اللغة العربية اصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من اوربا الجنوبية ايقن بان العربية هي «الاداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب» كما يقول جورج ريفوار الذي اوضح ايضا ان رجال الكنيسة اضطروا الى تعريب مجاميعهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الاسبانية وان «جان سيفيل» وجد نفسه مضطرا الى ان يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس (١)

اما في فرنسا فقد اكد جوستاف لوبون في حضارة العرب (ص ١٧٤) ان للعربية آثارا مهمة في فرنسا نفسها وقد لاحظ المؤرخ «سديو» عن حق ان لهجة زحيتي اوفيرني وليموزان زاخرة بالالفاظ العربية وان الاعلام تتسم في كل مكان بالطابع العربي» وكان من الطبيعي ان يزود العرب الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثامن الميلادي - كلا

(١) منذ القرن العاشر الميلادي تبني اليهود لغة الفاتحين العرب كلغة علمية في افريقيه وغيرها ويجدر ان تذكر الخبر يهودا بن قريش لما يمتاز به كتابه في فقه اللغة المقارن والذي وجهه في ذلك العهد الى بيعة فاس (كودار ص ٤٥٤)

من فرنسا وإيطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية على أنها تركت أثرها في مصطلحات الجيش والإدارة والصيد والعلوم وغيرها »

وقد لوحظ نفس التأثير في صقلية حيث كان الملك روجير النورماني يتسربل بالأزياء الشرقية ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية وكان كل من طابعه ونقوده يحمل الكتابة العربية والنورماندية وقد كان أميرال صقلية متضلعا في العربية وبالجمل « فقد صارت العربية - كما يقول الاستاذ فنتجو - لغة دولية للتجارة والعلوم »

أما نسبة هذا التأثير فقد ذكر بعض الباحثين أن المفردات العربية التي دخلت إلى الإسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الإسباني بينما دخلت إلى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية وقد صنف الأب ساسا باتيستا الذي ولد في دمشق من أبوين عربيين قاموسا عام ١٧٨٩ جمع فيه الكلمات التي اقتبسها البرتغال من العربية وهذا القاموس يقع في مائة وستين صحيفة كما ألف دوزي وإنجلمان قاموسا للكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وتوجد في مكتبة الإسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية إسبانية صنفها علماء مسلمون (حضارة العرب ص ١٦٦ - ٤٧٤) وقد كان للمغرب حظه في هذا التأثير اللغوي على الأندلس الذي استمر حكمه لها نحواً من ثلاثة قرون أما البرتغاليون الذين عاشوا في المغرب فقد ذكر شافروبيير في كتابه عن تاريخ المغرب (ص ٢٧٣) أن الجالية التي كانت بالمغرب في القرن السادس عشر كانت تراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مراسلاتها بالحروف العربية (١)

وهناك لغات أخرى كالمالطية اقتبست معظم مفرداتها من العربية وقد أمكن الاستماع في السنوات الأخيرة لخطاب فاحت به شخصية مالطية رسمية لم يعسر فهمه على المستمعين لا سيما وأن اللهجة المالطية تتجانس مع لهجات المغرب العربي ومعلوم أن الكثير من اللهجات تتقارب في العالم العربي وقد أكد جوستاف لوبون (ص ٤٧٢) « أن العربية من أكثر اللغات انسجاماً فهي وإن كانت تحتوي على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها إلا بفوارق جد طفيفة بينما نلاحظ أن سكان قرية في شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة في قرى الجنوب نرى سكان شمال المغرب الأقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز » وقد قال الرحالة بوزكارد بأن كل من عرف إحدى هذه اللهجات فهم سائرهما دون عناء »

وقد اكتشفت في صقلية لوحة مسيحية محررة بالعربية ومؤرخة بالتاريخ الهجري بعد انتهاء الاحتلال العربي بستين سنة

واللغة الأفریقیة نفسها اقتسبت الشيء الكثير من العربية غير أن المقترسات اتخذت شكلية يعسر معها إرجاعها إلى الأصل العربي .
ومعلوم أن الجامعات الأوروبية كانت عاملاً مهماً في ذیوع اللغة العربية التي أصبحت في العصور

(١) أما اليهود المغاربة فقد لاحظ كودار (تاريخ المغرب ج ٢ ص ٤٥٥) أنهم اتخذوا لغة العرب لغة لهم منذ القرن العاشر الميلادي واعتبروها لغة العلم في مجموع إفريقيا الشمالية ويمكن اعتبار الحبر يهودا بن قريش من أبرز هؤلاء نظراً لمصنفة القيم في فقه اللغة المقارن الذي أهدها إلى بيعة فاس

وكان سلطان مصر يستخدم نصرانيا في ديوانه للكتابة بالعربية لما عساه أن يطرأ يوم الجمعة حيث كانوا لا يحضرون في هذا اليوم بالديوان (خطط المقریزی ج ٢ ص ٢٢٧)

الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل أصبحت لغة دولية للحضارة .
 ففي عام ١٢٠٧ م . لوحظ وجود معهد في جنوة لتعليم اللغة العربية ثم نظم المجمع
 المسيحي العالمي بعد ذلك تعليمها في أوروبا وذلك بإحداث كراسي في كبريات الجامعات الغربية
 وفي القرن السابع عشر اهتمت أوروبا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية
 ونشرها ففي سنة ١٦٣٦ قررت حكومة السويد تعليم العربية في بلادها ومنذ ذلك انصرف
 السويد الى طبع ونشر المصنفات الاسلامية وبدأت روسيا تعتني بالدراسات الشرقية والعربية
 على الخصوص في عهد البطريرك الأكبر الذي أوفد الى الشرق خمسة من الطلبة الروسين وفي
 عام ١٧٦٩ قررت الملكة كاترينا ببارية اللغة العربية وفي عام ١٨١٦ أحدث قسم اللغات
 السامية في جامعة بتروكراد .

قد اتجه اقتباس أوروبا من العربية نحو الميدان العلمي فدخلت الى اللغات الأوروبية كثير
 من المصطلحات العربية مثل الكحول والأكسير والجبر واللوغريتم وقد استمدت الأسبان
 حسب ليفي بروفنسال - معظم أسماء الرياح والأزهار من العربية ومن جبال البرانس
 انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران
 ومجموع مصطلحات الري تقريبا هي كذلك من اصل عربي كما تحمل الحلي في اسبانيا أسماء
 عربية ويتجلى نفس التأثير في الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها
 امريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .
 وقد لا حظ عالم ايطالي كبير أن معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مذهشة في لغة
 روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري ولكن بفضل اشعاع اسلام ثقافي .

بل ان الاصطلاح الخاص بالكنيسة تأثر الى حد بعيد بالطابع العربي فقد اعترف
 البارون كارادوفو مؤلف «مفكر الاسلام» وهو مسيحي متحمس بان الاسلام علم المسيحية متهاجا
 في التفكير الفلسفي هو ثمرة عبقرية ابنائه الطبيعية وان مفكري الاسلام نظموا لغة
 الفلسفة الكلامية التي استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك اكمال عقيدتها جوهرها وتعبيرها وهذه
 «أجرة لاسيما اذا اعتبرنا - مع رؤف «وجوه الاسلام» - مدى مساهمة الفلسفة الاسلامية في
 تكوين علم الكلام خلال القرون الوسطى والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا وابن
 رشد وما كان لهما من تأثير على أشهر مفكري المسيحية

واذا كان قد قدر للعرب ان يقوموا بدور ما في عصر الجاهلية فانما كان ذلك عن طريق اللغة
 التي كانت انصع عنصر في حياة العرب وقد دعا فولفسن في كتابه «تاريخ اللغات السامية»
 (المشاركة المتكلمين بلغة الضاد الى درس فقه اللغات السامية للاقتناع بعظمة اجدادهم والدور
 الذي قاموا به في حضارة العالم القديم «ثم أكد ان المشرقيين الذين نددوا بالعروبة وبلاشعاع
 العربي لم يهدفوا الا لغايات دينية واستعمارية»

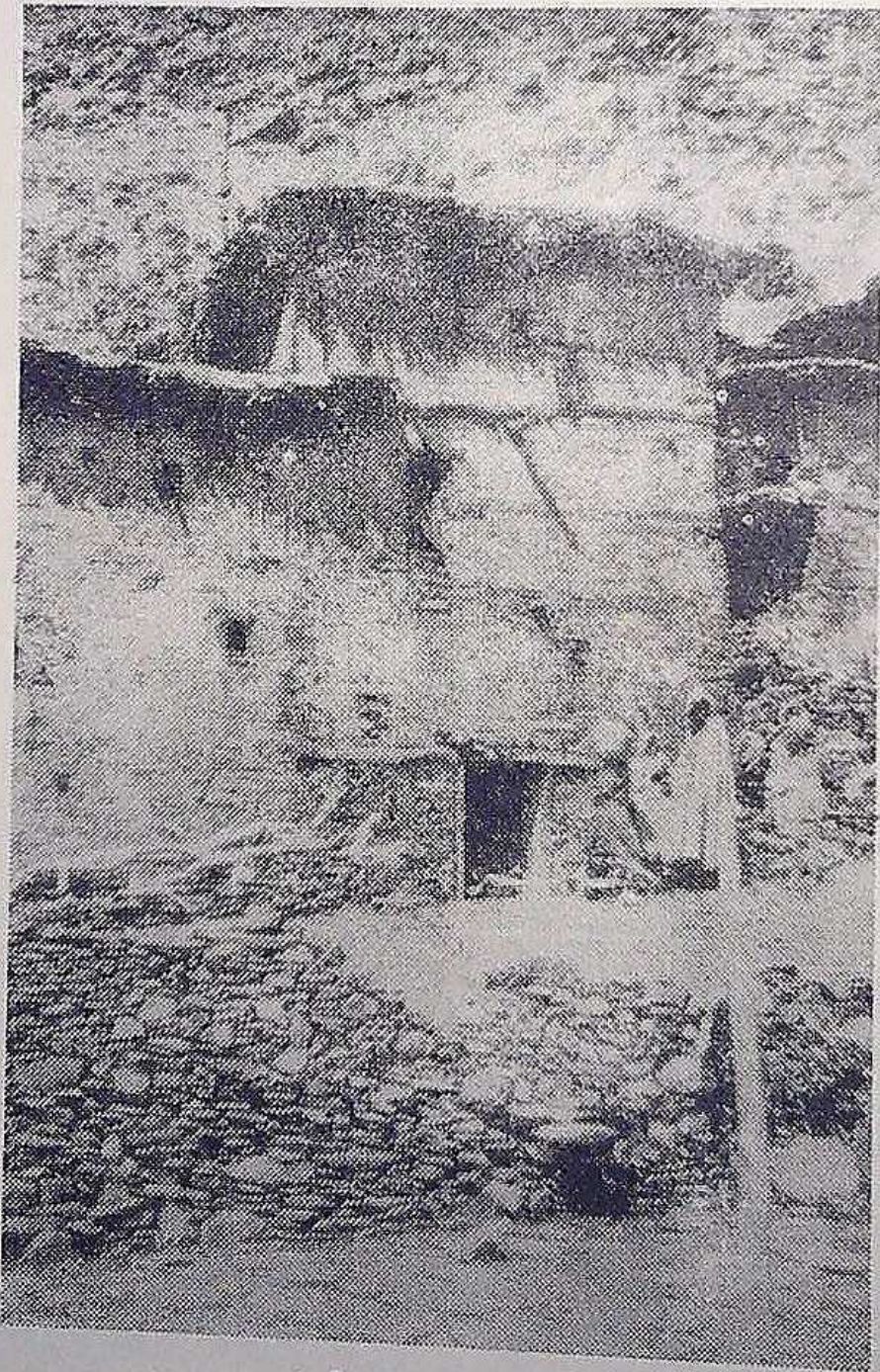
وقد عبر الاستاذ ماسينيون عن نفس الفكرة قائلا : ان المنهج العلمي قد انطلق اول ما انطلق
 باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الأوروبية .

ثم قال : «ان العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية ان تضيئ سربال
 الفتوة على التفكير الغربي كما نعتت «الف ليلة وليلة» في القرن السابع عشر الميلادي
 ذهنية أوروبا التي اتخمتها أساطير الاغريق والرومان»

ثم يواصل ما سينيون وصفه الرائع قائلا «ان اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر
 في الميدان الدولي وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهرى للسلام بين
 الأمم في المستقبل»

تحمل البربر ثقالبدا الإسلام

كتب الاجانب عن البربر وتقاليدهم كثيرا من المصنفات وتقدموا بشتى الاطروحات فى هذا الموضوع الذى اكتشفوا فيه مادة وافرة لتطعيم سياسة التفرقة بين العرب والبربر ولكن بالرغم من الحاجز الكثيف الذى أقيم بين الجبل والسهل وعن المناطق الحرام المصطنعة وعن الدسائس التى حيكت لفصل البربر عن الشريعة بدعوى أن لهم عرفا يمتسكون به ولا يريدون به بديلا بالرغم من هذا وذلك تم خض الكفاح - كفاح الجبل والسهل - عن رجوع الوحدة الى مجراها وعن استقلال بنى أسسه ويدعم اليوم مستقبله العرب والبربر معا



دار ذات طابقين فى الجنوب

ان الاسلام كان دائما الدعاة الكبرى والعروة الوثقى التى تربط بين أجزاء المغرب وتوحد فى جنبااته المتباعدة لا المظاهر السطحية فقط لان المظاهر لا تعيننا كثيرا - ولكن الروح والذهنية التى هما المرأة الحق لنفسية الشعب ومثله العليا .

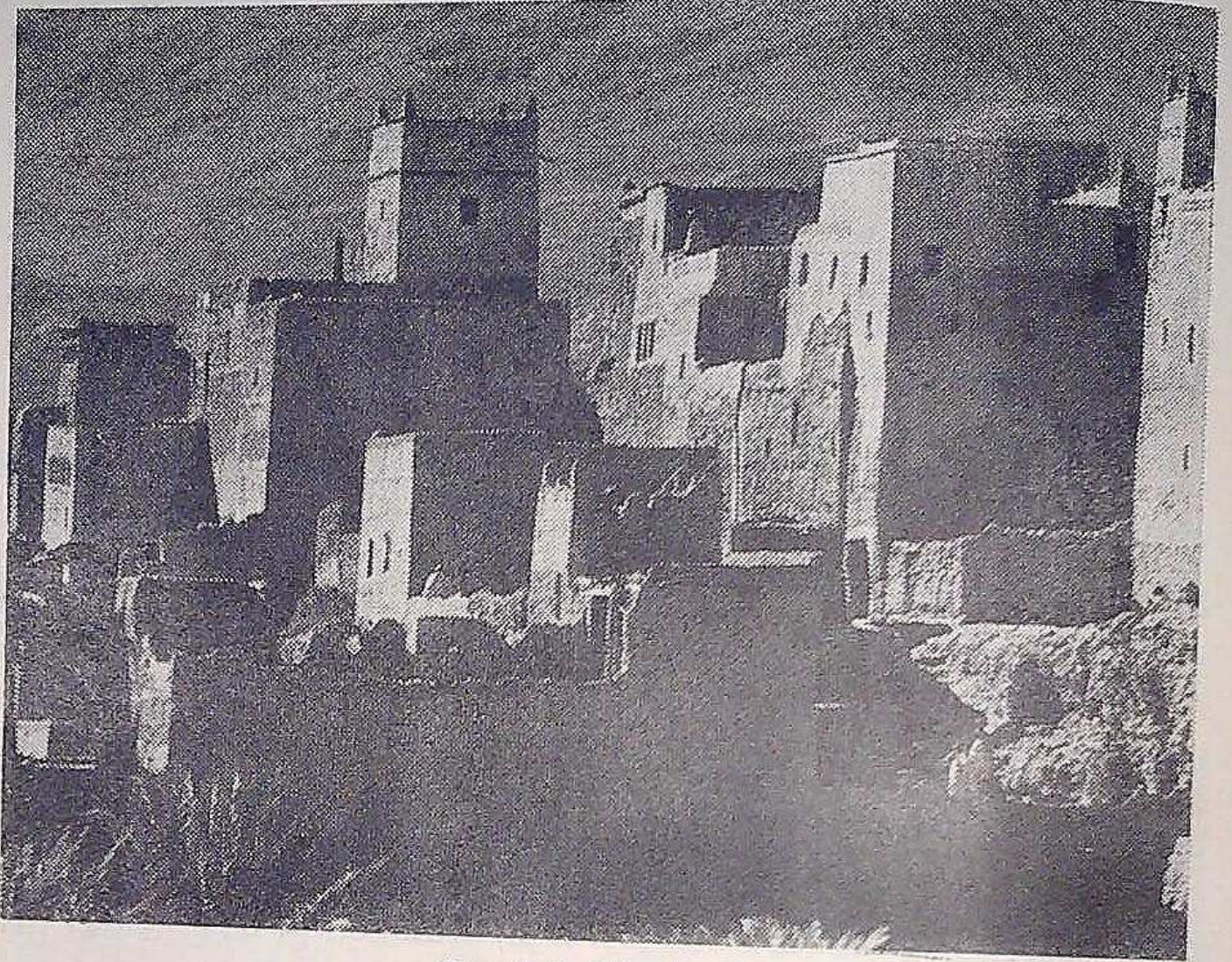
جلس الملوك المرابطون والموحدون والمرينيون على عرش المغرب وهم برابرة فكان اول عمل قام به الملثمون هو - كما يقول ابن ابي زرع «رد احكام البلاد الى القضاة واسقاط مادون الاحكام الشرعية» (ج ٢ ص ٣٧) بل «عدم القطع فى أى أمر دون مشاورة الفقهاء» الذين هم ممثلو الشريعة (المعجب ص ١٠٢) وبأدروا فى نفس الوقت الى الانضمام لدار الخلافة العباسية اعلاء لكلمة الاسلام وتوحيد الربوع المتناثية وكاد يجمع المؤرخون - حتى المتعصبون منهم للنصرة البربرية ، على أن الفكرة الاسلامية كانت هى العامل القوى فى بناء

«الامبراطورية» المغربية التي امتدت من السودان الى برقة قشتالة بالاندلس ولم يتمالك بعض هؤلاء المؤرخين عن اظهار حقهم ضد البربر لكونهم «لم يشعروا» بثقال يدهم الخاصة ولكون ملوك أمازيغ لم يستطيعوا التعرف الى المشاكل التي يثيرها العالم البربري ولم يحاولوا تحقيق وحدة جنسهم المعنوية « نعم » قضى هؤلاء الملوك المرابطون والموحدون - باعتراف المؤرخ طيراس - على بقايا رواسب الوثنية في الاطلس والريف والسهول البربرية وقطعوا اشواطا كبرى في بث الروح الاسلامية في النفوس والتمسك بالشرعية»

وقد أكد الأستاذ «اربان» في كتابه «مغرب اليوم» أن الاسلام حمل معه عاملا ثمينا للوحدة في كل بلد اعتنقت الدين الجديد وهذا العامل هو العربية التي هي لغة الدين ولغة الحضارة» وقال في موضع آخر : «لا يوجد سوى رابطتين يمكنهما جمع أشقات هذه الفترات المتناثرة ، وتكوين دولة : وهما رابطة الدين المتولدة عن العقيدة الاسلامية والرابطة السياسية التي يتمخض عنها تطور المغرب التاريخي ذلك التطور الذي يحيل الجامعات المقتتة الى سلطة مركزية»



برج مظل على النخيل



انموذج للقرية البدوية

وقد تغلغلت «أداة الفكر العربي ولغة القرآن في أعرق مداشر الاطلس حيث يتلو الصبيان القرآن ويتبعه الناس في صلواتهم عن طريق العربية وقد أكد روبير مونطاني الذي قام بتحقيق في هذه النواحي أن البربر «نقلوا الى لهجاتهم من اللغة العربية كل ما يتصل بالدين والسياسة والآداب والمجاملات والضيافات (ثورة في المغرب ص ٣٧٢)

على أن كثيرا من القبائل التي نلهمج بالبربرية هي من أصل عربي ويكفي أن نعلم أن في الاطلس وسوس والريف قبائل تنسب الى قريش وهي مع ذلك مزجاة البضاعة في لغتها الاصلية فالمسألة اذن مسألة ملابسات محلية .

أما انتشار الشريعة في الربوع البربرية فقد تحقق نوعا ما في عهد الادارسة ثم في عهد المرابطين الموحدين والمرينيين وبدأ يفتر بعد ذلك رغم انبثاق السعديين وحتى العلويين باسم الاسلام والقرشية من صحراء المغرب الشرقية او الجنوبية وقد حدثنا الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي عن بعض القبائل البربرية التي زارها في القرن العاشر فلمس رغبة الناس في طبع مظاهر حياتهم بالطابع الاسلامي واستعداد البربر لايوامة الشريعة الاسلامية الذين تنقلهم الصدف الى مداشرهم وتمنييتهم بالمال وقد حكموا ليون الافريقي نفسه في نزعاتهم وفي الاطلس الكبير حكى ابن الوزان ان القبائل تصرف أموالا طائلة على قضاة دائمين كما هو الحال في مريسة وفي بني زروال وشيشاوة ، وتينمل وكذلك الريف ولكن كثيرا من القبائل اضطرت - في مختلف مراحل التاريخ - ازاء انعدام القضاة الشرعيين الاكفاء - الى تحكيم

جماعة الاعيان الذين - نظرا لجهلهم بالشريعة - يصيرون احكامهم حسب رأيهم وقد تكونت خلال الاجيال من احتكاك هذه الآراء ومقارنة نتائجها أعراف حادث أحيانا عن الاسلام كما وقع في الارث حيث نحيث المرأة بسبب ما يخشاه البرابرة من تسرب الزوج الاجنبى وتدخله في الملك العائلى والا «فان تجريد المرأة من الميراث لا يستمد - كما يقول سوردون في المؤسسات البربرية ص ٢١٣- من روح معارضة الاسلام»

ويلاحظ «سوردون» هذا في دراسته للاعراف البربرية انه «لا يوجد تعارض ما بين الشريعة والعرف» على أن الاسلام نفسه يحكم الاعراف المحلية الصالحة «فالعادة عند البربر - كما يقول سوردون - تسمى اما شرعا واما عرفا فالشرع هو العرف العام أما العرف الحقيقى فهو تلك المجموعة من الاجراءات الجنائية والاتفاقات المبرمة بين مختلف الجماعات لتحديد بعض نقط العرف أو تعديلها لا سيما فى خصوص المخازن العامة «أجدير» أو السواقي» (ص ٢٨١) وهكذا يظهر ان العرف العام هو الشرع وهو الذى يطبق فى كافة القبائل التى تتأتى لها وسائل تطبيقه ولكل قبيلة عرفها الخاص (ص ٢٤٠) وفى وادى درعة مثلا حيث استمر العمل بالعرف «يسمى القانون الخاص غالبا شرعا وكان يطبقه قبل اليوم حكام يدعون قضاة أو مفتين يختارون من بين الطلبة الكفاء الذين درسوا الشرع الاسلامى وحذقوا جزئياته وهنا أيضا «لم يقع أى تصادم بين لشريعة والعرف» (سوردون ص ٣٤٢) وهذا المبدأ عام فى مجموع المغرب العربى ففى الاوراس - بالجزائر مثلا، نراهم يستعملون الشريعة الاسلامية وقد احتفظوا مع ذلك بأعرافهم الخاصة التى تستمد وجودها من الملابس الجغرافية الشبيهة بما فى السوس او الاطلس الاوسط بحيث نرى بلاد الشاوية الجزائرية تلتجىء فى فض نزاعاتها العامة الى القاضى المالكى وفى الخلافات الخاصة الى أعيان الجماعة (ص ٣٩٥) وهكذا نرى المغرب العربى منقسما شطرين كلاهما يستمد من روح الشريعة لاسلامية فالمذهب المالكى الذى يتمذهب به نحو ٧٠ مليوناً فى العالم الاسلامى يطبق فى حواضر المغرب العربى وكذلك فى القبائل التى يتأتى لها الاتصال بهذه الحواضر أى فى نصف افريقيا الشمالية تقريبا بينما يتركز العرف الممزوج بالفقه الملكى فى الشواحق ..

وهذه الملابس الخاصة هى التى حدت ملوكنا الى احترام الاعراف المحلية لانها فى الحقيقة تسير روح الاسلام وقد لوحظ أن كثيرا من الاعراف المحلية صادق عليها الملوك باقتراح من الاشراف المحليين واهل الدين كالظهير الحسنى الصادر فى شأن الاعراف الجنائية بزمور الشلح وكما وقع ايضا فى ادوان من عام ١١٠٦ هـ فى زاوية سيدى ابراهيم وعلى وكثيرا ما ترجع القبائل تلقائيا الى تطبيق الشرع الاسلامى متى تيسرت لها الاسباب فقد نشرت مجلة هسبريس (ج ١٨ سنة ١٩٣٤ ص ٤٦) وثيقتين ذكرت أنهما أقدم ما يوجد فى القانون الجنائى العرفى بالمغرب ويرجع تاريخهما لعام ١٥١٢ م وقد ورد فى مقدمتهما أنه «بعد التعرف الى الضلال الذى تنطوى عليه الاعراف العتيقة أصبح رئيس القبيلة يطبق ماورد فى القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى خصوص الجرائم تبعا لآية القصاص» ثم تتلو لائحة من انديات فالذى كان ينقص النواحي البربرية اذن لتطبيق الشرع الاسلامى هو الوسائل وقد توفرت اليوم بحمد الله بعد اعلان الاستقلال والغاء الظهير البربرى حيث اصبح فى وسع وزارة العدل التى تشرف على الاجهزة القضائية بكافة انحاء المغرب - ان توحد النظام القضائى على أسس تستمد من الشريعة لاسلامية الصالحة لكل الاعصار والامصار كما تستمد كل ما يتلاءم وروح الاسلام مما تنطوى عليه الاعراف المحكمة والقوانين

العالمية (١) وهي مهمة شاقة جدا ومسؤولية خطيرة لا يمكن الاضطلاع بها الا عن طريق لجان مختصة تتوزع العمل وتتفقد - بعد التمحيص الطويل - على مجموعة قانونية تتناسق مع مبادئ الاسلام والواقع الصالح ولنا في الاقطار الاسلامية الاخرى الاسوة الحسنة حيث نجد في القضاء المصري مثلا ، ذلك النوع من التناسق المطبوع بطابع الاسلام ومن المرونة التي تتسع لكل جديد صالح

و نحن نجتاز الآن مرحلة حاسمة في حياتنا الوطنية والناس ينتظرون من وزارة العدل الفتية أن تحقق هذا التحول المرموق بكامل الحيلة والحذر لان عملها الحاضر يبنى توجيه القضاء في مغرب الغد



منظر بين الجبال المغربية

(١) نقل ابو الوليد محمد ابن عبد الله بن خيرة في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيرا بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصا في المائتين الرابعة والخامسة من الهجرة ومن هؤلاء هربرت والبرت الذان طلبا مساعدة العلماء لابراز مقصدهما فساعدوهما على تدوين الفقه كاملا وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك نرى احكام القوانين والقضاء لا تزال رديئة وسيئة في العدو الشمالية وهربرت هذا هو البابا سلفستر الثاني الذي يقال انه درس في القرويين



النخيل فى ركن من صحراء المغرب

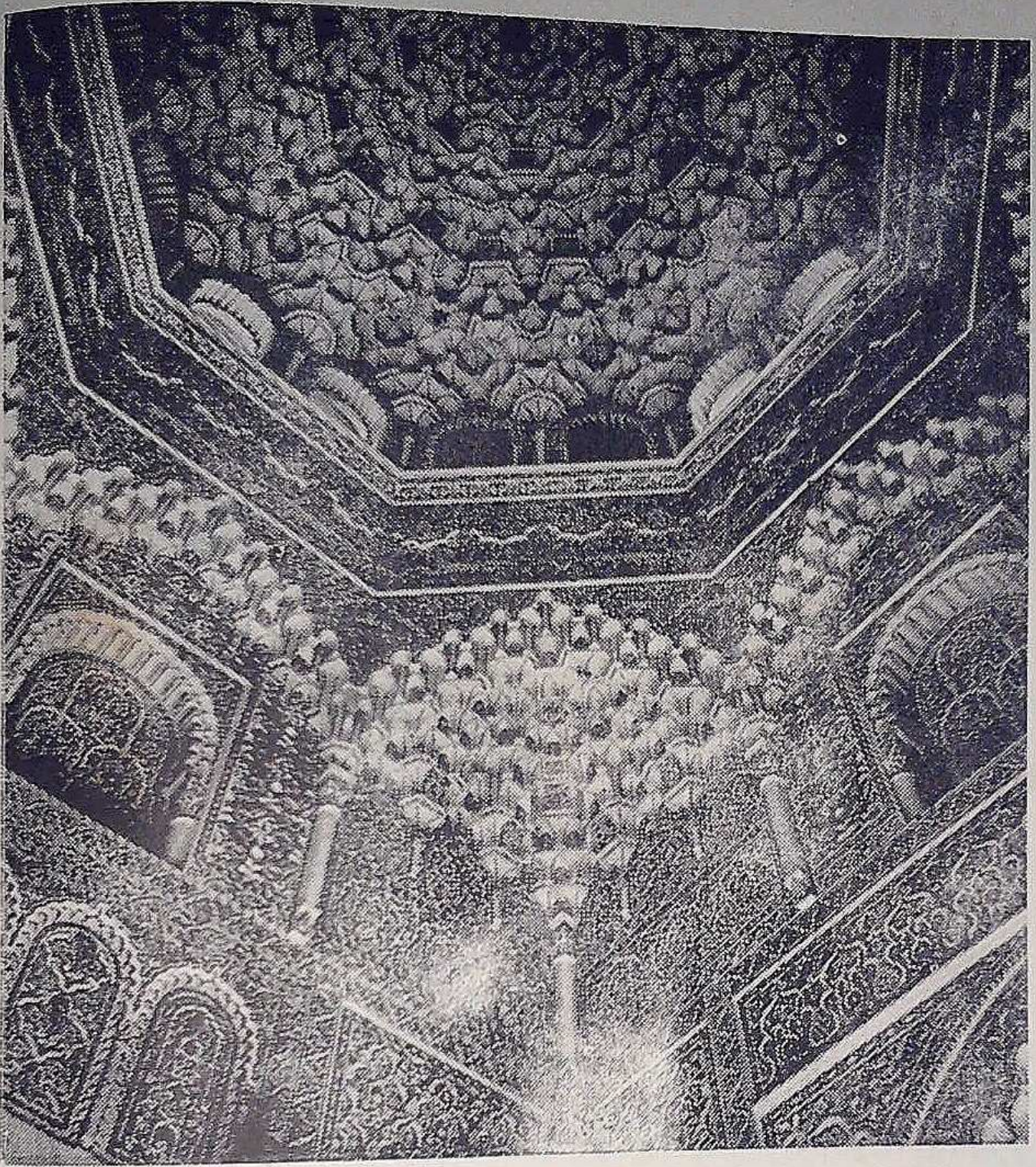
الأوقاف في المغرب والعالم الإسلامي

تتسم الاوقاف في المغرب باهمية كبرى نظرا للدور الاجتماعي الخطير الذي ينتظر منها القيام به علاوة على مهمتها الدينية

وقد عرفت الاوقاف في العالم الاسلامي ازدهارا خاصا ، ولعبت في مختلف العصور دورا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا كان له اثره في تكييف الاجهزة المسؤولة في الدولة ، وتخفيف الوطأة الى حد بعيد على الميزانية العمومية .

ولن اتحدث في هذه العجالة عن ماهية الوقف وتعريفاته القانونية ، واطاره الشرعي وما اثير حول ذلك من خلافات تند احيانا عن روح الموضوع واهداف المشروع التي هي اهداف انسانية في ذرائعها وغاياتها . وانما اريد ان ارسم لوحة مصغرة عن المظاهر التي اتسمت بها هذه المؤسسة في مختلف الاعصار والامصار الاسلامية .

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد - بشتى الوسائل لتركيز الفكرة الاسلامية وتحقيق ازدهار المسلمين في آن واحد بواسطة «رباع» توقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية وقد ساهم الملوك والشعب في هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهر لتحقيق غاياتها واذاراجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا ان الاوقاف كانت تتوفر في جميع انحاء القطر على حسن الاراضى والعقارات وحتى على السوائم الحية في الجبل علاوة على الغراسات الثرية وقد وقع تقويت جانب كبير من الاراضى الحصبة الشاسعة والاملاك المختلفة في اiban الحماية ولا تزال صكوك تحبيسها موجودة الى الآن وقد تبلور الاتجاه الحبسى على الخصوص منذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسف المدارس للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات في كل شهر وبنى الزوايا في الفلوات واقف لها الاوقاف الكثيرة لطعام غابري سبيل وذوى الحاجات «الذخيرة السنينة ص ١٠٠» ، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث في هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن « في كل بلد من بلاد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) مدرسة فقامت مؤسساته الاجتماعية في تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا (الدار البيضاء الحالية) وازمور وآسفى واغمات



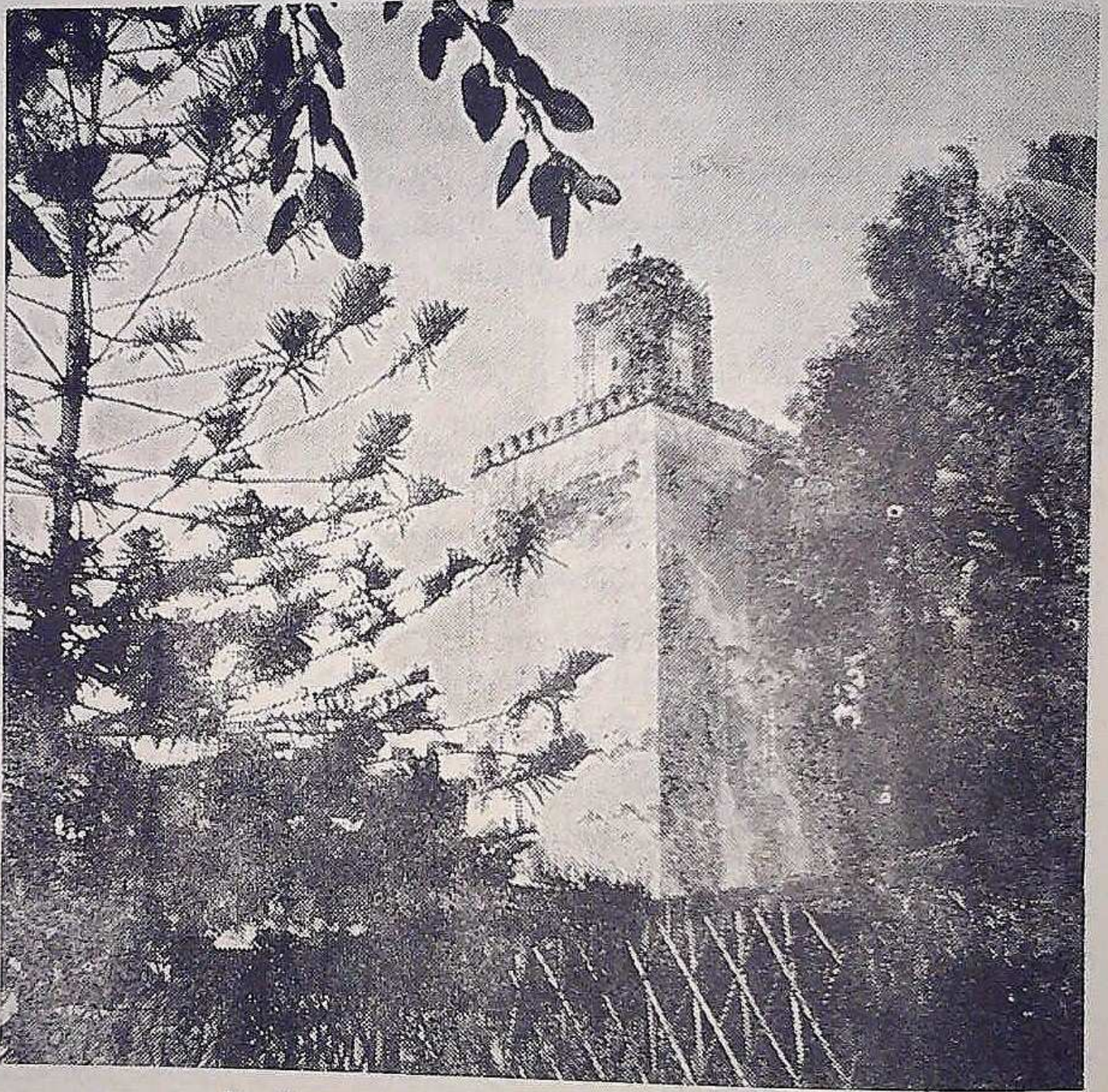
قبلة مقربصة تمثل الفن الذي ساهمت الاوقاف الاسلامية في صيانتة وتشجيعة

ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر (المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص ٣٥ مجلة مسبريس عام ١٩٢٥) .

ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطن املكها للاسعاف الاجتماعي وهي الاوقاف المعينة على الجرم مثلا الذي كان يوزع اسبوعيا او يوميا حسب أهمية الارباع هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التي كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة

واذا اعتبرنا ان كل مدينة مغربية كانت تتوفر في كل حي من احيائها على عدة مساجد باوقافها لمسنا ضخامة الثروة الحبسية في المغرب ويكفي ان نعلم ان في فاس وحدها احصى

في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين (١) ٧٨٥ مسجدا و ٤٢ دارا للوضوء و ٨٠ سقاية
عمومية و ٤٣ حماما (زهرة الآس ص ٣٣) وكلها حبسية -
وكانت في المغرب أوقاف من نوع خاص (٢) كالتى تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما



منار جامع ملين قرب الحديقة العمومية بالرباط

(١) وذكر ابى القاضى فى الجذوة ان مساجد فاس كانت قبل اليوم ٧٨٥ واما اليوم
(عصر المنصور السعدى) فلاتحصى كثرة وعدد حماماتها قبل اليوم ٩٣ واما اليوم فلا
عدد لها (ص ٢٨)
(٢) وكانت هنالك أحباس من نوع خاص فى كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب
نشر المثانى ان من أحباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازى (ج ١ ص ٢٠) وان
كراس العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسى والرسالة
ينظم ابن زكرى لها أحباس (ج ١ ص ٢٨) ومن أحباس فاس استيفاء ابن حجر على
الصحيح فى التدريس (نيل الابتهاج ص ١٦٩) وكان بعض العلماء لا ياكلون من مال
الاحباس مثل سيدى عبد القادر الفاسى (السلوة ج ١ ص ٣١٠)

مجانا في منزل مؤثث إبان الزفاف وكالتى تنفق فى تجهيز العروس المعوزة وأوقاف الأواني المكسرة وتعهده وتغذية الحيوانات والطيور (كدية البراطيل بفاس) وذلك بالإضافة الى تأسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والشبه هنا ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (١)

ويمتاز المغرب ومصر بصندوق حبسى للقرض بدون فائدة وكان موجودا بفاس وأهم ما يسترعى نظرنا فى هذا الهيكل المحكم ، هو ان الوقف لم يتخلف تقريبا فى اقليم من الاقاليم التى غزاها الاسلام ، بمبادئه السامية ، وتشريعاته المثالية ، فحتى فى اقصى بخارى والتركستان تفرغت الهيئات الحبسية ، وتضخمت مواردها طوال قرون الى ان انهزم التتر فاغتصب الروس هذه الاموال واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان قرر الحزب الشيوعى عام ١٩٢١ تأميم الاوقاف - باستثناء ما يمس المساجد - وتسليم الاراضى الحبسية الى الفلاح المسلم وغير المسلم ، وتحظير كل وقف جديد وفى الافغان أمم الامير عبد الرحمن الذى توفى اوائل القرن الميلادى الحالى قسما كبيرا من الاوقاف ، وادرجها فى ميزانية الدولة ، واصبح الائمة والمؤذنون يحتسبون اعمالهم لله بدون مقابل ، الا اكتتابات المصلين ، وتساهم الحكومة والبلديات فى تعهد المساجد اما فى اندونيسيا فانها تمتاز بظاهرتين اثنتين : اولاقلة الاوقاف العقارية نظرا لانعدام الملكية الفردية فى معظم النواحي ، وشیوع ملكية الجماعة او القرية ، بحيث لا يملك الافراد حق التوقيف . ثانيا : لا توجد ادارة مركزية للاوقاف

وفى الباكستان تكثر الاوقاف خاصة فى القسم الشرقى الذى هو البنغال ، حيث يشرف رجال الافتاء على الاوقاف باعانة لجنة يشارك فيها مندوب عن الحكومة اذا كان الوقف مهما . ورجال الدين مستقلون عن السلطات العمومية ولا توجد اية هيئة مركزية تنسق المسائل الدينية والواقع ان دولة الباكستان الفتية ما زالت فى طور الاختمار والاصلاح فقد اصدر المجلس التشريعى فى البنجاب ، اوائل ١٩٥٢ قانونا ينص على صرف ريع الاوقاف (لصالح التقدم والصحة وضمان انفاق موارد الاحباس فيما وضعت لاجله) .

وفى اليمن يرجع امر الوقف لبيت المال الذى يتحمل نفقات المؤسسات الدينية ، اما الاوقاف المعينة للاضرحة ، فان عليها نظارا خصوصيين يعينهم جلالة الامام ويسمون «نظار التراب» وفى يوغوسلافيا كانت الاوقاف خاضعة منذ الاحتلال النمساوى عام ١٨٨٤ الى ادارة تتركب من مسيرين عن الحكومة ، ولجان استشارية ، وكانت الموارد تنفق بالاخص على

(١) ذكر صاحب جنوة الاقتباس أن كثيرا من أوقاف المساجد أدخلها أهل فاس فى منافعهم وحسبوها من أموالهم أيام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة الغرناطى فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء فى ذلك ومحاسبتهم فابرزت المحاسبة ٨٠ ٠٠٠ دينار (ص ٤٢) وقد ذكر ميشوبيلير فى المستندات المغربية (عام ١٩٠٧ - ص ١٩٢) أن الاحباس احتفظت بإدارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذى قرر ضمها الى دوائر المخزن والغى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم فى كل مدينة بناظرين يعينهما السلطان وقد حاز مولاي حفيظ عند ما بويع بمراكش خمسين الف فرنك من احباس هذه المدينة

المعاهد الدينية . على ان انقلابات شتى طرأت فى العقود الاخيرة الى ان صدر فى ٥ نوفمبر ١٩٣٦ - دستور الجامعة الاسلامية - بيوغوسلافيا الذى ضمن للجالية المسلمة فى البلاد استقلالا دينيا يكاد يكون تاما داخل البلاد وخارجها ، فاصبحت هذه الجامعة منذ ذاك تتصرف فى الاوقاف لها ميزانيتها المستقلة وادارتها الخاصة .

والى الاحتلال الالماني عام ١٩٤١ كان هنالك مجلسان اقليميان يتركبان من ممثلين جهويين ، ينتخبون لاربعة سنوات من طرف جميع المسلمين الذكور البالغين ، ويجتمع هذان المجلسان مرتين فى السنة للمصادقة على الميزانية ، وعلى القرارات الخاصة بالاوقاف ، وينتخب كل مجلس لجنته التنفيذية والادارية وفى كل اقليم وكل قرية تسيرون الوقف مجالس ينتخب اعضاؤها لاربعة سنوات . ويرى الاوقاف هام فى يوغوسلافيا ، لان معظم المدارس الاسلامية تعيش منه . وفى عهد تيتو صارت لجان شعبية خاصة تتعهد المساجد . ولجنة العاصمة هى التى قامت بترميم مسجد بلغراد الذى تضرر من الغارات الالمانية

وفى المملكة العربية السعودية لا توجد ادارة للوقف الا فى الحجاز حيث تشرف ادارة عامة على شؤون الوقف ، وتصرف ريعه على لمساجد ، وعلى الائمة والمؤذنين الذين تعينهم الادارة المذكورة باقتراح من قاضى القضاة . وهذه الادارة التى لها فروع فى جدة والمدينة والطائف يوجد مركزها بمكة وتمتع باستقلال مالى ويمنحها الملك اعانة خاصة عند الاحتياج . وهنالك نظار للاوقاف المعينة كما فى المغرب . كما تتشابه فى البلدين مسطرة كراء الاملاك الحبسية حيث يوجب القانون المزداد العلنى ويحصر المدة فى ثلاث سنوات على الاكثر - يمكن تجديد هذه المدة فى المغرب لست ثم تسع - .

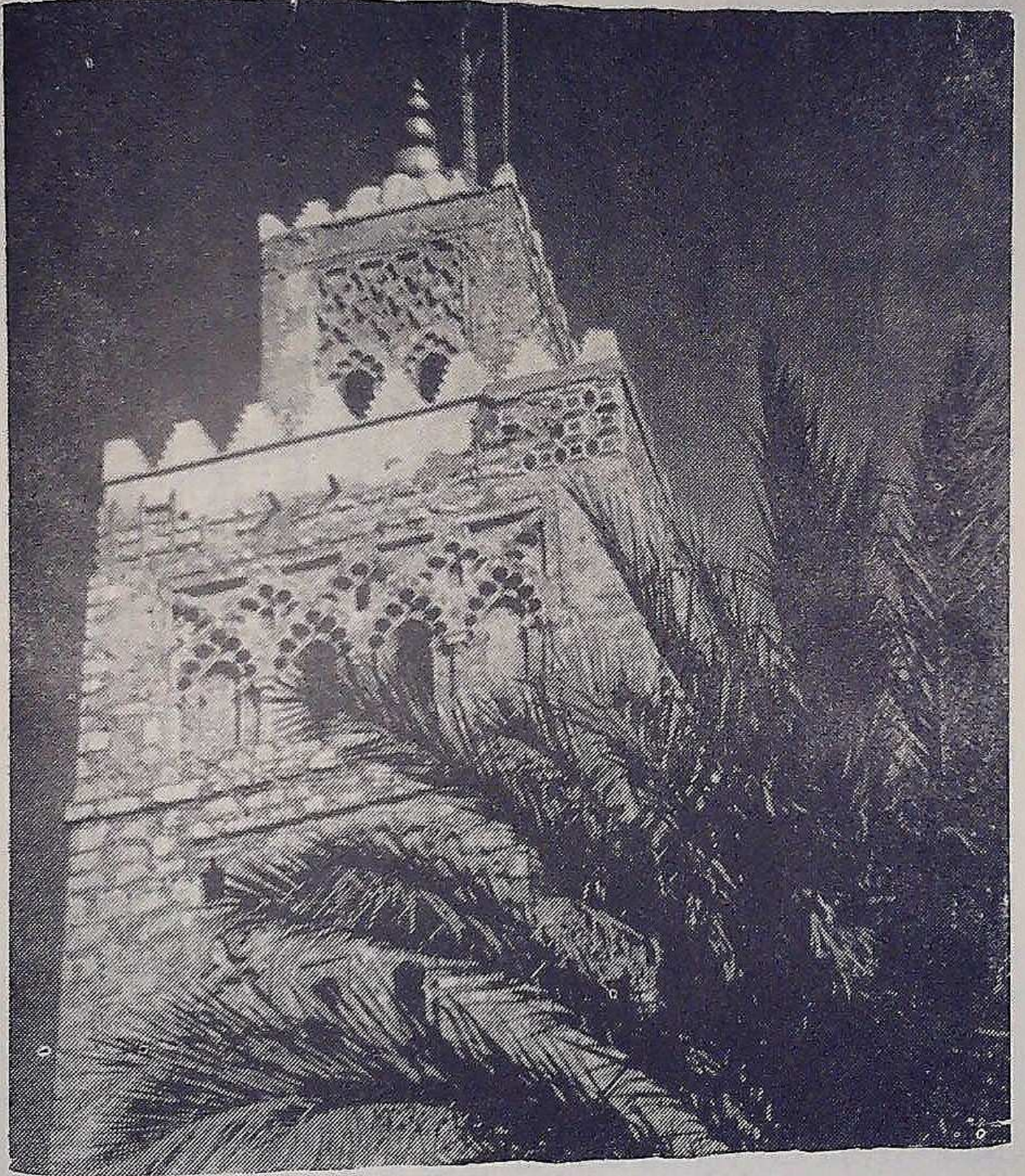
وفى تركيا الفت الجمهورية الوقف المعين وفرضت مراقبة دقيقة على الوقف العمومى الذى ارتبط مصيره بالشؤون الدينية وفى عام ١٩٢٤ صدر قانون انشئت بموجبه وزارة للشؤون الثقافية تابعة لرئاسة الحكومة يشرف المسؤول فيها على المساجد والمعاهد الدينية كما الغى نفس القانون وزارة الاوقاف وحدث ادارة عامة مهمتها تنظيم الاوقاف بصورة تتلاءم مع المصلحة الحقيقية للامة .

وفى مصر كانت نظارات الاوقاف مبعثرة الى ان وحدها محمد على تحت اشراف ادارة عامة ولكن الاصلاح لم ينجح الى ان أعاد الكرة الحديوى عباس الاول الذى قصر اختصاصات الادارة المذكورة على مراقبة سير النظار واستعزال القاضى لكل من ثبت عليه اهمال او رشوة منهم . وقد أسس الحديوى اسماعيل وزارة الاوقاف وعوضها الحديوى توفيق بادارة عامة تخضع للسلطان مباشرة وذلك مخافة تدخل انجليزى فى شؤون الوقف اذ ظل تابعا للحكومة ابان الاحتلال . وقد أعيد نظام وزارة الاوقاف عام ١٩٤٦ كما اصبح المجلس الاعلى للاوقاف - متركبا من وزير الاوقاف كرئيس وشيخ جامع الازهر ووزير الاشغال العمومية ووزير الصحة ووزير المالية ورئيس لجنة النزاعات التابعة للدولة ونائب كاتب الدولة فى وزارة الاوقاف ومفتى مصر . وهذا المجلس هو الذى يتكفل بتحضير الميزانية وتقرير الاعتمادات والمصادقة على اعمال الترميم والبناء والتجديد والاقتناء والبيع والعقود التى تزيد قيمتها على ١٥٠٠ جنيه وللوزارة مصلحتان : فى مكة والمدينة لمراقبة احباس الحرمين وقد بلغت مداخيل الاحباس المصرية ١٨٠ ١٦٣ ٤ جنيه ومصاريفها ٤٢٠ ١٩٢ ٣ جنيه عام ١٩٥٠ - فى حين ان مداخيل الميزانية العامة ومصاريفها تبلغ ٨٠٠ ١٥٧ ١ جنيه - وتتعهد الوزارة بعض المستشفيات وملاجئ العجزة والايتماء حيث كانت تتبنى فى القاهرة وحدها ٦٠٠ يتيم كما تخول منحا لطلبة الازهر ومنذ عام ١٩٤٣ اصبحت تقرض ذوى الحاجات بدون فائدة

وفي سوريا تشرف على الوقف ثلاث هيئات ، هي الادارة العامة للاوقاف ومجالس منتخبة خاصة في المحافظات والنواحي والمجلس الاسلامي الاعلى الذي يوجد مركزه في العاصمة . اما مجالس المحافظات فانها تتركب من ستة أعضاء فيهم عالم وتاجر وملاك ومتمول ومهندس وخبير فني ومحام وكلهم منتخبون وقد بلغت ميزانية عام ١٩٤٩ ، ٢١٠٠٠٠٠٠ جنية سوري وقد منحت الدولة للاوقاف في نفس السنة ٥٤٤٠٠٠ جنية .

وفي لبنان يوجد وضع خاص نظرا لتشعب الملل والنحل هناك . ولكن حكومة لبنان اقتبست عام ١٩٤٧ من النظام المصري

وفي الاردن تأسست عام ١٩٤٦ ادارة مركزية للاوقاف مستقلة عن الهيئة المركزية



منارة الكتبية بمراكش

للشؤون الدينية ، وهي تابعة لرياسة الوزارة ، وتتركب من مجلس اعلى ، ومدير عام ومراقب عام للحسابات وامين وموظفين ولجن محلية

وفى العراق كذلك تشرف على الاوقاف هيئة يرأسها مدير عام ويعينه مفتش عام مكلف بالشؤون المادية والادارية ، الا ان لجان هذه الادارة العامة المنظمة للاوقاف ، تتركب من مديرين محليين فى ١٤ ولاية ومأمورين للاوقاف . وللاوقاف ميزانية خاصة يصادق عليها البرلمان مثل الميزانية العامة

وقد بلغت ميزانية الاوقاف ٤٧٢٠٠٠ دينار عام ١٩٥١ بينما بلغت الميزانية العامة ٢٥ مليون دينار

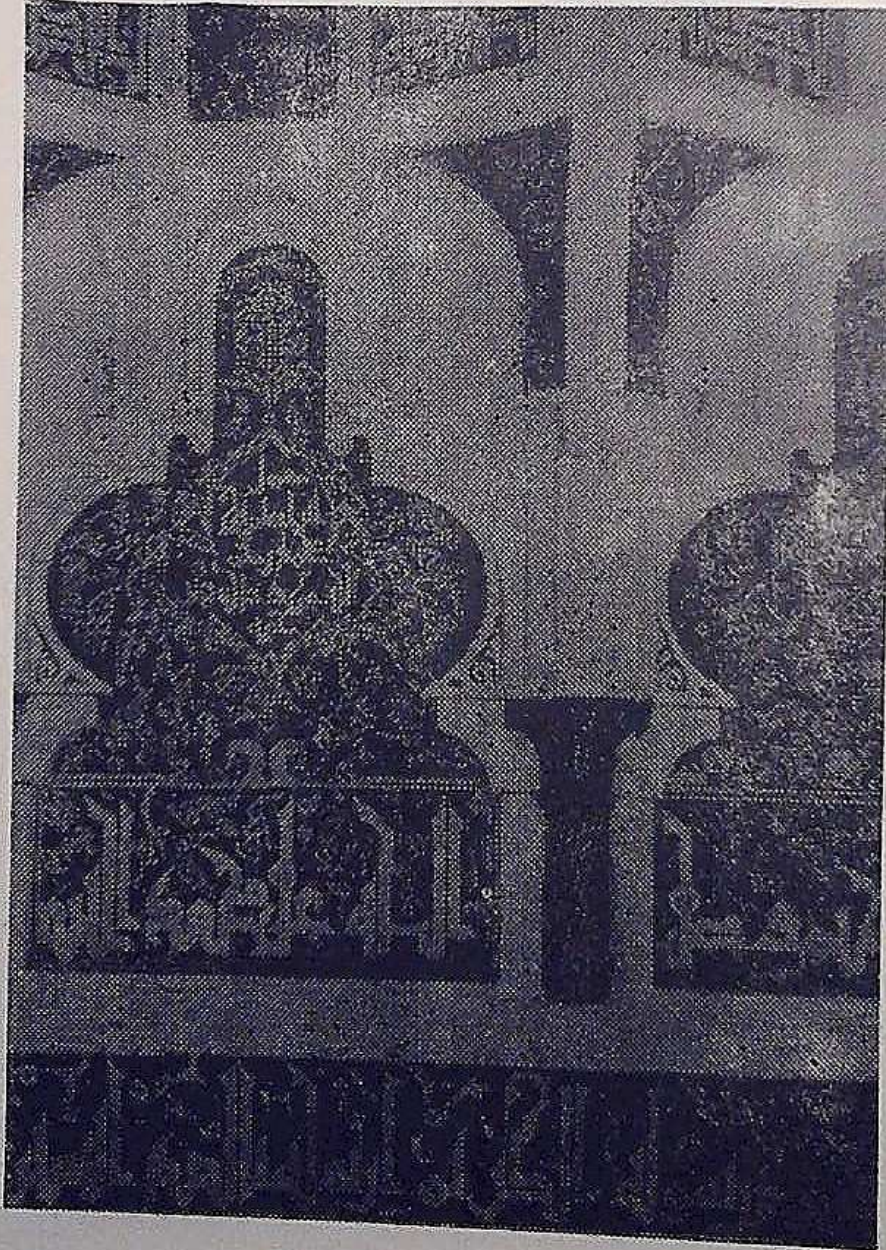
وفى ايران توجد بوزارة المعارف ، ادارة عامة للاوقاف ، وفى الاقاليم والولايات مديرون وتندرج ميزانية الاوقاف فى ميزانية المعارف العمومية ، ويراقبها المفتشون العامون التابعون لهذه الوزارة

اما فى المغرب العربى ، فان الانظمة تتسم كذلك بطوابع خاصة ، ففى طرابلس توجد ادارتان جهويتان للاوقاف ، وفى كلا الاقليمين مجلس يتركب من رئيس وثلاثة مستشارين ، ومدير ، تعينهم السلطات الحكومية بعد استشارة القاضى وتتصرف هذه المجالس فى

شؤون الاحباس تحت مراقبة المحاكم الشرعية ، ولكل مجلس ميزانية مستقلة ، تصادق عليها الحكومة وتراقب تنفيذها مصالح المالية الحكومية

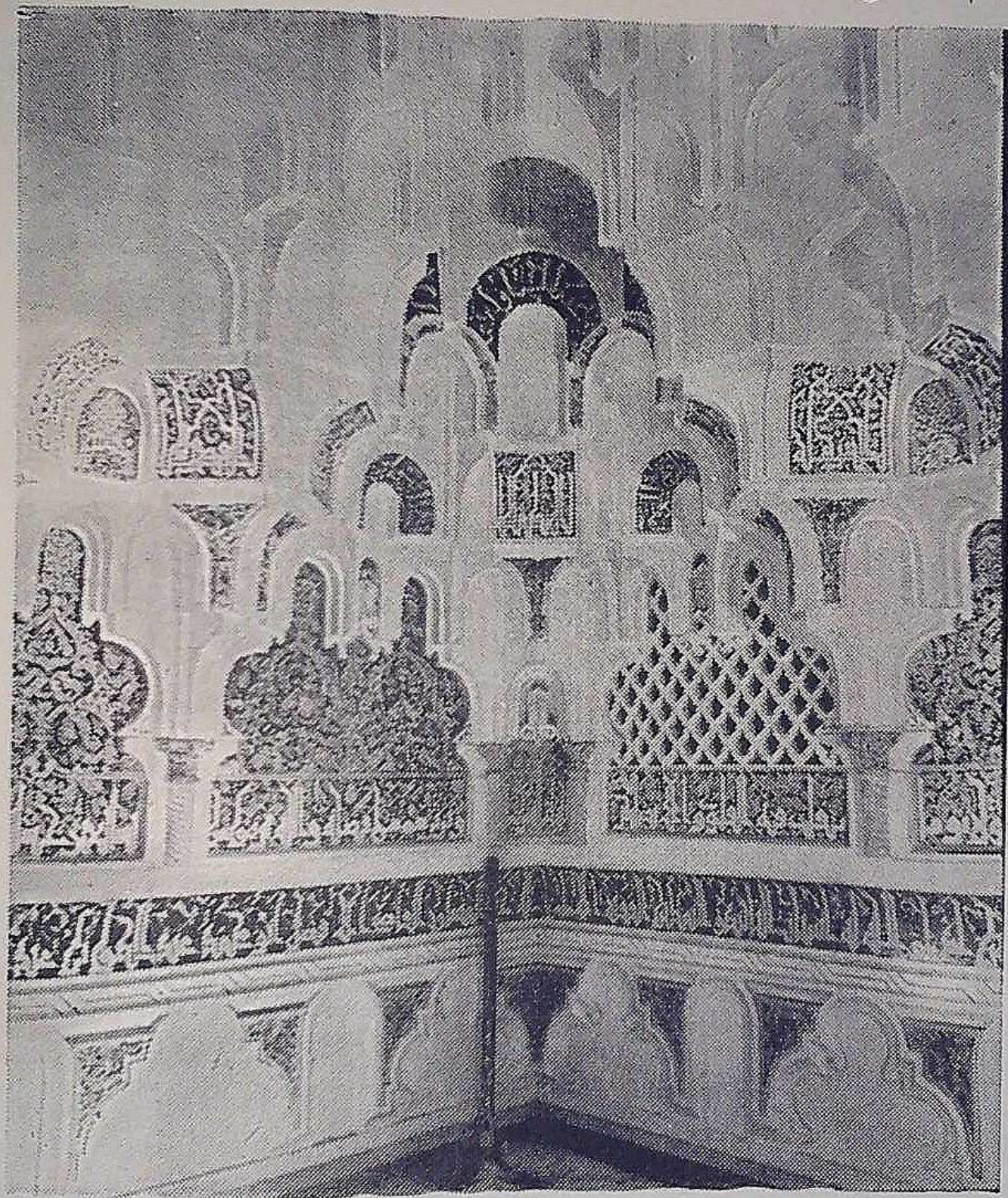
وفى الجزائر (الشمالية على الاخص) ادمجت الاملاك الحبسية ضمن املاك الدولة بعد الاحتلال واصبحت الدولة الفرنسية تعتبر نفسها المحط النهائى الذى ترجع اليه الاوقاف المعينة بعد اندراس العقب عليهم . ورغم ما تقرر عام ١٩٤٧ من فصل الشؤون الدينية عن شؤون الدولة ، فانه لم يحدث لحد الآن اى جديد فى الموضوع

وفى تونس ادمجت الاوقاف فى ميزانية الدولة بعد اعلان الاستقلال وكانت ادارة الاحباس تتركب من مجلس ادارى وادارة مركزية ، وادارة محلية ومتصرفين فى الاوقاف . والكل يخضع لمراقبة المجلس الاعلى للاحباس



جانب قبة مقربة

وكان يشرف على الادارة الحبسية منذ ١٩٤٤ رئيس المجلس الادارى ، الذى يعينه نائبان ، احدهما يسير المصالح الادارية والآخر المصالح المالية وينقسم الجميع الى عدة مكاتب مثل المكتب العقارى ، ومكتب النزاعات ومكتب التسيير ومكتب الزياتين ومكتب الاحباس المعينة ، ومكاتب الحسابات والميزانية ، والاحصاء والتوزيع والاصلاحات والترميمات وكانت الادارة المحلية تحتوى على ١٤ مفتشا او نائبا يسكون سجلات الاملاك الحبسية ومن هذه العجالة . تتضح الاهمية القصوى ، التى تتسم بها الاوقاف فى مختلف مناحى العالم الاسلامى



ركن من قبة مقربصة بالقرويين

الصناعة التقليدية

يلد لنا - والمغرب الجديد ساع في تطوير الصناعة التقليدية وانعاشها - ان نعطي صورة عن ازدهار هذه الصناعة في مختلف العصور وعن مصادر اقتباسها ومدى تغلغلها في شتى الأوساط الاجتماعية التي كانت تجد فيها موردا خصباً للعيش

ذكر الحسن بن محمد الوزان في وصف إفريقيا الذي حمله السمينيون في كتابه «المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر الميلادي» المطبوع عام ١٦٠٦ أن المغرب كان ينقسم في عصره من الوجهة الصناعية إلى خمس نواح

(١) ناحية فاس التي تشمل حتى الريف وتوجد بهذه الناحية الأسلحة الغليظة المصنوعة



نموذج من صناعة الخزف

بلاخص في الجبال المجاورة في الهبط والريف وتازة وديب الصوف من زرهون وبنى يازغة التي هي في مثل ليونة الحرير زد على ذلك الأسلحة والسكاكين والسيوف المصنوعة بمدينة فاس بالحديد المجلوب من مناجم بني سعيد المجاورة أو الاعوان أو الجنوب) والفحم والمصنوعات الخشبية (خشب الريف) والخزف (من مزدغة) والصابون (وهو من اختصاصات بني مزكلدة) ويزرع القنب والكتان في أحواز فاس التي تصنع منه الجبال والمنسوجات فتوزعها على جميع أنحاء المغرب ولكن مدينة فاس تجلب من النواحي النائية الجلود التي تصنع منها أجهزة الفرس والاحذية

وانواع التجليد بعد الدباغة لما تجلب النحاس لصنع الاواني والتوابل التي تركزها من اجل
اصدارها الى شمال البلاد ثم الحراير (تربي دودة القز في احواز فارس) والقطن. لصنع
القطنيات (ص ٩٦)

٢) ناحية الهبط الساحلية الى حاحة فقد دمرها الغزو البرتغالي فأقل نجمها كعامل
صناعي مهم في القرن العاشر الهجري فقد كانت ناحية سبته تصنع اواني النحاس المنحوتة
والمرصعة وتصدرها حتى الى ابلاد الايطالية ولكن الحس الوزان لم يشر الى غير القطنيات
في العرائش والقصر الكبير وسلا حيث تتوافر دكاكين الافاويه وأدوات الخياطة التي
تستعملها النساء ، وفي ناحية امسنا حيث الاسكافيون والحدادون وصناع الجوارب



معمل بسيط للنسيج يشتغل فيه الاطفال

والصباغون والخزافون وكانت هذه الناحية على وجه العموم مركزا تجاريا للبرتغال الذين قضوا على مصانعها وصاروا يمدونها بالثياب القطنية والصوفية بعد أن كانت اصواف المدينة (مدينة بوالاعوان ؟) مشهورة وقد ذكر الادريسي أن القطن موجود في تادلا وأشار الحسن الوزان الى وجوده في سلا والعرائش (ماسينيون - ص ٨٨)

وقد زرع القطن بالمغرب في أرباض كبريات المدن منذ العصور الوسطى وقد شجعت انجلترا رعاياها عام ١٨٦٤ لزراع القطن في ناحية الجديدة فبلغ منتوجه عام ١٨٦٥ أربعمئة قنطار وتأسست في نفس المكان مصانع لمعالجة هذا القطن الحريري الشبيه بالقطن الامريكي (النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب رقم ٥١)

(٣) ناحية هسكورة وتادلا حيث تركزت الصناعة الاهلية وراء شواهيق الاطلس ففي هسكورة تكثر مناسج الصوف والسروج وفي تادلا البرانس السود (المراكشية) والطواكي ومع ازدهار الصناعة في هذه الناحية كانت تجلب من فاس المنسوجات وادوات الخياطة

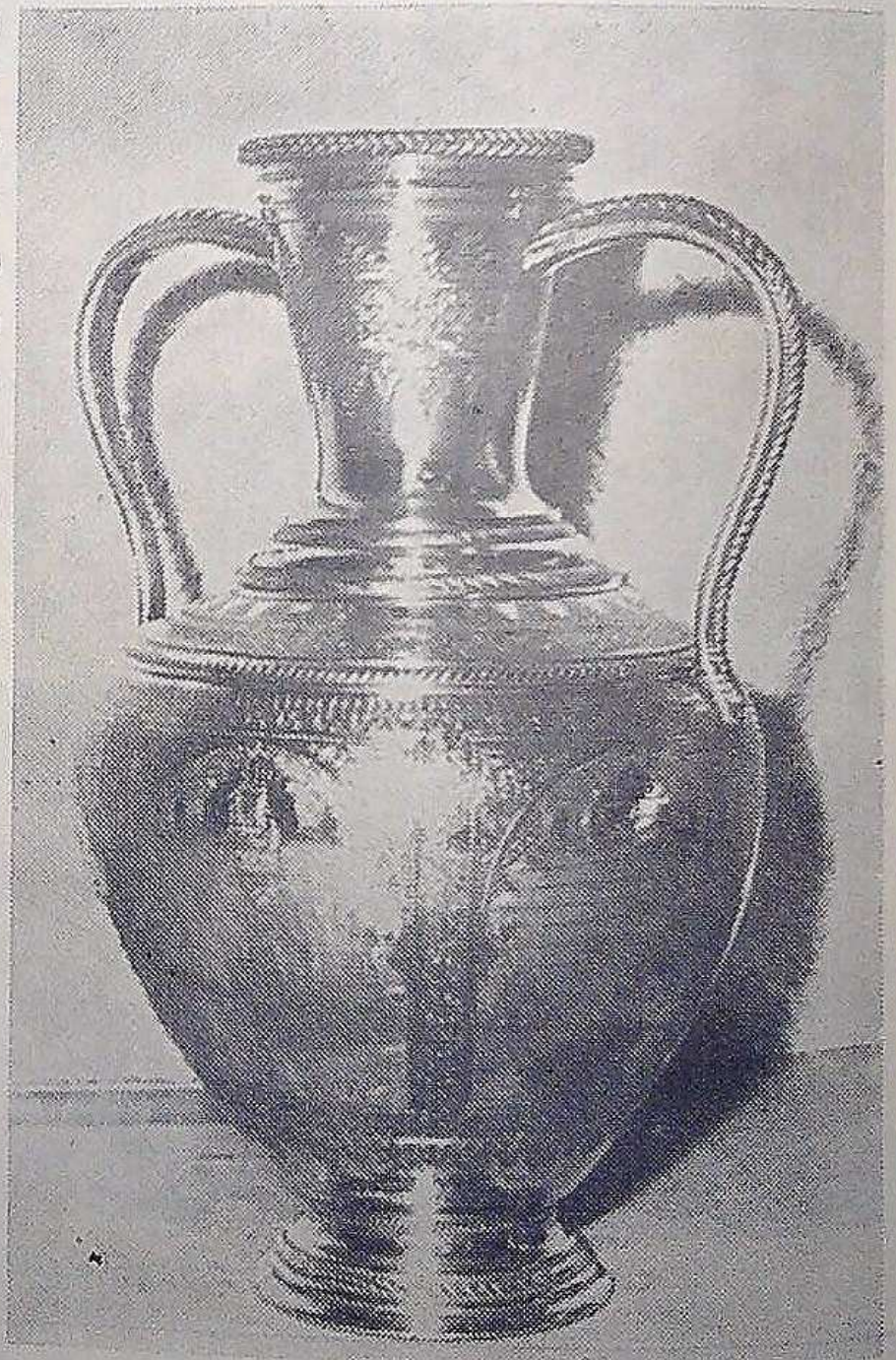
والسكاكين والجلود بل كانت تادلا تفضل سروج فاس على سروج هسكورة .

(٤) ققع سوس حيث يصاغ الذهب والفضة وتصنع المواد الجلدية والثياب ولكن البرتغال صارت تنافس المصانع الوطنية بعد احتلال اكادير التي حررها السعديون في القرن العاشر

(٥) الاودية العليا في زيزو كير حيث يستورد السكان مصنوعات فاس اللهم الا ما كان من الحديد والانسجة الصوفية الجميلة التي تصنع فجيج خير أنواعها (نوع ميرينوس الحريري) والجلود المحضرة في تدغة ويصدر السودانيون الى هذه الناحية العطنيت السوداء (ص ٩٦ الى

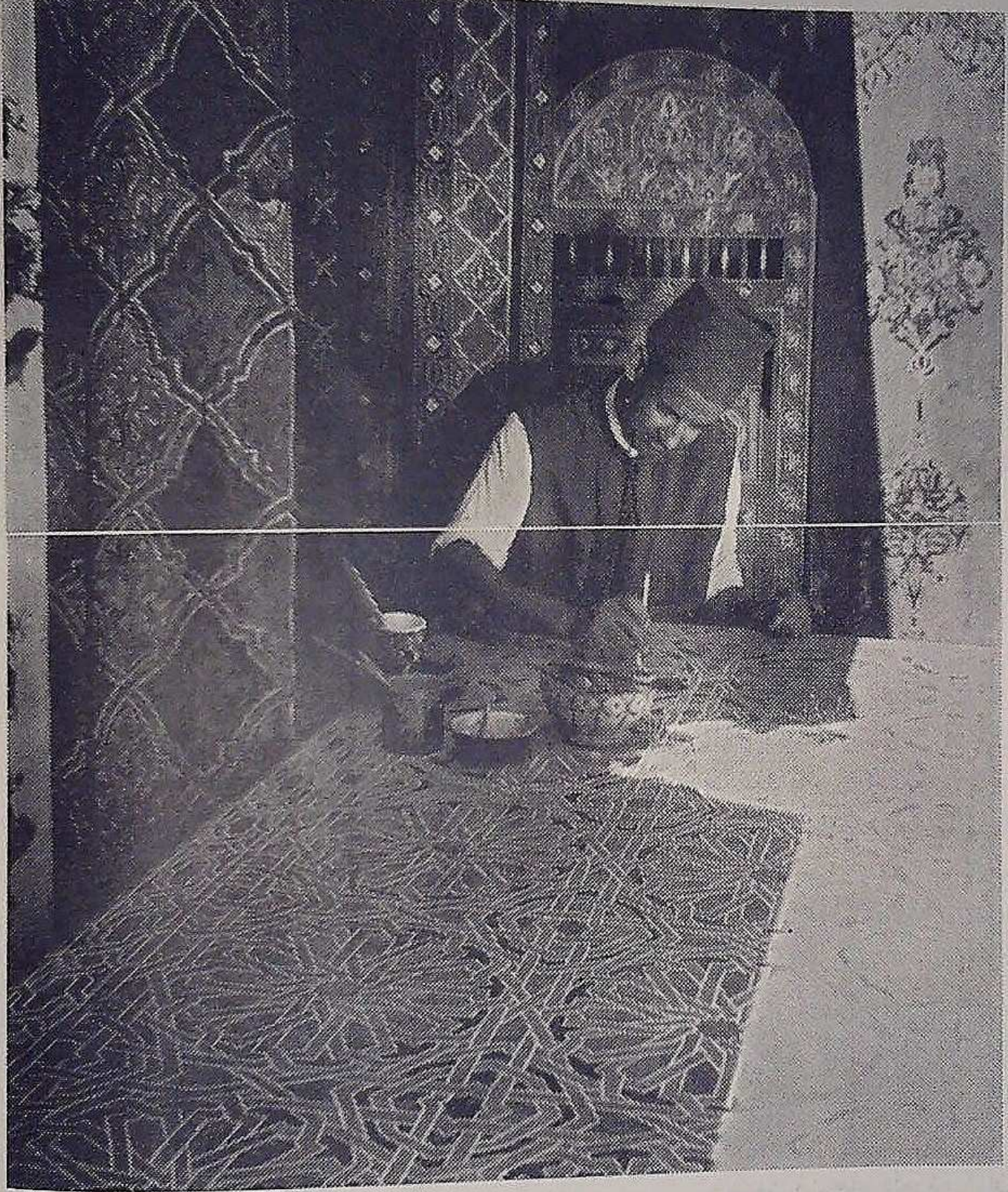
(٩٩)

ويتبين من هذا العرض ان الصناعة كانت مزدهرة في مختلف نواحي المغرب حتى القاصية منها والبدوية .



ءانية من نحاس للازهار

وكانت أوجه النشاط تختلف باختلاف الاستعدادات الطبيعية للناحية وتبعاً للمؤثرات الاقتصادية العامة التي تتطور أو تنقلص مع العصور
ففي خصوص السكر مثلاً ذكر البكري (ص ١٦١) (القرن الخامس) أن قصبه كان موجوداً في أيكلى قاعدة بلاد السوس ومنها يحمل إلى جميع أنحاء المغرب ويصنع منه الشيء الكثير حتى
ص يباع القنطار منه مثقالين (١)



نقش الخشب وتلوينه (الاثاث الابواب - النوافذ والسفوف)

(١) كانت مياه وادي سوس ديمماً تجمع لها لسقي مزارع قصب السكر في سوس الذي كان هو السوق الأعظم لتجارة السكر في باقي أنحاء المغرب وفي السودان (دوكامبوس ص ١٦٩)

ويعالج في نفس المدينة النحاس المسبوك «
على ان الروح الصناعية وكذلك التجارية كانت سارية في السوسيين وأهل الجنوب
عموما منذ القديم فقد ذكر البكري أيضا (ص ١٦٣) ان أهل السوس واغامت اكثر



انموذج للزرابي المغربية

الناس تكسبا واطلبهم للرزق
يكلفون نساءهم وصبيانهم
التحرف والتكسب»

وذكر صاحب المعجم ان
مدينة اغامت يدبغ بها جلود
تفوق جودة صنعها جلود الدنيا
وذكر الادريسي (القرن
السادس) (وصف افريقيا ص
٤٣) ان أهل أغامت « املية
تجار مياسير يدخلون الى بلد
السودان بأعداد الجمال الحاملة
لقناطر الاموال من النحاس
الاحمر والملون والاكسية وثياب
الصوف والعمائم والمآزر
وصنوف النظم من الزجاج
والاصداف والاحجار وضروب
من الافاوية والعطر وآلات
الحديد» (١)

وذكر ياقوت في المعجم
(القرن السابع) ان لساء
سجلماسة يدا صناعا في غزل
الصوف فهن يعملن منه كل
حسن عجيب بديع من الازر
تفوق الذي بمصر يبلغ ثمن
الازار خمسة وثلاثين دينارا

(١) لاحظ دو كامبو (مملكة تنهار ص ١٢٣) ان المغرب كان يصدر الى السنغال الأحذية من نوع البلغة
والى الجزائر زرابي الرباط والدار البيضاء وحيالك وبلاغي فاس علاوة على البغال والافراس
وزرابي الرباط مشهورة ، باستقرار الوانها ويصنع منها نحو اربعة آلاف في السنة
تصدر ثلاثة ارباعها الى اوربا و زرابي الدار البيضاء اقل قيمة منها من حيث اللون وذكر
دو كامبو في محل آخر (ص ٢٣٦) ان عدد مصانع الزرابي في سلا والرباط خمسون ودور الدبغ
٤٠ ودكاكين صنع البلغة ٢٥٠

وأكثر ويعملن منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغنها بأنواع الأصباغ» (ج ٥ ص ٤١)
 وكانت الصنائع تؤدي القبالات (أي الضرائب) : قال الادريسي (وصف إفريقية ص
 ٤٥) : « كانت أكثر الصنوع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان (السفنج)
 والصابون والصفر والمغازل وكانت القبالة على كل شيء يباع فلما ولي المصامدة قطعوا
 القبالات »

وتعتبر مدينة فاس عاصمة الصناعة التقليدية منذ العصور الأولى وقد وصف الحسن الوزان
 في القرن العاشر مصانعها (ما سينيون ص ٢٢٨) فلاحظان بالضفة اليمنى لوادي فاس
 كانت تقوم مصانع التغذية (باستثناء المجزرة) واللباس والبناء بينما كانت صناعة
 الجلود والمعادن تعالج خارج عدوة الاندلس *



آنية من خزف أزرق تمثل الفن الفاسي

وتجلب للصفة اليسرى المواد المصنوعة بفاس أو خارج فاس في أهراء وتباع بالمزاد لتجار التفصيل .

أما الحرف المتوافرة بفاس فقد أعطى مختلف الرحالين والمؤرخين وصفا شاملا عنها في شتى العصور وهي لا تكاد تقل عنها في أيام ازدهارها إلى العقود الأخيرة من تاريخنا الحديث قبل مزاحمة الصناعة الحديثة لها (راجع ماسينيون من ص ٢٣١ إلى ٢٣٤) .

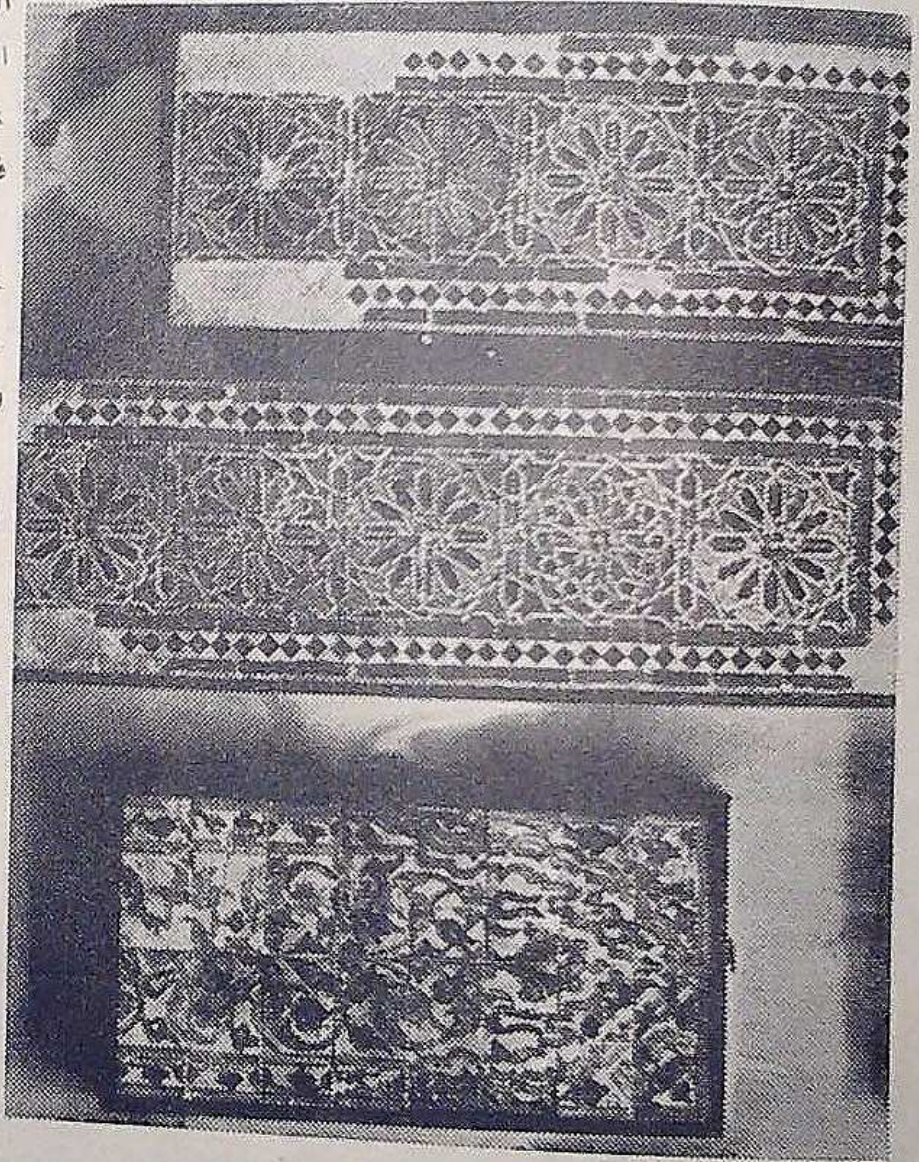
وأما الصناعة الفاسية الكبرى فقد كانت متركزة حول قنوات ساقية مصمودة ووادي فاس غربى المدينة وجنوبى غربها وكان بها ٥٢٠ معملا للنسيج (الدراسة) تستخدم ٢٠ ٠٠٠ عامل و ٣٦٠ طاحونة (لم يبق منها عام ١٩٠٤ سوى ١٦٠) يعمل فيها نفس العدد من

العمال والحمالين و ٥٠ من دور التصبين (القصارين) زيادة على المائة الموجودة على الوادى قرب بوجلود

وكان بجانب حارة الجذمي خارج المدينة ربض الكيفان حيث الصفايحية والتجارون والبناءون

وذكر ياقوت (المتوفى عام ٦٢٦هـ) فى المعجم (ج ٦ ص ٣٣١) ن بفاس ٦٠٠ رضى لا تبطل يلا ولا نهارا وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها الا غرناطة

وقد ذكر الجزائى (زهرة لاس ص ٣٣) ان فى زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين كان عدد الاطرزة بفاس ٣٠٩٤ ودور الصابون ٤٧ ودور الدباغة ٨٦ والصباغة ١٦١ وتسكيك الحديد والنحاس ١٢ والزجاج ١١ وكوش الجير ١٣٥ وافران الخبز ١٧٠ ١



نماذج من الزليجى الفاسى

وأحجار عمل الكاغد ٤٠٠ داخل المدينة ودور الفخارة ١٨٠ خارج المدينة
وقال المراكشى فى المعجب (القرن السابع)
«ما اظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معاش وأخصب جهات
وذلك انها مدينة يحفها الماء» (ص ٢٢١)
ولعل ذلك راجع لكون فاس كانت مهدا لازدواج الحضارتين الاندلسية والمغربية

فقد ذكر دوزي ان ثمانية آلاف عائلة قرطبية (١) هاجرت الى فاس حيث وجدت جالية فيروانية قد سبقتها الى المدينة (ثلاثمائة عائلة) وكان العرب عملة وتجارا بينما كان الاندلسيون يشتغلون بالاعمال الفلاحية (تاريخ مسلمي اسبانيا ص ٣٠١) وفي نفس الوقت هاجر خمسة عشر الف قرطبي الى الاسكندرية فاحتلوها ثم اخرجوا منها فاتجهوا الى جزيرة قريطش حيث اسس عمرا بلوطي مملكة استمرت الى عام ٩٦١ ففتح اليونان الجزيرة (ص ٣٠١)



ونقل المقرئ عن ابن غالب (النفح ج ٢ ص ٧٦٤) ان اهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الاقصى مع افريقية فمال اهل البادية الى ما اعتادوه فاستتبطنوا المياه وغرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء وعلموا اهل البادية اشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الخيرات ومال اهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها «ففق اهل الصنائع اهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين ايديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في اقرب مدة وافرغوا فيه من انواع الحنق والتجويد»

وفي عام ١٠١٩ خرجت الوف من اهل الاندلس بفاس والوف بتلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا اموالهم وهذا في تلمسان وفاس والذين خرجوا بنواحي تونس سلم اكثرهم وكذلك بتطوان وسلا

فنان من القصيبة (الاطلس الاوسط) يطرز سرجا

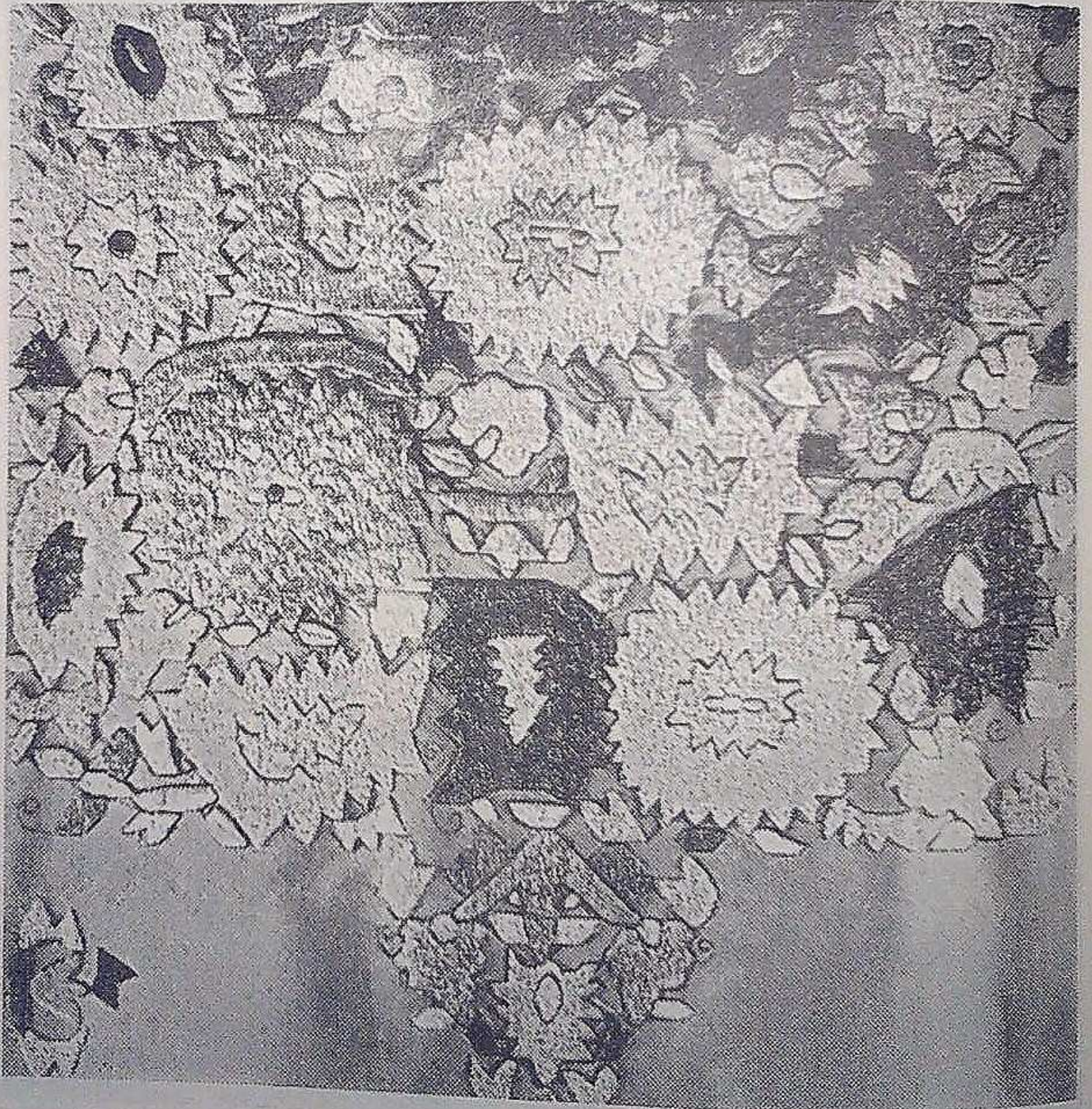
(١) قال عبد الملك الوراق كان عدد العرب الوافدين من الاندلس الى عدوة الاندلس بفاس جما غفير ، يقال اربعة آلاف اهل بيت (الاستقصا ج ١ ص ٧٣)

وفسحة الجزائر ووصل منهم جماعة الى قسطنطينية العظمى والى مصر والشام» (نشر المثنى عن النفج ص ١٠١)

وقد ظهر اثر ذلك حتى فى تونس فان جانباً من الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلس نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم الحفصيون (حسن حسنى عبد الوهاب فى رسالة له بالفرنسية)

وقد ذكر المقرئ فى النفج (ج ١ ص ١٠٤) فى حديثه عن الصناعة فى الاندلس ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهدان يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم فى نهاية القبح»

وكان النظام الاقتصادى محكما نوعا ما فى الاندلس من ذلك نظام التسعير ومراقبة الاثمان فهذا اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزاران يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة (النفج ج ١ ص ٢٠٣)



نوع من التطريز الفاسى

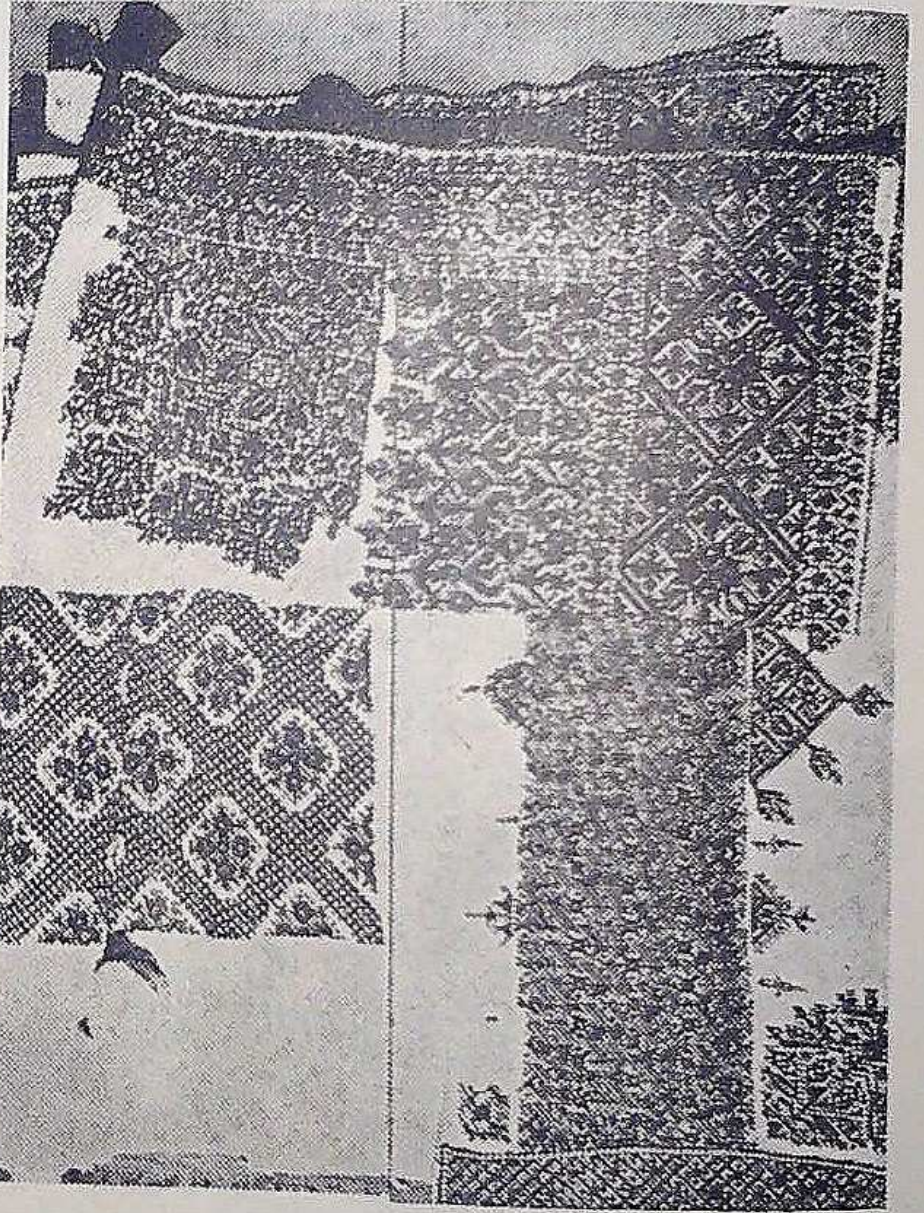
ومعلوم ان المحتسب هو الذى كان يسير دواليب الحياة الاقتصادية فى كل مدينة فهو الذى يشرف على الخناطى ويراقبها ويراقب الاسواق والمكاييل والموازين وهو الحكم الذى يرجع اليه فصل الدعاوى بين التجار والصناع والمحترفين وبالجملة فقد كانت له السلطة الكاملة فى ميدان التجارة والاقتصاد وقد تحدث م. باليز (النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب فى عدى ٤٩ و ٥٠) عن نظام الخناطى بالمغرب فلاحظ انه كان يتسم فى جميع العصور بطابع الحرية حيث أن المخزن كان يحترم مبدأ الحرية التجارية قبل صدور ظهير ١٩١٧ القاضى بتنظيم البلديات وفى فاس بالخصوص كان هذا النظام حرا جدا وانما فسد بالاختكاك بالغرب وكثرا ما كان ملوك المغرب يهتمون برجال الصناعة ويعملون على تنمية مواردهم وضمان مصادر



تجار فى ولماص يصنع قصعه

لمنتجاتهم فقد بعث مولاي زيدان عملاء الى أوروبا للدعاية للمنتجات المغربية وعمد في نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاخرة الاجنبية فحظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية وكان للانديلسيين أثر في تكييف الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب لاسيما في المراكز التي استوطنوها حيث اختلف التأثير باختلاف هوية المهاجرين وطبيعة المهجر واغرب ما في الامر أن الاثر الفلاحي غلب مثلا في سلا بينما تأثرت الرباط بالطابع الارستقراطي والصناعي وكانت في الحقيقة ثلاث مدن: قصبة الاوداية والرباط وسلا وان كان بعض المستشرقين يطلقون سلا الحديثة على الرباط في حين سمي الادريسي سلا الحالية بسلا الحديثة (وصف

افريقيا ص ٤٨) حيث أشار الى ما كان فيها قبل بناء الرباط من «أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا وبها كروم وغللات وبساتين وحدائق ومزارع ومراكب أهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم» .



وقد ذكر كايبي أن في عام ١٦٣٦ استولى اندلسيو سلا الحديثة (يقصد الرباط) على القصبة وطرّدوا أهلها الى سلا أو الجزائر وأصبح عبد الله بن علي القصري الحاكم الوحيد فطمح الى حكم سلا فبنى قنطرة أمام حسان (لعلها في مكان القنطرة القائمة الآن) لنقل مدافعه وجنده فاستنجد السلاويون بالعيشي فخلصهم وانجلترا هي التي قدمت هذه القنطرة في نفس

الطرز الفاسي

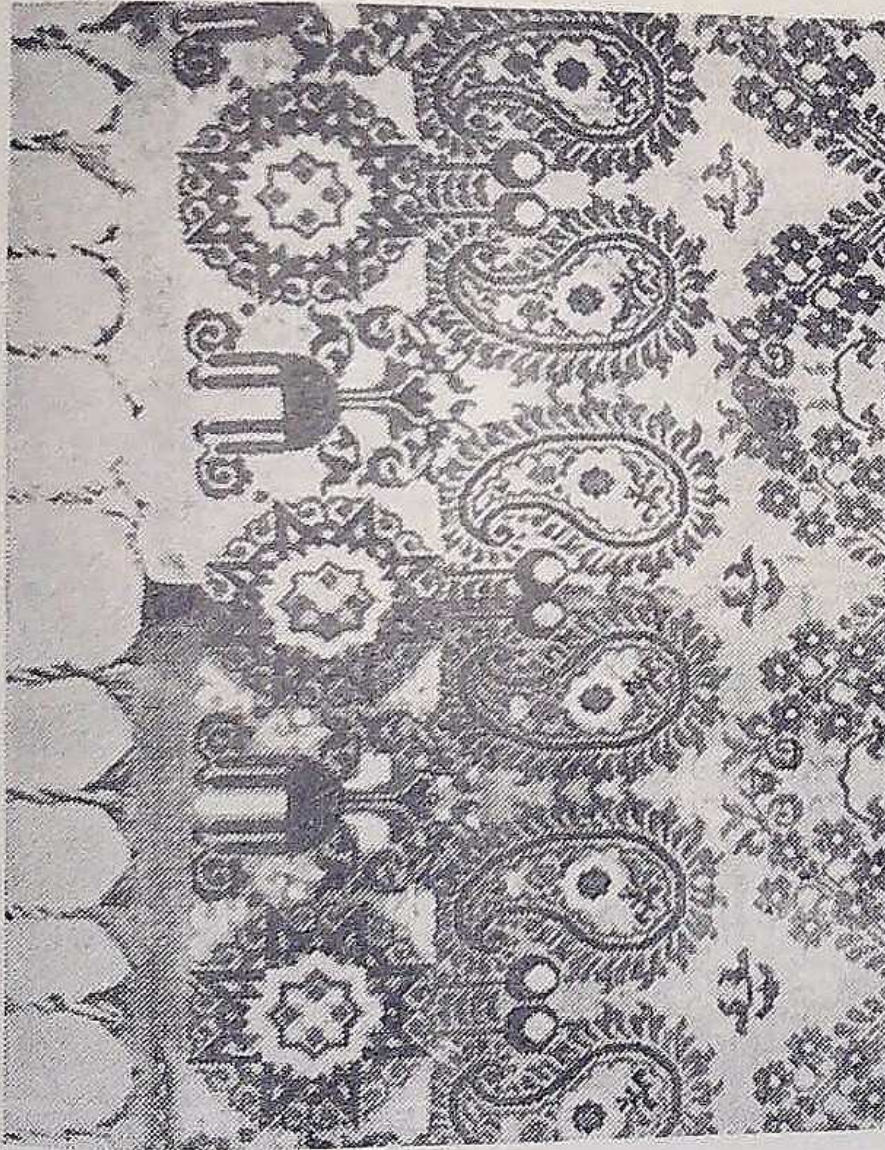
الوقت على يد أميرها رنسيبورغ وعمل هذا التأثير المزدوج الذي تركه الاندلسيون في بلدتين متجاورتين من أعرب المظاهر التاريخية حيث تختلف الطبائع والاستعدادات بين المدينتين من النشاط الفياض والروح التجارية عند السلاويين الى ارستقراطية شبه جامدة في بعض العصور عند الرباطيين الذين اتسموا - خاصة في العقود الأخيرة - بنوع من الركود الاقتصادي تمخض عنه اخلادهم الى اقتناء العقارات والتعيش من ريعها آفنين - بما طبع عليه

الكثير منهم من كبرياء - من ممارسة أعمال التجارة والفلاحة هذا بينما كان بين أسرهم البورجوازية من تغرب وأسس المراكز التجارية في الشرق ودول أوروبا ونحن نرى هاتين الطبيعتين مزدوجتين في فاس وتطوان مثلاً وهذا يفسر لنا - بعض الشيء - العوامل الحضارية والتاريخية التي جعلت من هذا المركز أو ذاك مركزاً صناعياً أو فلاحياً أو مهنياً .

وقد ذكر سرفانتيس مؤلف دون كيشوت في بعض رسائله أن الاندلسيين العرب كانوا يحتكرون حتى بعد سقوط الاندلس تجارة الأغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ومنهم تجار البقالة والماشية والقصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وهم لا يشترون العقارات احتفاظاً بحرية استعمال أموالهم وكان ذلك من دواعي قوتهم وذكر الدكتور لي (الموريسك ص ٢٠٤)

وذكر الدكتور لي (الموريسك ص ٧) أن العرب من أهم عوامل النشاط والرخاء في إسبانيا وإن براعتهم كانت قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون وخلالهم قدوة في النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق وكانوا على الجملة من أفضل العناصر التي يمكن أن تضمها دولة متقدمة .

وكان التسول معدوماً في الاندلس وقليل جداً في المغرب حيث لم يستفحل إلا في عهد



الحماية من جراء سياسة نزع ملكية الأراضي الفلاحية التي جرفت بكثير من البدو إلى أرباض الحواضر حيث سكنوا في أحصاف موبوءة أو مدن القصدير وقد ذكر المقرئ في النفح (ج ١ ص ١٠٤) : « وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدول التي تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلاً عن أن يتصدقوا عليه فلا تجر في الاندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عثرة وبخروج العرب من الاندلس اندرست فنون أشبيلية وطليلة والمرية وعفت صناعاتها .

(لين بول - الموريسك في إسبانيا)

زربية من طراز شرقي سوري أو هندي

وإذا راجعنا لوائح الصناعات التي كانت مزدهرة في العديتين نجدها متنوعة جدا فمن الانسجة المختلفة الى أنواع من الصناعات الجلدية والحشبية والمعدنية الى الخزف المرصع الى غير ذلك وقد اشار ابن مرزوق (القرن الثامن) الى بعض أنواع الصناعات المغربية المتصلة بالبناء وحده فذكر النجارين والجبايسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين (المسند الصحيح ص ٣٩) (١) والاطر الاندلسي ظاهر في كل ذلك .

فهذا الزليجي الفاسي الذي هو نوع من الترصيع الخزفي اصله من الاندلس فقد كان



خلخال من فضة

(١) لما اراد الموحدون اتخاذ اصولهم القريية والقضية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كان يحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريية والقضية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظاميين والحلائين والنقاشيين والمرصعين والتجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين . . فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل امثلة مختصرة واشكال مبتدعة وضمنوها من غرائب الحركات وخفي امداد الاسباب للمسيبات (النفج ج اص ٢٩١)

يصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف في المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفضض (المقرئ في النفج نقلا عن ابن سعيد ج ١ ص ١٨٧)

وقد جلب الحكم الاموي الفسيفساء عام ٣٥٤ هـ من ملك الروم اقتداء بالوليد في بناء مسجد دمشق فرجع وفد الحكم للصانع ومعه من الفسيفساء ٣٢٠ قنطارا هدية فرتب جملة من الممالك لتعلم الصناعة فأبدعوا وأربوا على الصانع الذي صدر راجعا عند الاستغناء عنه (المغرب لابن عذاري ج ٢ ن ٣٥٤)

والترصيع هو التكرير (كلمة تركية) وهناك مرادفات حسب البلاد والعصور منها التلييس والترسيب والتنزيل وأصحها عند العرب في العهد العباسي التطبيق وفن الترصيع ربما ادخل الى المغرب من سوريا مباشرة أو عن طريق الاندلس وما زال الاوربيون يسمون هذا الفن الى الآن بالفن الدمشقي في جميع انواع الاواني والحلي وفولاذ دمشق مشهور في أوربا حيث كان يستورد بكثرة ومن الشرق دخلت اساليب الصناعة العربية الى ايطاليا أول الامر وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار



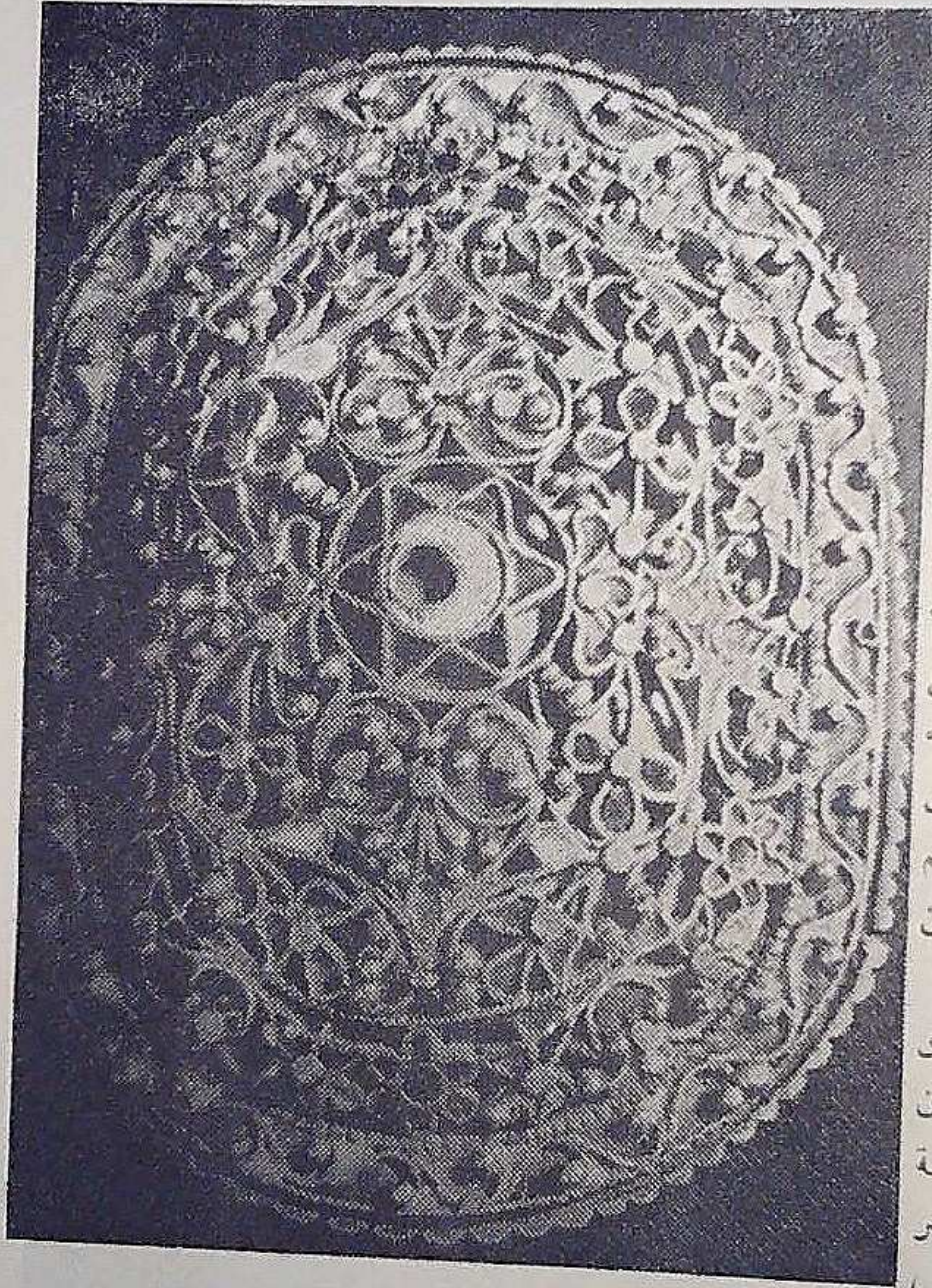
كيف ينقش الخزف بفاس

الأوربية حتى اضطر أحد ملوك فرنسا الى اتخاذ قرار لتحديد ذلك السيل (اعراف المسلمين وعاداتهم ص ٢٤٧)

وغالب فنون التطريز والترقيم المغربي من أصل أندلسي وبعضها من أصل أوروبي أو شرقي .
فقد نشرت هسبريس (ج ٢١ عام ١٩٣٥) بحثا حول التطريز المغربي فلاحظت ان النماذج التي اقتبس منها مختلف الفنانين بأزموراسبانية وإيطالية يرجع تاريخها للقرن السادس عشر والحواشي المطرزة في أزمور هي النموذج للنهضة الأوربية بالمغرب .

أما تطريز فاس فانه يستمد من الفن السوري واذا قارنا بين النماذج الأوربية والنماذج المغربية وجدنا ان الفرق غير محسوس اللهم الا في تناسق الرسوم وهناك نماذج سلوية من أصل فارسي أو شامي وكلها معروفة في أوروبا وقد نقل الأندلسيون بعض الأساليب الأسبانية ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الأنسجة الأوربية وهناك تطريز بفاس علجى الأصل أدخلته الى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس وغيرهم ثم التطريز التطواني الذي هو من أصل بلقاني . (١)

وفي القرن العاشر الهجري حسب الحسن الوزان - كان عدد كبير من العملة يشتغلون في دور السكة بفاس ومراكش (الذهب والفضة) رتيويت بسوس (الحديد) والمدينة بهسكوره (الذهب)



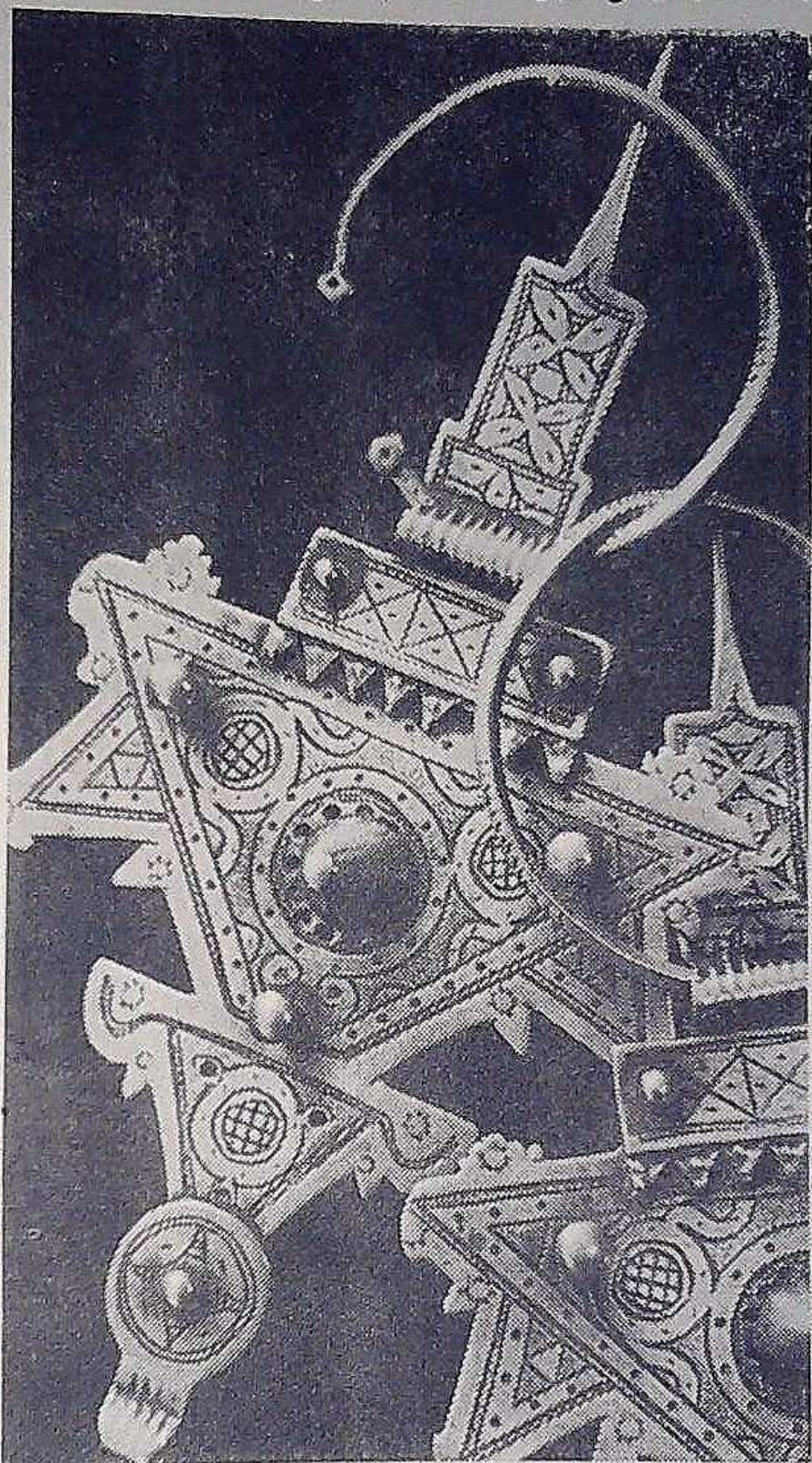
ابزيم من ذهب

(١) ولم تحل روح التقشف التي أظهرها بعض ملوك الموحدين دون ازدهار فن الزخرفة فقد أمر المنصور بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل وأمر بالاكْتفاء منه بالنماذج القليلة وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص (البيان المغرب لابن عذاري ج ٤ ص ٨١)

وازمور (الذهب والفضة) وسلا (الذهب والفضة) ونولوسبته وسجلماسة (الذهب والفضة) ولكن وجود العملة يمنع السكان من الاستمرار في المبادلات الطبيعية بدون نقد لا سيما في الجنوب (هسكورة وتادالا والحوز) حيث تستعمل الفضة في حلي النساء (ص ١٠٠)

وتقوى أهمية المراكز الصناعية أو تضعف تبعاً لمواردها الاقتصادية ووفرة الصناع بها فقد قام الاستاذ ماسينيون في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بتحقيق حول حناطي المحترفين والتجار بالمغرب في فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه بعد التمحيص ان رجال الحرف في كل من هذه المدن يبلغ عددهم نصف مجموع سكان كل مدينة (الحناطي الاسلامية - باريس عام ١٩٢٥ ص ٣٨) (١)

وقد ذكر كايي في تاريخ الرباط (ص ١٩٣ الى ١٩٦) ان الرباط وسلا كان بهما اثنا عشر معملاً لصنع الزرابي انتجت ٨٤٠ زربية خلال سنة ١٨٥٥ يوزع نصفها على مختلف أنحاء المغرب ويصدر الثلث الى الخارج والباقي يستهلك في الرباط وسلا وكان بالمدينتين

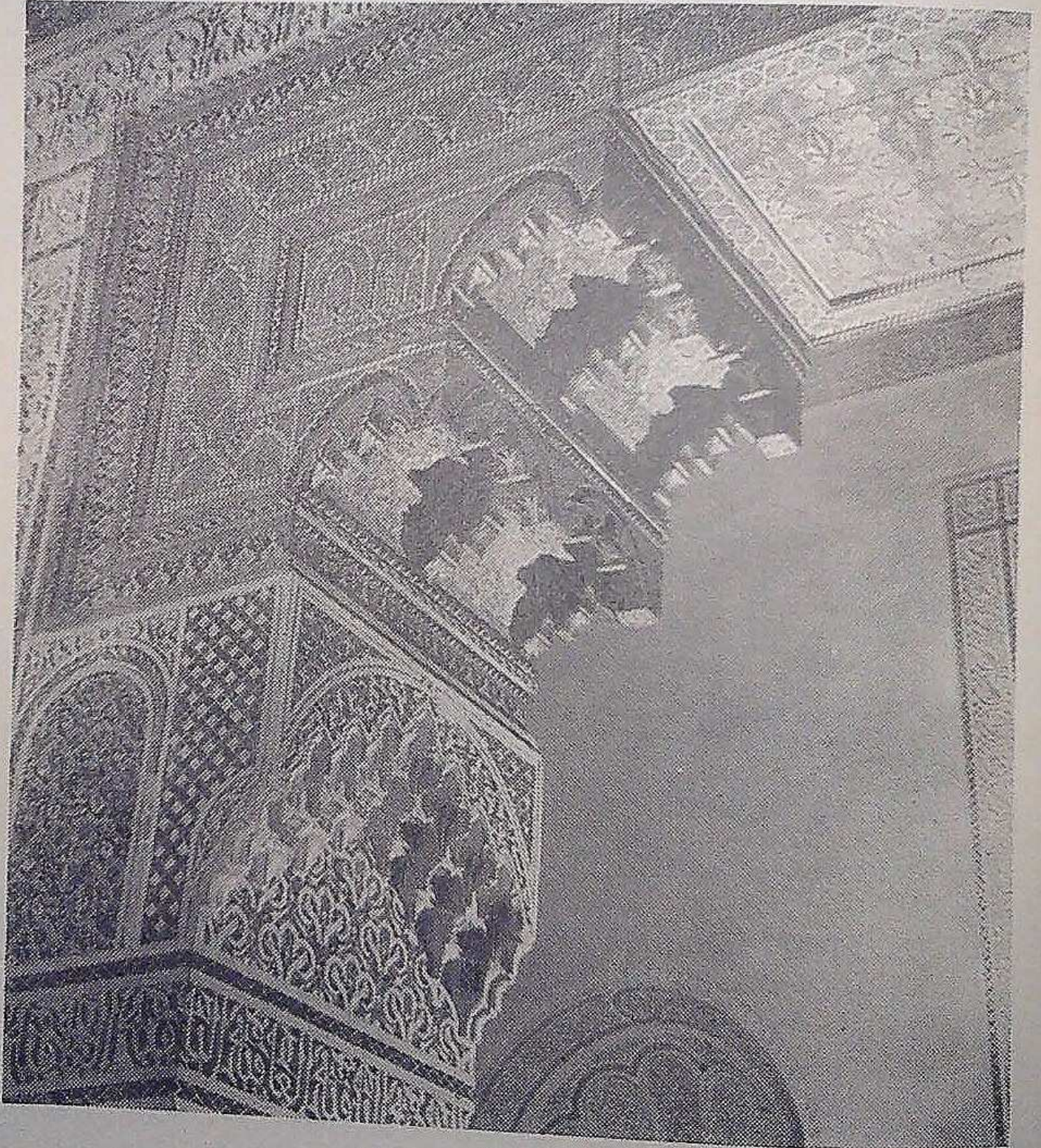


حل فضي يستعمل في البادية

(١) حكى دو كاميو الذي ألف كتابه «مملكة تنهار» عام ١٨٨٦ أن عائلة متركبة من والدين وستة اطفال كانت تصرف - حسب تحقيق قام به في الصويرة - تسعة عشر فرنكا في الشهر طعاما ومشروباً وسكنى وملبوساً وأثاثاً ونفقات غير اعتيادية وكان دخل هذه العائلة أربعة وعشرين فرنكا تقتصد كل شهر خمسة فرنكات (ص ٨٦)

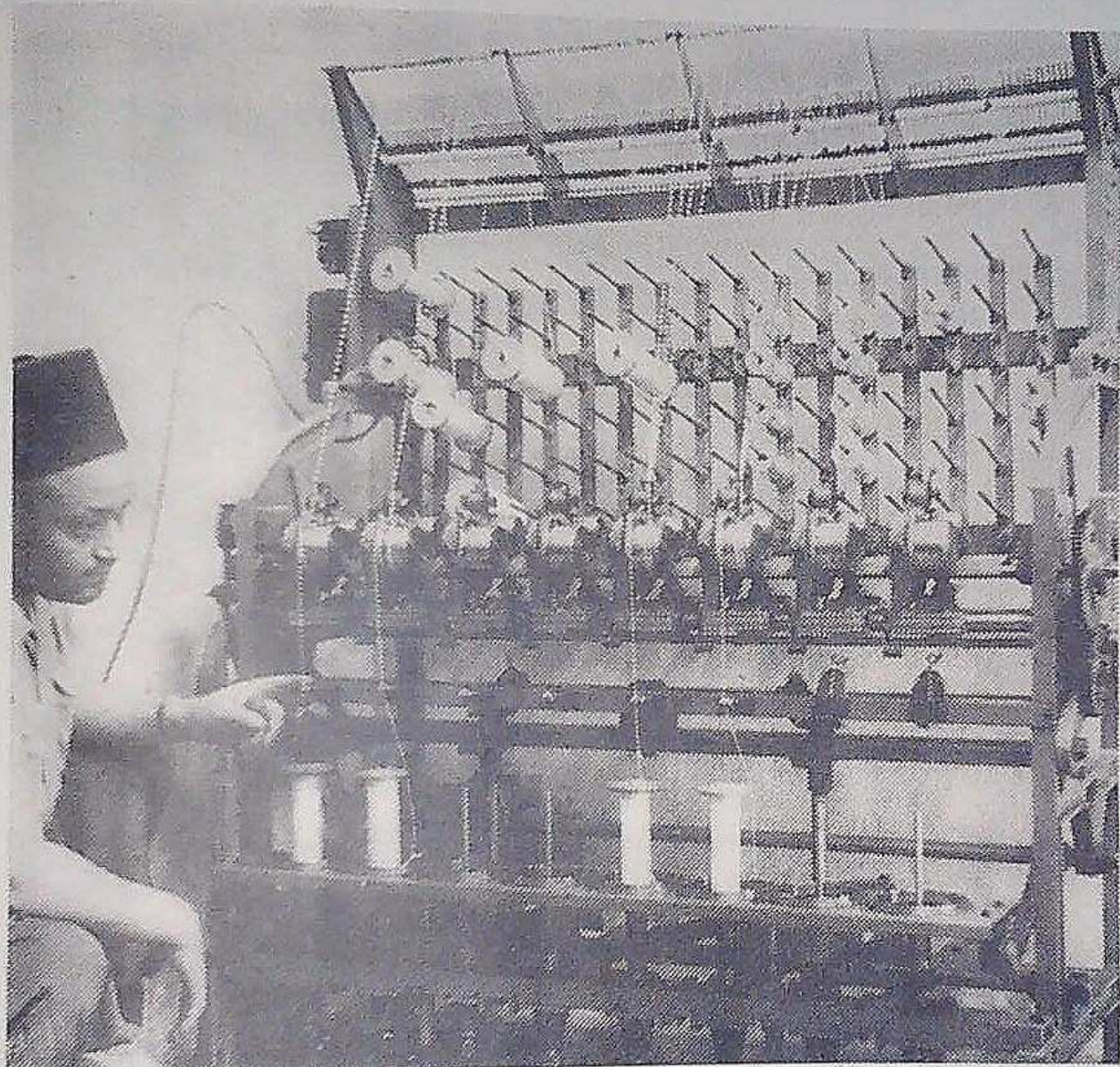
ايضا خمسة معامل لصنع الحايك طول الواحد ستة أمتار فى متر ونصف ويباع بستين فرنكا وأقلها ثمننا تباع بخمسة فرنكات وقد صنع منها فى المدينتين ٢٠٠ ٦٣ عام ١٨٥٥ زد على ذلك ٤٠٠ جلابة (جلباب) من الصوف طولها خمسة أمتار وثمانها عشرة فرنكات للواحدة وصنع فى نفس السنة ٨٠٠ ٤٦٠ سبينية من القطن المغزول المصنوع فى جبل طارق قيمتها ٦٠٠ ٣٤٥ فرنك

وكان بالمدينتين أربعون دارا للصبغة وعشر دور للصبغة تعالج كل سنة ازيد من ١١٠ ٠٠٠ كيلو من الصوف و ١ ٥٠٠ كيلو من الحرير و ١٥٠ معملا للبلغة و ٣٠ من دور فخارة تصنع ٦٠٠ ٠٠٠ آنية فى العام قيمتها ١٨٠ ٠٠٠ فرنك



النقش على الجبس والخشب

وكان بالمدينتين أيضا عام ١٨٥٥ دور ثلاث لضرب سكة البليون تتوفر على اثنتى عشرة مصهرة ويعمل فيها ٣٦ ما بين معلمين وعملة وكانت تذوب فى كل يوم تسعة قناطير من المواد الأولية (النحاس والرصاص والقصدير وكبريت النحاس) قيمتها نحو ١٨٤ فرنكا . وكانت منتجات مصانع الرباط وسلا تقدر بخمسة ملايين من الفرنكات مما يجعلهما المركز الصناعى الثالث فى المغرب بعد فاس ومراكش . واذا أردت أن تأخذ صورة عن مختلف الحرف فى اصغر مدينة بالمغرب فلتنظر الى ازموور



مصنع عبرى للنسيج

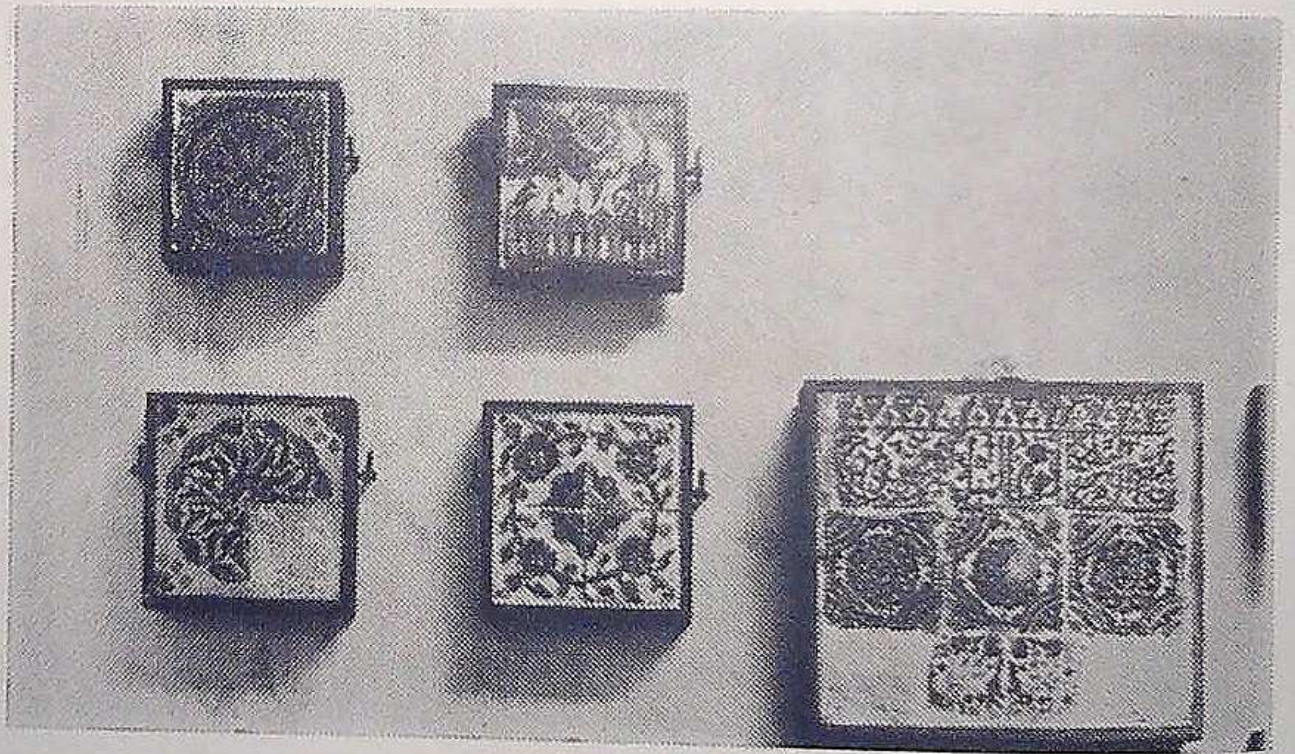
مثلا حيث ورد فى احصاءات يرجع عهدهما الى حوالى ١٩٣٠ (ناحية دكالة - من المغرب وقبائله ج ١١ ص ٤٠) ان الحبازة كان عددهم ٨٣ (٦٨ امرأة) والقرارية ٦٠ (٤٨ متعلما و ١٢ معلما) والقهواجية ٨ والاسكافيون ٤٥ والبقالة ١٨٠ وبائعو الاحذية ٢٠ والكفائية ٢ والبياضة اولدجايية ١٨ والجيارا ١٠ والبناءون الاخصائيون فى الطابية (المعروفة قبل سنة ٢٩٤ كما فى البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٩٣) وكلهم من ناحية درعة والبزازة أو بائعو الثياب ٤٦ والبغازة أو بائعو السمك بالجملة ٥٢

والشراحة (مجففو السمك) ٣٠ والعبارة ١ والنجارة ٤٠ والبنائون ٤٠ والحدادون ٣٢ والقزادرية وكلهم يهود ٨ والمختصون فى تبييض النحاس ٤ والفخارون ١٩ والدباغون ١١ والنساجون ٢٣ والخياطون المسلمون ٢٥ والصاغة اليهود ٢١ والحجامون ٢٨ والطحانون ٢٨ والسفاجون ٤ والسقاة (الكراية) ٣٥ والصيادون ٨٠٠ والدلالون ١١ والتقنيون ٢٠ ومن جملة الصناعات المنتشرة بالمغرب النقايشية والمهارزية (تذويب النحاس) والجوالقية (صناع الفنايات) والقزادرية (١)

وقد أفردت الوثائق المغربية بحثا فى هذا الموضوع (سنة ١٩٠٧) .

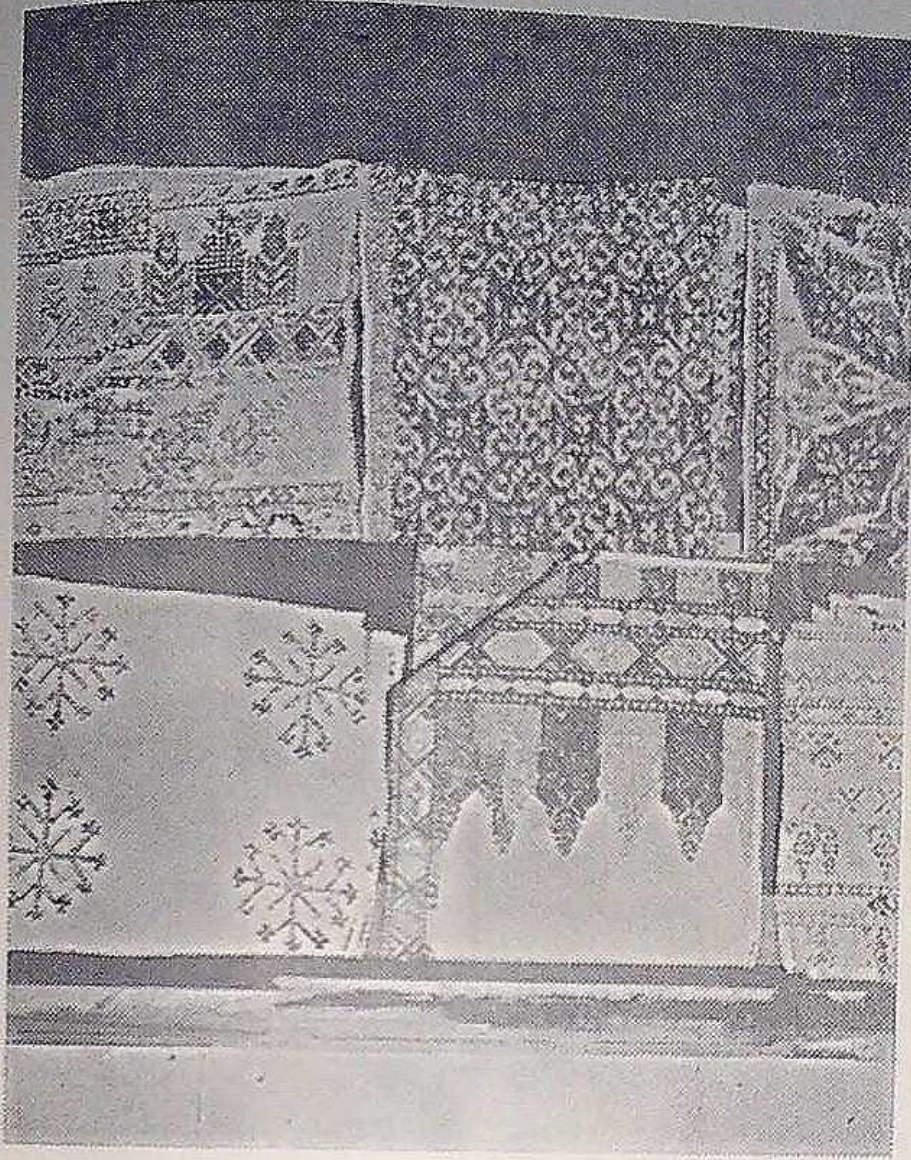
وكانت هنالك مراكز صناعية أخرى لعبت دورا مهما فى تاريخ المغرب فهذه سبتة مثلا أصبحت فى عهد الموحدين فى طليعة مراكز إنتاج الورق الذى لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة وكان العرب يصنعون الكاغد من القطن فقد عثر كازيرى فى الاسكوريال على مخطوط عربى من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام ١٠٠٩ وهو سابق للمخطوطات الموجودة فى نفس مكاتب اوربا وشاهد بان العرب كانوا أول من استعاض عن الرق بالكاغد العرب أول من صنع الكاغد من الخرق البالية (حضارة العرب من ٥١٩ - ٥٢٠)

وذكر المسعودى فى المروج ان جعفر البرمكى هو أول من اتخذ الكاغد ايام الرشيد فتداوله الناس من بعده .



الفسيفساء الاندلسية

(١) ترويجا لمنتجات الصانع المغربى ودعاية لها شارك المغرب عام ١٢٨٥ هـ فى المعرض الذى أقيم بباريس فى عهد نابليون الثالث ومثل المغرب جـ محمد بن العربى القباج الفاسى المعروف بالفرنسى معرفته اللغة الفرنسية وقد بعث معه السلطان نماذج من الانتاج المغربى مثل السروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسى والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه (الاستقصا ج ٤ ص ٢٣٢)



ويقول كريمر بأنه في عصر
المعتصم العباسي أسس عمال
مصريون في سامرا قرب بغداد
مصنعا للورق (اعراف المسلمين
وعوائدهم بقلم كويتي ص
٢٤٩) وذكر كويتي ان مصانع
شاطبة كانت تمتد أوروبا الغربية
بالورق بينما كانت أوروبا
الشرقية تزود من الشرق
ومعلوم ان الطباعة بالحروف
المتحركة والتي هي من اختراع
الصينيين قد دخلت بفضل
المغول الى مصر ومنها الى أوروبا
(ص ٢٧٥) وقد ألف ابو بكر
المقدسي كتابا في الخواص وءالة
الطبع غريب في معناه مما يدل
على اسبقية العرب والعرب هم
الذين نقلوا دودة القز الى
اسبانيا ومنها الى المغرب
(اعراف المسلمين وعاداتهم ص
٢٤٧)

الطرز الفاسي

ووردت في مخطوط عربي
طريقة لصنع الثلج ولم تكتشف

أوروبا ذلك الا في النصف الاول للقرن السادس عشر (كويتي اعراف ص ٢٤٤) كما اخترع
عباس بن فرناس الاندلسي صناعة الزجاج من الحجارة وهو الذي حاول الطيران وكتب في
الموسيقى ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها تمثيلا يقرب من الحقيقة .
وقد بلغت الصناعة الدقيقة والميكانيك (علم الحيل) عند العرب مبلغا كبيرا يتجلى فيما
كتبه ابو العز بن اسماعيل ابن الرزاز الجزري في كتابه « الحيل الجاهل بين العلم والعمل » حيث
ذكر أنه صنع زورقا عليه صور بعض ندماء السلطان وصور جماعة من مطربات مجلسه
واتخذ من خشب فيه دكة عليها صور الملك جالسا وعن يمينه حاجبه قائما وعن شماله حامل
السلح وبين يديه غلام في يده قدح كأنه يسقي ودون ذلك جماعة من الندماء جلوس عن
اليمين وعن الشمال وبين أيديهم أواني الشراب وقبالة الملك دكة عليها زامرة . . ووراء الدكة
الجواري الملاح وعلى حافة الزورق ملاحان بأيديهما جذبان فيوضع الزورق على
سطح الماء في بركة كبيرة فلا يكاد يسكن بل يتحرك وكلما تحرك فان الملاحين يتحركون
لانهم على محاور والمجسا ذيف تحركهم بحركتها في الماء فاذا مضى نصف ساعة تزم الزامرة
وتلعب الجواري بالملاهي بأصوات يسمعونها من حضر ثم يسكنن ثم يعدن الزمر واللعب . . .

وفى كتاب الحيل هذا لابن الرزاز صور كثيرة للساعات المائية والدواليب والآلات
 المتنوعة وهو موجود بالخزانة التيمورية بمصر وكذلك كتاب «علم الساعات والعمل بها»
 لرضوان بن محمد الخراساني به صور ساعات مائية وما يتخذ منها من التماثيل والدمى .
 وفى اخبار مصر لابن ميسران الافضل بن امير الجيوش وزير الفاطميين كان له مجلس
 شراب فيه صور ثمانى جوارم تقابلت عليهن افخر الحلى فاذا دخل ووطئ العتبة نكسن



أنية ذات رسوم صينية دخيلة فى فن النقش الخزف بالمغرب

رؤوسهن خدمة له فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائمات .
وجاء في تاريخ سديوان أبو الوفاء البوزجاني اخترع بندوق الساعة الدقاقة وقال سميت
العالم الأمريكي ان كمال الدين بن يونس لاحظ قانون الرقاص وسبق غاليلي الى معرفة شيء منه
ووصف المقرئ في النفخ ساعة كانت عند ابي حمو سلطان تلمسان « لها ابواب مجوفة على
عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع التقرب قدر حسابها وفتح عند ذلك
باب من ابوابها وبرزت منه جارية وفي يدها رقعة مشتملة على نظم فتضعها بين يدي السلطان
ويسراها على فمها مؤدية بالمبايعة حق الخلافة »

وقد صنع ابو عنان المريني على يد موقته على التلمسان في عام ٧٥٨ منجانة بطيسان
وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة بسوق القصر
وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة في طاس وتفتح طاق
(زهرة الآس ص ٤٠)

وقضية مقصورة جامع مراکش المصنوعة أيام الموحدين
معروفة وقد كانت تتحرك جدرانها وتغيرها بمجرد ما
تمس رجل الخليفة الاضرار بالموضوعة في المدخل الخاص
عند دخوله للمقصورة (١)

على ان عظمة الابتكار الاسلامي في الميدان الصناعي
تتجلى - كما قال ماكس ماير هوف - في علم البصريات
التي هي الآن أساس صناعة النظارات والمرايا في العالم
وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية ان ابن الهيثم اول
مكتشف ظهر بعد بطليموس في علم البصريات وجاء في
تراث الاسلام ان علم البصريات وصل الى أعلى درجة من التقدم
بفضل ابن الهيثم واعترف العالم الفرنسي فياردو بأن
كبلر اخذ معلوماته في الضوء وانكساره في الجو من كتب ابن
الهيثم وقال سارطون انه اعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات

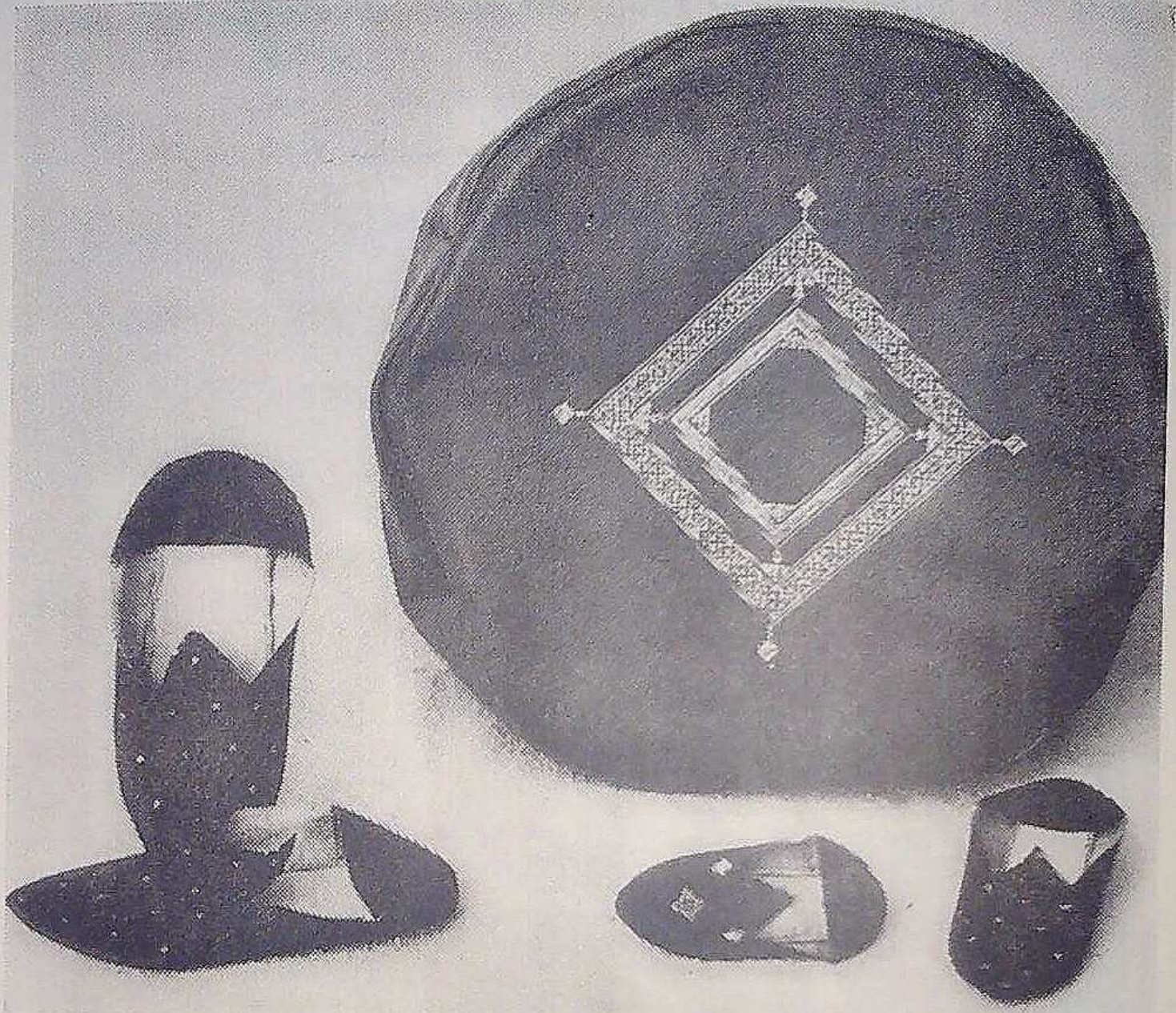


ملعقة من فضة منقوشة
ومرصعة (الصورة)

(١) كانت هذه المقصورة مدارة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور
ووزرائه بمصلاه منها وتختفي اذا انفصلوا عنها وقد اتخذها المنصور بجامعة المتصل بقصره
في مراکش وفيها يقول ابو بكر ابن مجير شاعر المغرب في وقته (له ديوان يشتمل على
اكثر من ٩٤٠٠ بيت)

طورا تكون بمن حوته	محيطه	فكانها سور من الاسوار
وتكون حيناً عنهم	مخبوة	فكانها سر من الاسرار
وكانها علمت	مقادير الوري	فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست	بالامام يزورها	في قومه قامت الى الزوار
يبدا فتبدو	ثم تخفى بعده	تكون الهالات للاقمار

وذكر المقرئ في النفخ انه زار مراکش عام ١٠١٠ فلاحظ أن حركات هذه المقصورة بطلت
وبقيت عاثرها (النفخ ج ٢ ص ٨٠٤)



مقعد من جلد مطرز بالذهب مع احذية نسوية

القليلين والمشهورين في العالم

ولم يكن العرب ينفون من الصناعة والتجارة .

فقد قال ابن القاسم ان مالكا كانت له اربعمائة دينار يتجر لها فمناها كان قوام عيشه ومصلحته (مدارك عياض - مخطوط)

كان ابو حنيفة يتجر بالكوفة في دار مازالت موجودة وهي دار ابن حريت (ابو حنيفة بطل الحرية والاسلام) والامام الخفاف احمد بن عمر بن مهير كان يؤلف للمهتدي بالله كتاب

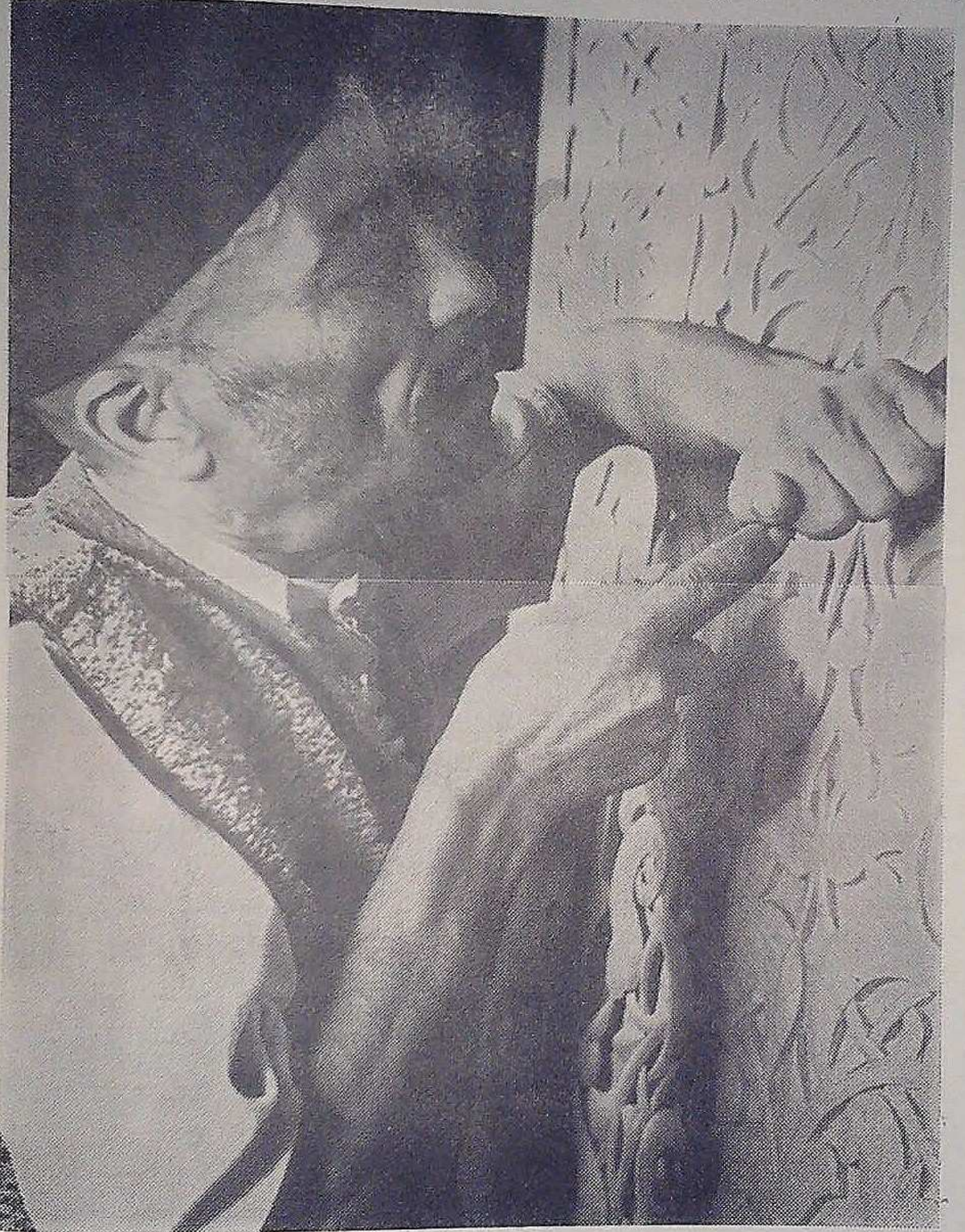
الخراج ويصنف كتبه القيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل في الجص (نفس المصدر) والشيخ ابراهيم

المتبولي كان يبيع الحمص المسلوق بالقاهرة (طبقات الشعرائي ج ٢ ص ٦٧)

ومحمد بن احمد بن طاهر الانصاري الاشبيلي النحوي المعروف بالحذب كان بفساس ينتحل صناعة الخياطة وقد رأس أهل عصره واخذ عنه ابو ذر الخشني وابن خروف النحويان

(جذوة الاقتباس ص ١٦٨)

وإبو تمام كان سقاء في جامع عمرو بن العاص (ابن خلكان ج ١ ص ١٧٢) وكان الجاحظ يبيع
الخبز والسمك (معجم الادباء ج ٣ ص ٣٦٩)
وكان أبو العتاهية يبيع الجرار والفخار ويتوافد على حانوته المتأدبون فيأخذ هؤلاء ما
يكسر من الخزف ويكتبون ما ينشد لهم أبو العتاهية من أشعار (الآغانى ج ٣ ص ١٢٩) وكان أبو



فنان ينقش على الخشب

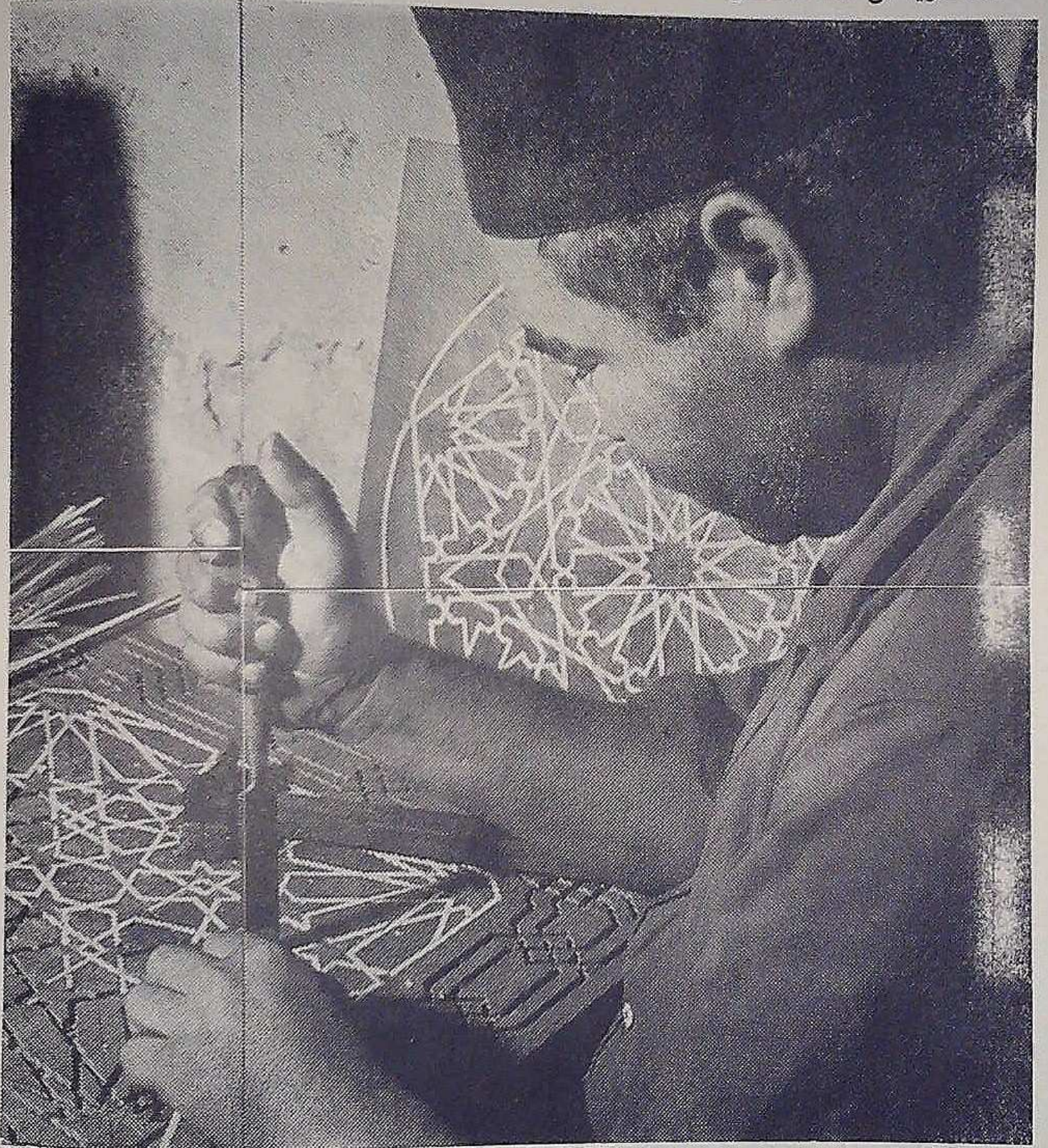
بكر الصبغى المتوفى عام ٣٤٤هـ يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه فى حانوته وكان من أعيان فقهاء الشافعية وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس (طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٢٨)

ومحمد الغسانى التلمسانى كان تاجرا فى قيسارية أسفى يدير حانوته بعد الفراغ من مجلس تدريس الموطا والسير والنحو والآداب واللغة توفى عام ٦٦٣هـ (الذيل والتكملة) ويذكرون ان العلامة الكبير الشيخ محمد بن عبد الله معن كان «يتمعش بعمل دوز القز» بفاس (نشر المثانى ج ١ ص ١٩٧)



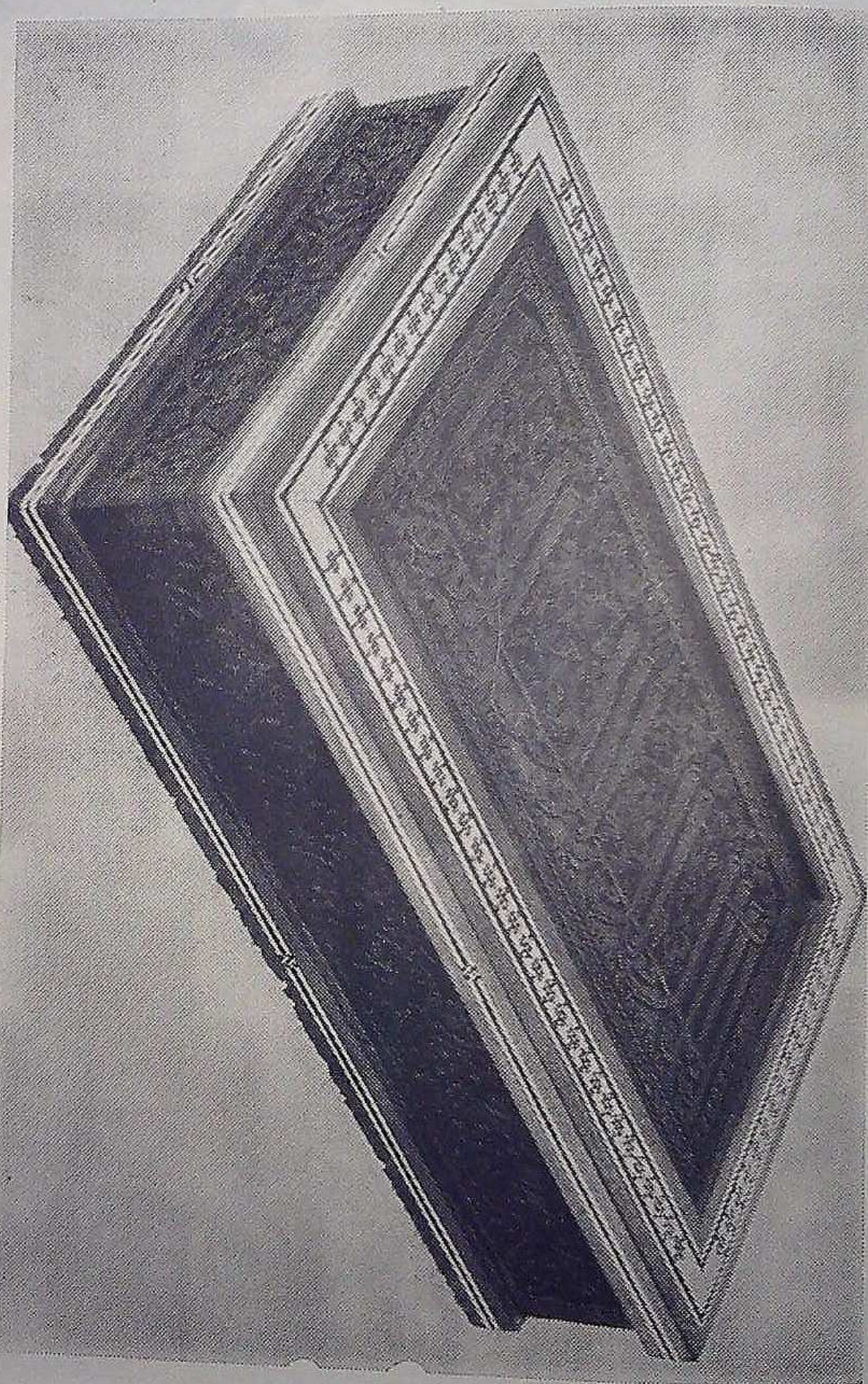
خراط فاسى

ومن هذه الفذلكة يتجلى لنا الدور الخطير الذي لعبته الصناعة التقليدية بالمغرب والمركز الاجتماعي المهم الذي شغلته في مختلف العصور طبقة التجار والمحترفين الذين ترجع كثير من عوامل الازمة الاقتصادية الضاربة أطنابها الآن الى تضعفهم من جراء غزو الصناعة الحديثة بدواليبها وآلاتها العصرية لميدان العمل المغربي ولاشك ان من الادوية الناجعة في انعاش هذه الطبقة هي تطور أساليبها وحصولها على الوسائل المادية الكفيلة بذلك ولا ريب ان مشاريع وزارة الاقتصاد ومنها احدث لجنة عليا للتنسيق وبنك للقرض ستكون عاملا قويا في هذا الانعاش .



صانع صويري مختص في نقش الليمون على خشب العرعر

صندوق من جلد منقوش



المراة المغربية

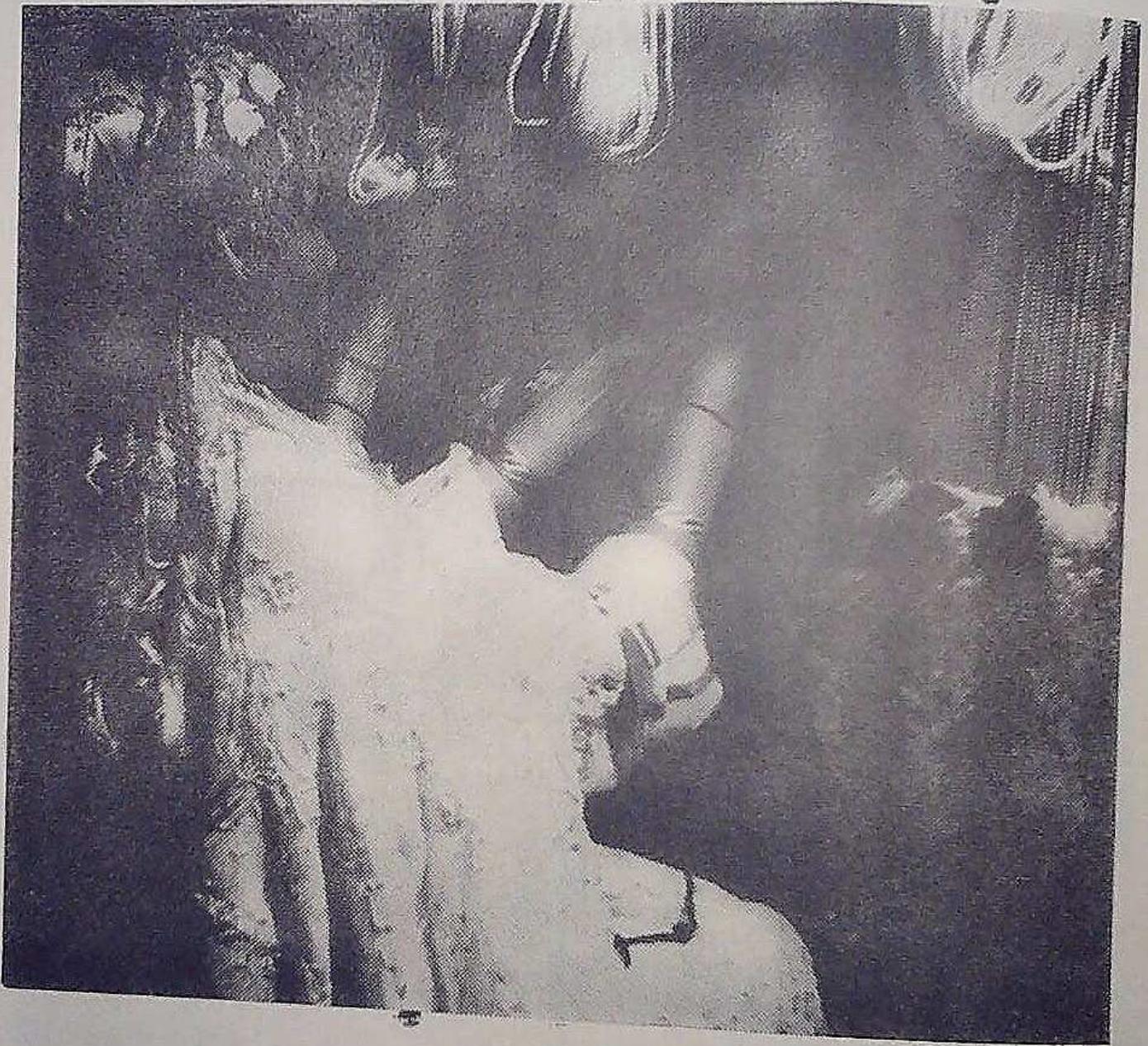
يعتقد المؤرخون ان جميع الاديان والاهم قبل العرب /ساءت الى المراة فقد كان الاغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل وكان جميع قدماء المشرعين يظهرن نفس القسوة على المراة ومن ذلك قوانين الهندوس وكان الصينيون



مصنع الزرابي بالرباط

والروس والايطاليون والاسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة كما تدل على ذلك الامثال السائرة عندهم وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والاعريقية والرومانية والحديثة المرأة - كما يقول جوستاف لوبون - من فصيلة الاماء او الصبيان وقد انعقد اiban البعث النبوى مؤتمر فى بلاد الرومان تساعل هل للمرأة روح واجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشترى ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء .

وتطورت الآراء فى اوربما حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر فى نظريات



نسج الزرابى فى الاطلس

او كست كونت الذى هو ابعدهم الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الاباحية فى المرأة .
 • فما هو الوضع الذى أعطاه هذا العالم للمرأة فى فلسفته الايجابية التى كان لها اكبر الاثر فى تكييف نظريات عصره فى الميدان الاجتماعى ؟
 يقول الفيلسوف : ان الرجل والمرأة يهدفان الى غايات متباينة فى الحياة فمرمى الرجل هو العمل وغاية المرأة الحب والحنان والواجب يدعو الرجل الى قيادة نشاط الامة بينما على المرأة

الانصياع وبذل النصيحة والتأثير الاخلاقي والتهذيب لانها تشخص الحب وترمز الى
قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب فقوى الجنسين متكاملة واذا ما
تناسقت هذه القوى فيما بينها فانها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية .
وهذا النظام الذى يجعل المرأة خاضعة للرجل يسند اليها مهمة رائعة فى الحياة الخاصة
بينما يحظر عليها التسرب الى الحياة العمومية ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد اجوست كونت



امراة من الاطلس الكبير تفزل الصوف

الذى أخذ عليه انصار حرية المرأة حصرها فى نطاق ضيق ولكن «الفيلسوف الايجابى» يرد على خصومه بان انافة الرجل على المرأة هو ظاهرى فقط لان للمرأة تفوقا ناصعا على الرجل فى الميدان الاجتماعى لانها مجبولة على المرونة الاجتماعية وهى عامل المحافظة والتوازن فى الهيكل الاجتماعى وحتى فى الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة لان لهما حقوقا وواجبات مختلفة فالرجل قوام على البيت وهو الذى يعول المرأة كما يقول الفيلسوف العصرى لان المرأة يجب ان تجرد من هموم المادة فناموس التطور الحديث يقضى فى فلسفة كونط الايجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوما عن يوم وتجريدها اكثر مما يمكن من كل عمل خارجى لكفالة وجهتها العاطفية ويدعرب هذا الفيلسوف الى حد حرمان المرأة من الارث بالمرءة نظرا لكون التكاليف المادية منوطة بالرجال حدهم .

ثم جاء العالم بروديهون فذكر فى كتابه «العدالة» ان الرجل والمرأة غير متساويين وانهما متكاملان وبرهن على ان الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح : ماديا وفكريا وأديبا فالتفوق المادى ظاهر والتفوق الفكرى راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الاشياء فهى قادرة على تصور الامور منفصلة بعضها عن بعض ومن هنا جاء انصارها للروحيات والشعر لا للعلوم

فللمرأة القدرة على الاحتذاء لا على الابتكار والخلق لهذا لم نرها فى مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافا علميا او اسست مدرسة ادبية او فنية وقد ذهبت مدام تويرج مدان الروائية الفرنسية الشهيرة الى حد القول بان «المرأة بليدة بالطبع» ولا شك ان هذا الحكم الصارم الذى صدر من امرأة ضد المرأة راجع الى الوضع الخاص الذى يجعل المرأة فى نظر بردهون محرومة من «روح الجمع والتأليف» عاجزة عن سبر غور الاشياء وادراك الروابط الدقيقة التى تجعل من جزئيات مختلفة كلامتناسقا ووحدة متراسة فهى تفهم كل فكرة على حدة ولكنها تتعاس عن تصور الفكرة العامة فالرجل اقوى فكريا من المرأة بنسبة تسعة الى اربعة وخلقيا بنسبة ثلاثة الى اثنين ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بان الرجل يفوق المرأة فى المجموع بنسبة سبعة وعشرين الى ثمانية .

والمرأة تفوق الرجل فى الجمال ومن هنا تقيده وتحدوده الى العدالة وميزة الجمال هذه

هى التى تضى على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل .

والجمال هنا جسمانى وفكرى لان جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما تتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيته التى هى مرآة للرجل فكثيرا ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية الا بفضل مثالية المرأة .

أما ميشلى Michelet فانه استمد نظريته فى المرأة من الثورة الفرنسية وقد ذكر فى كتابه «المرأة» ان دور هذه فى الحياة هو اضعاف طابع السمو على كل شىء حولها فهى الشعر الذى يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته وهى ينبوع الخلق فى

العائلة كما ان الدين هو مشار الفضيلة فى المجتمع فالمرأة هى الطبيب الحق .
تلك نظريات فلسفية فى المرأة كان لها طبعاً تأثير كبير فى التطور النسوى فى أوروبا فى العصر الحديث مما جعل المرأة تتحرر فى جرمانيا مثلاً بفرض ثقة كاملة فى دورها

الاجتماعى والتهديى وكذلك فى فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولمشاطرة الرجل فى الحقل الأدبى الكتب والتأليف .
ولكن تطور العلوم ساعد المرأة أكثر من دعوة الفلاسفة الى الانبثاق فخرجت المرأة فى أوربا الى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة
واذا كانت المرأة الاوربية قد تحررت داخل اطار الاعراف فان القوانين المتعلقة بها لم تتغير الا قليلا فهى ما زالت سجيئة القانون لا سيما فى فرنسا حيث لا يطلق لها مثلا كامل التصرف فى مالها كما عند المرأة المسلمة منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ ١٩٠٧ .
فقد تمتعت المرأة العربية حتى قبل الاسلام بمركز اجتماعى لم تحظ به النساء فى كثير من اقطار أوربا حتى فى العصور الحديثة وقد ذكر كروستاف ولوبون ان الاسلام



فتيات مغربيات يشتغلن بالنسيج اليدوى



فتاة ريفية تنقش الخزف وترسم عليه بالالوان

كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعية خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية بأحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية . . . وإذا اردنا ان نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء وجب ان ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب فقد ظهر مما قصه المؤرخون انه كان للمرأة من الشأن ما اتفق لأخواتها حديثاً في أوروبا وذلك حين انتشار فروسية عرب الاندلس وظرفهم (حضارة العرب ص ٤٨٨) وقد لعبت المرأة المسلمة أدواراً في منتهى الخطورة أيام كان

منها النساء العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن في العصر العباسي في المشرق وفي العصر الأموي في الأندلس .
نعم ان المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامي الذي خولها الاسلام ايها مما جعل تطورها يتحجر أحيانا وقد أشار ابن رشد الى سوء وضع المرأة في المشرق من عدم مكنيتها من اظهار قواها كأنها لم تخلق الا للولادة ، وارضاع الطفل .
ولعل الغريب في النظريات الفلسفية هو ان ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم وذلك حين أكد في تعليقه على جمهورية افلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء في الطبع وانما هو اختلاف في الكم اي ان طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن اضعف منهم في الأعمال والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال .



فتاة حرطانية من وادي زيز

صقلت الحياة العربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين منهن أروى بنت عبد المطلب وأم الخير الخطيبة وأميمة أم تابط شرا والحارثية المشهورة بالحماس والفخر وحليمة الموصوفة بالحكمة وحميصة التي كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيبا تهجوه بالشعر حتى خشى لسانها العرب وسعدى التي تغنت بعشقها وصفية ابنة سافر التي تلونت في أساليب البلاغة وعمرة ذات الشعر الحكيم وزاوية العرب وعمرة الخثعمية الحماسية وفاطمة الخثعمية الكاهنة وفاطمة الخزاعية التي لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والأمثال وناجية التي شاركت في الحروب وحرضت على القتال

وفي هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما بلغته المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام من مكانة في الأدب والشعر في أدق جوانبه وأعرق فنونه وعندما جاء الإسلام انفسح الميدان أمام المرأة فشارك الرجل في العلوم العقلية والعقلية وطرقت أبواب الشعر وانتشرت في الغناء وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تفرض الشعر سليقة ذلك أن الإسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن منهن حفصة بنت عمر (البلاذري ص ٤٥٨)

وقد ترعرعت في أحضان الإسلام الآلاف من النساء اللواتي كرعن أصناف العلوم حتى نافسن الرجال وفرضن وجودهن وأصبحن استاذات لكبار علماء عصرهن وقد ترجم ابن حجر في الإصابة ١٥٤٣ امرأة كان من بينهن العالمات والفقيهات واللغويات والمحدثات (ج ٤ من ص ٤٢٤ إلى ص ٩٨٤) وخصص الإمام النووي في تهذيب الاسماء والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد والسخاوي في الضوء اللامع حيزا كبيرا لترجمة النساء العالمات وقد ذكر السخاوي أن السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه في القاهرة وسمع هو منها في دمشق وقد اتهم الذهبي أربعة آلاف من المحدثين ولكنه قال عن النساء المحدثات «ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها» (ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٩٥) وترجم السيوطي ٣٧ شاعرة واقتطف نماذج رائعة من أشعارهن في كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم بـ «نزهة الجلساء في أشعار النساء» وتتلذذ الإمام ابن عساكر إلى إحدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم (ياقوت ج ٥ ص ١٢٠ والنعمي ج ١ ص ١٠١) وقد أفرد المقرئ فصلا لنساء الأندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن كما تتلذذ عليهن ابن الأثير والحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام.

وقد أشار الذهبي إلى زينب بنت سليمان بن هبة الله وقد تلذذ لها (المشتبه في أسماء الرجال طبعة ليدن عام ١٨٦٣ م ص ١١) كما أشار إلى عذة شيوخ اخنوا عن شهادة التي من طبقتهما تجنى الوهبانية (ص ٦٩) ومن النسوان الاستاذات اللواتي ذكرهن ست الأدب بنت مظفر بن البرني روى عنها جلال الدين عبد الجبار بن عكبر (المشتبه ص ٣١) وتحيية الرسبية شيخة مسلم بن إبراهيم (ص ٧١) وتقية الارمنازية الشاعرة وهي بديعة النظم ماتت في حدود ٥٨٠ هـ وتقيتان عالمتان أخريان (ص ٧٤) وحبرة البلوية الشاعرة التابعة (ص ٨٦) ورابعة الغرضية تلميذة الجوهرى واختها فاطمة التي روت عن أبي جعفر بن المسلمة (ص ١٢٢) وشرف النساء بنت ابنوسى البغدادية (ص ١٢٥) وحياة شيخة أبي سلمة

التبوكي (ص ١٣٩) وعالمات أخريات (ص ١٦٢ - ١٦٨ - ١٧٢)
 وأشار ابن القاضي الى ام عانيء بنت الهوريني شيخة السيوطي (درة الحجال ص ٨٢)
 وخديجة بنت محمد المقدسية تلميذة الزبيدي وابن صباح وخديجة بنت عبد الرحمن
 المقدسية تلميذة القزويني والزبيدي (توفيت عام ٧٠١) وخديجة بنت المراتي سمعت
 من الزبيدي ثلاثيات البخاري وسمعت الفخر الاربلي (توفيت عام ٩٩٩) وخديجة بنت يوسف
 ابن غنيمة البغدادية ولدت بدمشق وسمعت من ابي نصر الشيرازي (توفيت عام ٦٩٩ هـ)
 (درة الحجال ص ١٤١) وزينب الصاحبة المسندة وزينب البغدادية المسندة الرحالة وزينب



نساء يغزلن الصوف

الحرانية ثلاثتهن اخذ عنهن ابن رشيد السبتي عام ٦٨٤ (ص ١٥٠) وشامية الصديقية الشبيخة
المسندة امة الحق سمعت من ابن حنبل الرصافي ومن جدها ابي الفتوح ذكرها ابن الزبير
الاصغر في مشيخته (ص ٤٨٢) هدية المقدسية روت البخاري عن ابن الزبيدي سمع عنها
جماعة توفيت عام ٦٩٩ (ص ٤٨٤) ام علي هدية البغدادية سمعت من ابن الزبيدي وسمع عنها
جماعة وكانت قابلة توفيت عام ٧١٢ هـ (ص ٤٨٤) وزيرة ست الوزراء بنت عمر البخاري من
ابن الزبيدي ومسند الشافعي وروتهما بالشام ومصر توفيت عام ٧٢٢ هـ (ص ٤٨٥)
وتعرض بابا السودانى الى رحمة بنت الجنان التى كانت تحتفظ حديثا كثيرا فى الصحاح
وتحيط بحفظ الادعية الواردة وكثير من تفسير قصص القرآن واخباره (نيل الابتهاج ص ٣٢٢)
كما أشار الى ام هانىء العبدوسية التى قال عنها ابن غازى انها آخر فقهاءهم (نيل
الابتهاج ص ٣٨٢)

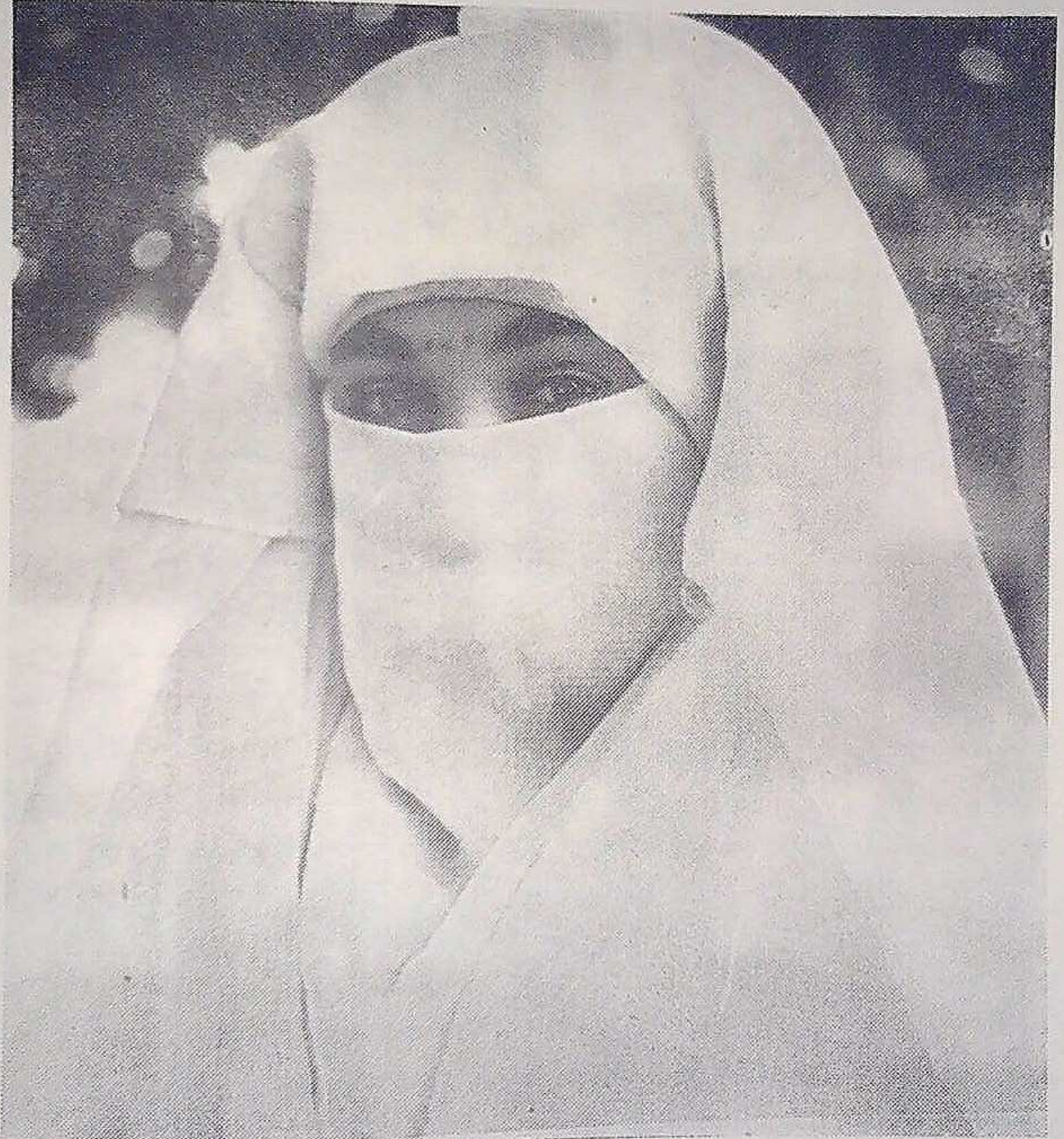
وقد تعرض صاحب فهرس الفهارس الى مشيخة النسوان (ج ٢ ص ٧١) فراجعها
وهناك علامات أخريات منهن العالمة آمة اللطيف لها تصانيف (كتاب الدارس فى تاريخ
المدارس لعبد القادر بن محمد النعمى المتوفى سنة ٩٢٧) (ص ١١٢) وفاطمة بنت عبد
الله بن أبى بكر ابن زيدة سمع عنها المعجم الكبير ابو الفتوح مسعود بن محمد بن علي المصعبى
الميمى (ميمة بلاد بأصبيان) (معجم البلدان ياقوت ج ٨ ص ٢٢٨) وعائشة بنت الحسن بن
ابراهيم الوركانى امرأة عالمة واعظة روت عن أبى عبد الله محمد بن اسحاق بن مندة روت
عنها أم الرضى صو بنت أحمد بن علي الحبال وغيرها ماتت سنة ٤٦٠ (معجم البلدان ياقوت
ج ٨ ص ٤١٧) وزينب بنت النكمال سمع منها بدمشق الامام العلامة ابراهيم الصفاقسى وهى من
أهل القرن الثامن (نيل الابتهاج لاحمد بابا ص ١١)

وكانت لما لك ابنة تحفظ علمه يعنى الموطا وكانت تقف خلف الباب فاذا غلط القارىء تمرت
الباب فيفطن فيتنظر مالك فيرد عليه (الديباج لابن فرحون ص ٢٥)
وقدم نصيب مكة فأتى المسجد الحرام فجاءت ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه وجعلن
يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء (معجم البلدان ياقوت ج ٨ ص ٣٩)
ولابن وداعة الرندى تأليف جمع فيه أربعين حديثا عن أربعين امرأة من الصحابة
(الديباج لابن فرحون ص ٥٨)
وقد أحصى من ترجم للحافظ السيوطى عدد شيوخه من النساء فبلغن اثنتى عشرة
شيخة

ولابى حيان النحوى كتاب فى ابنته نضار سماه «النضار فى المسئلة عن نضار» وذكر ابو
حيان أنها خرجت جزءا لنفسها وانها تعرب جيدا وكان يقول دائما ليت أخاها كان
مثلها توفيت عام ٧٣٠ فى حياة والدها (النفح ج ١ ص ٦١٣)
وللحافظ ابن حجر «المشيخة الباسلة القبايى وفاطمة» والقبايى هو المسند عبد الرحمن
ابن عمر اللخمى المصرى المقدسى وفاطمة هى المسندة المعمرة بنت الشيخ صلاح الدين
ابن ابى الفتح المقدسى وجمعهما لا اشتراكهما فى المشائخ (فهرس الفهارس ج ٢ ص ٥٩)
وكانت بالاندلس شاعرة من اليهود اسمها قسمونة بنت اسماعيل اليهودى وكان ابوها

شاعرا واعتنى بتأديبها ربما صنع من الموشحة قسما فأتمتها هي بقسم عاخر (النفج ج ٢ ص ٩٥٠)
ولما تكلم الشيخ فالج الظاهري في صحائف العامل على امامة المرأة ذكر أنه لو
حضرت قريش الطبرية أو عائشة المقدسية أو كريمة المروزية وهن من النسوة المسندات لصلى
وراعهن غير مرتاب ولا متشكك (ص ١٣ منه و ص ٣٧ من أنجح المساعي له أيضا راجع
فهرس الفهارس ج ٢ ص ٢٩٧)

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لامة أخرى ان تحظى بها ففى
مختلف الاعصار والامصار وقد قال عروة فى عائشة الصديقية : « ما جالست أحدا قط أعلم بقضاء
ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ، لا يطب من عائشة » وقد وفدت



امراة من فاس

الصحابية أم الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك وأخذ الإمام الشافعي الحديث عن السيدة نفيسة وضمته حلقتها في القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته وحكى ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٥١) عن نفيسة عده أنها كانت تلقى محاضرات يجلس للانصات اليها مشاهير العلماء وكانت عائشة الحنبلية احدى استاذات ابن حجر العسقلاني في الحديث وقد تتلمذ ابن حجر لزينة بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثه الفقيهه وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالبا للحديث كما تتلمذ ابن حجر ايضا لزينة بنت عثمان بن محمد التي كانت لها اليد الطولى في علوم السنة ولها رسائل في الفقه والحديث استند عليها كثير من العلماء وفي نفس العصر كانت فاطمة بنت المهدي زوجة لاحد العلماء وكان زوجها يرجع اليها فيما يشكل عليه فاذا ضابقه الطلبة استشارها وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد وأخذت من عن الزمخشري صاحب الكشف وذكر ابن العماد الحنبلي في شذراته عن أم الخير وتخصصها في علم الحديث ان اهل الارض نزلوا درجة في العلم بموئها « وقد تتلمذ على عنيدة خمس مائة رجل وامرأة (المجلة الاسيوية سنة ١٩٣٠ ص ٥٠) وقرأ الخطيب البغدادي صحيح البخاري على كريمة بنت احمد المروزي التي أسهمت بنصيب كبير في تكوينه (ياقوت ج ١ ص ٢٤٧ - صلة ابن بشكوال ج ١ ص ١٣٣) وهي حافظة من رواية البخاري (كامل ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٦) وقد حدثت رقية حفيده ابن مزرع بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس والمزني وألقت محاضرات في المدينة وهي من مشاهير المحدثين وأخذت من الوزراء البخاري ومسند الشافعي عن الزبيدي وذكر الصفدي أنها كانت محدثة عصرها وروى عنها مشاهير العلماء وقد أسرعت عائشة بنت علي الدمشقية في النحو والصرف والبصائر والعروض والحديث وفتحت حلقة للتدريس وكانت عائشة المقدسية (من حفدة ابن قدامة المقدسي) سيدة المحدثين بدمشق سمعت البخاري على الحجاز وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتب عديدة والفردت في آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة في تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم وقد فاقت العروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون هذا الاخير في النحو والمنه والعروض وكانت تحفظ كامل المبرد ونوادر القالي وتشرحهما وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقي من المحدثات أجازها معظم علماء القرن السابع في الشام والعراق والحجاز وفارس والفقيهية فاطمة السمرقندية زوجة علاء الدين القاشاني ألقت المؤلفات العديدة في الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء وبلغت شهدة الدينورية بين علماء القرن الثاني عشر منزلة في اسناد الحديث لم يبلغها أحد حتى لقبت بمسندة العراق ولها رسائل عديدة في الحديث والفقه والتوحيد ولبنى الاندلسية العالمية بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم

وقد تولت عالمة زمانها فاطمة بنت قمريزان المتوفاة عام ٩٦٦ مشيخة مدرسة الزجاجية ومدرسة العادلية وانتهت اليها الرياسة بحلب

أما الشواعر والإديبات والكاتبات اللواتي نبغن في الاسلام فهن كثيرات جدا فمنهن حسب حروف الهجاء أسماء العامرية التي مدحت عبد المؤمن ابن علي في قصيدة طلبت منه رفع الضريبة عن دارها والحجز عن اموالها وأم العلاء الحجازية التي لها قصائد وموشحات

ذكرها صاحب المغرب وأم الكرام ابنة المعتصم صاحب المرية صاحبة الموشحات وأمة العزيز
الاندلسية التي ذكر جملة من شعرها ابن دحية في المطرب من اشعار المغرب وبشينة ابنة
المعتمد وتقية ابنة ابي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه واخذت عنه العلم
بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنة عن طول باع المرأة في كل ذلك
وحفصة بنت حمدون الاندلسية وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب والشاعرة الشيبية التي
كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتي وجهت الى يعقوب المنصور بقصيدة تنظم فيها من
ولاة شلب وعائشة القرطبية التي كانت تمدح الملوك وترجل الشعر ارتجالا وروى ابن حيان
انها اعقل بذات عصرها وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التي نظمته على
منوال تقي الدين بن حجة والتي درست في الشام ومصر واجاز لها العلماء بالافتاء



بنت من قبيلة ايداونديف (الاطلس الصغير)

والتدريس ولها مؤلفات في الادب والفقه وديوان شعر وكانت تكتب الادباء والحكام وتستفتي في المشاكل اللغوية والفقهية والادارية وتجتمع بالملوك فتخدمهم عاذانا مصغية وعائشة التيمورية وعليه بنت المهدي أخت الرشيد لها ديوان شعر وعمرة ابنة الخنساء والشاعرة الغسانية من شعراء الاندلس الموصوفات في المائة الرابعة وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبنات زوجة الامين بن هرون الرشيد وليلى الاخيلية ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي كانت تناضل الشعراء وتجادل الادباء وتفوق البرعاء وكانت زوجة الفرزدق أديبة نقادة يحتكم اليها شعراء العصر كما كانت مريم بنت ابي يعقوب الانصاري تعلم النساء الادب

ولا يخلو كتاب من كتب التراجم والادب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية في مختلف الميادين فهناك مصنفات في النساء المؤلفات في الاسلام وهنالك بلاغة النساء وهنالك الاماء الشاعرات وغير ذلك

وقد ساق كوستاف لوبون في حضارة العرب جملة من هؤلاء من بينهن فاطمة التي كانت تنسخ للحكم الثاني واسى اعجب العلماء برسائلها في الفنون والعلوم وخديجة الشاعرة ومريم التي كانت تعلم بنات الاسر الراقية في اشبيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات وراضية بابعة عصرها في القريض والقصص الرائعة والتي جالت في السرق حيث كانت محط هتاف العامة في كل مصر .

وورد في « خلاصة الاثر » ان بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها (ج ١ ص ٢٠٤)

ويذكرون من بين صانعات الادب التي كانت مجمعا لكبار المفكرين مجلس سكيئة في الحجاز ومجلس عليه بنت المهدي ومجلس الفضل في بغداد ونزهون في غرناطة وولادة بنت المستكفي وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم بالادب التي شاركت فيها المرأة بحضوره في القرن السادس

وهكذا انفسح مجال العلم امام المرأة المسلمة في مختلف الاعصار والامصار وقد اثار القلقشندى صاحب سراج الأعشى مشكلة الثقافة السريية فقال : « لم يرو ان احدا من المتقدمين انكر على النساء عبد الحق »

أما في الميدان العسكري فقد ذكر الطبري ان النساء كن يجهزن الجيش في حروب القادسية (ج ٦ ص ٢١٧) وضربت صفية المثل الرشيع في البطولة الاولى للمرأة المسلمة (ابن الاثير) وشهدت ام سليم والدة انس ابن مالك المغازي كلها (اسد الغابة) وشاركت أم عمارة ، مع زوجها في غزوة أحد وحرب اليمامة وأصيبت اثنتي عشرة اصابة في غمرة المعارك وصاحت خولة في جموع النساء بدمشق فأسقطن ثلاثين جنديا العدو ونقل ادوار دجيبين في تاريخه هذه الواقعة فقال : « كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديرا بالاجلال والتقدير اذ كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمي السهام واستطعن بتلك الحلال ان يحافظن على عقافهن في ظرف دقيق وموقف حرج » وفي موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية في النساء فيروزن من خيامهن واقتلعن أعمدها

وحملن ما استطعن حملة من السلاح وانزلن بالعدو هزيمة تكراء وذكر ابن الأثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم وتقدمت جورية أخت معاوية بفرقة من النساء واخذت تناضل في اليرموك حتى جرحت وفي يوم التعمير (اليرموك) كانت أسماء بنت أبي بكر تقاتل إلى جانب زوجها الزبير بن العوام وبارزت غزاة الحجاج فلاذ بالفرار وكانت والددة أسامة وأخته تحاربان في الحروب الصليبية وفي الهند قتلت رضية سبطانة الأسد بضربة من سيفها البتار وكانت تتخذ زينتها من الأسلحة والدروع وفي إحدى الغزوات



فتاة صغيرة من اهل دادس

نشر النساء خمرةن وجعلنهن ارايات وزحفن نحو العدو حتى ظن المشركون أنها نجدة وانهمزوا (كامل ابن الاثير ج ٢ ص ٢٠٧) وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الأدب والفرسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن ابي وقاص وحاضمت معه المعامع وحضرت معركة الحرة ، وكانت خولة الكمدية تفوق الرجال فروسية وبسالة وحضرت مزروعة الحميرية فتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد -

وفي القرن الاخير أخذ نساء مصر العساكر الفرنسية الى دورهن وقتلنهم ورمينهم في الآبار (رسالة نقولا الترك ص ١١١)

أما في الموسيقى والغناء فهناك المئات ممن كان لهن الباع الطويل والبراعة الحارفة وقد ذكر معبد عن جميلة الحزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنين وكان ينحاكم اليها أهل الفن في مكة والمدينة والبصرة وتعتبر عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز والفت الحان مغربية وفتنت أهل المدينة رجالا ونساء -

ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الامصار الاسلامية الى يومنا هذا من نساء ناقسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الاوربية ولكن مؤلف حضارة العرب انى صنف كتابه عام ١٨٨٠ أنه أن حالة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة اخواتهن في أوربة ، وأنه اذا كان هنالك انخفاض في مستواهن فقد حدث « خلافا للقرآن لا بسبب القرآن » وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعورا بمركزها الممتاز الذي خوله ايها الاسلام الذي ضرب المثل السامي فيه نساء كن رمز النبوغ والظهر والعفاف ازيد من ثلاثة عشر قرنا .

عالمات المغرب وادبياته في مختلف العصور

لعبت المرأة المغربية دورا بارزا في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ واذا لم يكن هذا الدور ناصعا في كثير من الاحيان فإنه لم يكن كذلك باهتا اذا لاحظنا ان الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملا اقتصاديا فكانت المرأة ربة البيت وراعيتة والمشرفة على الحقل والسوائم في البادية والصناعة الماهرة في الحضر والوبر وللمرأة حقوق اقتصادية اكثر مما للرجل لان الاسلام يخولها حق الانفاق في السر من مال زوجها بينما يحظر على هذا التصرف في مال زوجته بدون أذنها وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومشارجه الا في النادر بل ان بعض النساء اظهرن براعة ادارية ونباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لازواجهن الامراء والرؤساء وساهمت المرأة كذلك بحفظ وافر في الاسعاف ورصد الاوقاف للمعوزين واقامة المعاهد ويكفي ان تعلم ان جامع القرويين انما اسسته فاطمة ام البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام ٢٤٥ هـ بينما اقامت

اختها مريم جامع الاندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالى القرن الرابع الهجرى
وصار بعد ذلك اكبر فروغها
وقد نبغت فى العهد الادريسي الاميرة الحسنى بنت سليمان النجاشي زوجة المولى ادريس



امراة من زايان تحمل تاجا من فضة

الازهر الذى كان لايفعل شيئاً الا بموافقتها وكانت اليها المشورة فى دولته (الدرر السنية ص ٨)
 وقد اشار محمد الكانوى فى مخطوط له حول « شهيرات المغرب » الى بعض من
 نبغ من النساء فذكر عاتكة بنت الامير على بن عمر بن ادريس زوجة الامير يحيى ابن يحيى بن
 محمد التى كان لها أثر فى مصير السياسة الغربية وخروج الدولة من بنى محمد بن ادريس الى بنى
 عمر بن ادريس وكان الناس قد قاموا على زوجها الذى مات بفاس غما فاستنجدت حى
 بوالدها على بن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرهما من الريف الغربى فجيش الجيوش
 واخذ الثورة واسترجع فاسا عام ٢٨١ هـ وقد ذكر صاحب المعجب (ص ٤١) ان فى
 دولة الحموديين الادارة لم يثبت محمد بن ادريس الا بفضل رباطة جاش والدته التى كانت
 تقوى منته وتشرف على الحرب بنفسها .



امراة من قلب الاطلس الكبير قرب ازىلال

٨) وقد اشتهروا الى الم الم الحسن بنت سليمان بن اصبغ المكناسي تلميذة بقي بن مخلد كانت تنقرد بكل يوم جمعة لاخذ العلم في داره (الذيل والتكملة)

وفي عهد المرابطيين اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف ابن تاشفين احدي نساء العالم المشهورات بالبحر والرياسة ولها بنى ابن تاشفين مدينة مراكش كما في «الاستبصار» وكذلك تيممة بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة النادرة ، جمعت ثروة اشرفت على ادارتها بنفسها وكان لها كاتب تحاسبه وهي تكنى أم طلحة وكانت مشهورة بالادب والكرم ذكرها ابن الأبار في «آخر كتابه» في النساء وابن القاضي في (الجنوة ص ١٠٦) وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دورا في سياسة الدولة وكان الامير يدير كل الشؤون العمومية باشارتها وكانت حواء بنت ابراهيم الموفى تقرأ وتحاضر بالادب كما كانت اختها زينب تحفظ جملة وافر من الشعر وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها

وقد قامت فانو بنت عمر بن بختيار بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللتونية فهي من البطلات التي يحق للمغرب ان يخلد ذكرها فقد استماتت في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش وناضلت نصف يوم قبل ان يستسلم اسحق ابن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام ٥٤٥ هـ وقد أثار استبسال هذه العذراء اللتونية اعجاب الموحدون في ذلك العصر

وفي أيام الموحدين درست أم هاني بنت القاضي عبدالحق بن عطية على ولدها واخذ الناس عنها العلوم وهي والددة ابي جعفر احمد الاديب طبيب المنصور ولها تاليف في الوعظ والارشاد (ابن عبد الملك) وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المومن علم الاصول على أبي عبد الله ابن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة . وذكر ابن عبد الملك انها ولدت بالاندلس وتزوجها ابن عمها زيد ابن حفص وكانت عالمة صائبة الرأي معروفة الشفوف على نساء زمانها (الذيل والتكملة)

وحفصة الركونية كانت استاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت اديبة زمانها (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ١٦٥) بل استاذة عصرها (الاحاطة) وهناك ايضا ام عمرو بنت ابي مروان ابن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوى نساء القصر واطفالها وكانت تستفتى في الطب ولها بنت هي ابنة ابي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة وورقاء بنت ينتان الفاسية الادبية الشاعرة وهي طليطلية سكنت مدينة فاس وتوفيت عام ٥٤٠ هـ (الجنوة ص ٣٣٥)

وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بغرناطة وامة العزيز السبئية لها اشعار رائعة وام العز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن ابيها صحيح البخاري وزينب القرقولية سمعت على ابيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغساني نزيل مراكش واغمات استاذة في القراءات السبع (تكملة ابن عبد الملك) وام المجد مريم بنت ابي الحسن الغافقي الذي فتح مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم اول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجز المسندة محمد بن القاسم السبتي في «اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سني الآثار» (ص ٥) وخيرونه الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلاجي امام اهل فاس في الاصول ولها الف العقيدة البرهانية على طريقة الاشعري

ويقال بأن بنت المهدي بن تومرت حاربت يومًا كاملاً بعد رجوعه إلى تينمل من محاربة الممتونيين لتبرهن له أنه ترك خليفة جديراً به فسر بذلك (رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد للفقير السيد محمد بن الحاج إبراهيم الزرهوني من تاسفت بوادي نفيس) وهي أسطورة شائعة وإن كان المهدي لم يعقب حسب روايات أخرى



بنت من واحة تاكموت (جنوبي الأطلس الصغير)

ونبغت في عهد المرينيين فاطمة وأم هاني بنتا محمد بن موسى العبّوسي وهما فقيهتان ومُؤسّستان
الفقيهة جدة الشيخ زروق وسارة الحلبية الفاسية وهي استاذة شاعرة من طبقة عالية في الادب
توفيت بفاس حيث اجازت عبد الله بن سلمون ولها قصيدة اجابت بها ابن رشيد السبتي
ومدحت في اخرى مالك بن المرحل ومن النساء البارعات صفية العزفية السبتية وهي من
فضليات نساء عصرها في العلم والصيانة وصيغ جارية الحكيم الجزنائي فيلسوف المغرب
وطبيب وكاتب ديوان الاسماء في دولة ابي الحسن المريني لقنيتها العربية فنظمت الشعر (جذوة
الاقتباس ص ٥٨)

وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي السبتي اجاز لها ابن رشيد عام
وفاته ٧٢١ هـ «ازهار الرياض» واما الرحيم السبتية اجاز لها جماعة وام قاسم زهرة جدة الامام حسن
المرادي الآسفي المعروفة بالشيخة

ولم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن المرأة العربية في شجاعتها ورباطة جأشها
لا سيما في الصحراء او الجبال التي انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون وكانت
قبائل بني مرين تخرج بجميع العيالات في الحرب كما وقع في الغزاة التي تقابل فيها ابو
يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان في تلمسان حيث برزت الجمال المحلاة
والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجواري المولدات تقودها الرجال في احسن
رؤى وأتم جمال (الذخيرة السنية ص ١٤٦)

ولما قامت عامة مدينة فاس على السلطان عبد الحق المريني قاموا محمد بن علي الجوطي
اماما فبقي الى سنة ٨٧٥ حيث عزله ابو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي
وبقيت فاس في يد أخت ابن الحجاج الزهراء المدعوة زهور مع قائده الشكيري الى أن تولى
الامير محمد المدعو الشيخ بن ابي زكرياء الوطاسي (الجذوة ص ١٢١)

وفي عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسع في الميدان السياسي
فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس (النصف الثاني لعام ١٩٥٦ ص ٢٢٢) وولدت
هذه السيدة عام ٩٠٠ هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر ان مادرس اللغة الاسبانية لان والدتها
لالة زهرة اندلسية تزوجت على بن راشد قائد شفشاون عندما كان يجاهد وهو شاب في
العدوة وبذلك كان للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسي الذي لعبته فقد تزوجت
على المنصري وانتقلت معه الى تيطاون حيث وجدت وسطا اندلسيا مثقفا رقيق الحاشية
كالذي رببت فيه وكان زوجها في نضال مستمر مع البرتغاليين في طنجة واصيلا وكذلك في
سبتة مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التي كانت تحاك في ذلك العصر ضد
المغرب وقد وهم كاتب المقال حيث اعتقد ان الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو
خلاف ما يفهم من كلام ابن عسكر في (دوحة الناشر طبعة فاس الحجرية ص ١٩) وقد نبه على
هذا الغلط صديقنا الاستاذ محمد داود في «مختصر تاريخ تطوان» (ص ٣١)
وعندما مات المنصري تزوجت مولاي علي بن عمر الحسني وولدت بنتا زوجتها لاحد حفدة
المنصري الذي كان والده قائدا في تطوان والذي عرفت كيف تنحيه لتجعل صهرها الشاب في
منصبه وتستبد هي نفسها بالقيادة المطلقة في تطوان وبالجهد ضد المسيحيين وكان لها

بواخر تقرصن فى الشواطىء الاسبانية كما كانت لها علائق طيبة مع الاتراك وسلطان فاس
وفى عام ١٥٤١ تزوجت السيدة الحرة مولاي احمد الوطاسى الذى تركها فى تطوان وكلفها بالاتصال
بالبرتغاليين وكان لها تشاحن مع والى سبتة التى كانت تطمح هى الى احتلالها بينما كان الوالى
البرتغالى يطمع فى تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب



أما تمدين السعديين فقد تم على يد العريفة بنت بنجو التي لقنتهم مظاهر الحضارة الملوكية لاسيما داخل القصور والبيوتات (تاريخ الدولة السعدية ص ٢٥) وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي عناية باصلاح الله بل وعمارتها وتشبيد الحانات بالامكنة الخالية وبناء القناطر (اصلحت جسر وادام الربيع عام الف) وتجهيز اليتامى وتزويج الارامل وهي التي اسست مسجد باب دكالة بمراكش عام ٩٦٥ ووافقت عليه نحو سبعين حانوتا وغيرها واقامت بازائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة و ذخائر كتبت على بعضها بخط يدها والاميرة سحابة الرحمانية ام عبد الملك الغازي التي لعبت دورا كبيرا في حمل الخليفة التركي على اصدار امره لوالي الجزائر بمساعدة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام ٩٨٣ وام كلثوم بنت الشيخ بنصر قرات الوغليسية في الفقه والبردة في السيرة والنساء الناصريات في درعة متعلمات على وجه العموم ولا نطيل بسرد اسمائهن .

وفي العهد العلوي طار صيت الاميرة خنثة بنت بكار المغاربة زوج المولى اسماعيل فقد ذكر صاحب الجيش (ص ١٠٥) انها حصلت العلوم وقد كتبت على هامش الاصابة لابن حجر وكانت تصدر عنها ظواهر ومراسيم في بعض الشؤون القبائلية في عهدي مولاي اسماعيل وولده عبد الله وكان زوجها يستشيرها في بعض الشؤون وقد قال عنها الرحالة الاسحاقى انها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير

ومن النساء العالمات عائشة بنت بونافع القاسية والدة عبد المجيد الزبادي كانت تحضر مجالسه العلمية والزهره بنت محمد الشرقي زوجة اليوسى كانت شiche فقيهة اخذت عن زوجها بالاجازة جميع مروياته واخذ عنها ابن اخيها اللغوي محمد بن الطيب الشرقي وخديجة بنت عبد الله الحوات كانت تعلم النساء المنقطعات وسكينة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين والفقهاء فاطمة زويتن وام قاسم الحسنوية ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الادبية الفقيهة العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة واسرار الحروف والاسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون - كما يتون الكانوني وكانت في مجالس التفسير تتوخى اسباب النزول وعلوم القرآن وانساب العرب والتاريخ توفيت اوائل القرن الرابع عشر وصفية بنت المختار العاملة في التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهي شنكيطة ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمي التي كانت راوية الاشعار ومشاركة في العلوم واختها ربيعة التي كانت لها عارضة في الادب والشعر نقادة للشعراء وهند زوجة ماء العينين المشاركة في مختلف الفنون وخديجة بنت الامام محمد العتيق وكانت تبذل في العلم عالمات عصرها بل وكثيرا من علمائه وقد نبغت في الشعر فتاة في شنكيط اسمها مريم كما في « الوسيط في ادباء شنكيط » (ص ٣٣٧)

وفي اوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران تدرس المنطق في جامع الاندلس من وراء حجاب وكان لها ضلع في مختلف الفنون واذا صدقنا رواية احد طلبة القرويين الذين روى عنهم مولييراس حوالى ١٨٩٥ نلاحظ ان غالب نساء فاس مثلا كن قارئات لهن المام بالادب خصوصا قصائد الامام الغرناطي وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر

ولا نكاد نحصى الاستاذات او النسوة المثقفات اللواتى كن يعشن فى حواضر المغرب وبواديه
وقد أشار صديقنا الاستاذ محمد داود فى « مختصر تاريخ تطوان » (ج ٢ ص ٢٩١) الى
لا غيلانة فوصفها بالفقيهة الصالحة العاملة الزاهدة واسمها ءامنة ابنة الفقيه
الصالح سيدى محمد غيلان وقد « علمها والدها القرآن والعربية والفقه والحديث فكانت عالمة
نساء البلد صالحتهن تعلمهن أمور دينهن » توفيت عام ١١٨٩هـ

وقد لاحظ كابريل شارمس فى كتابه « سفارة الى المغرب » ان البطلة البربرية التى كانت
تحكم قبيلة عايت زدك الجبيلية والتى تسمى رقية بنت حديد وكانت تتقن الفروسية رغم
بلوغها الستين سنة وقد هاجمت مرة تشكيلة فرنسية يقودها الجنرال ازمون الوالى العام
للجزائر بالتيابة عن الجنرال شانزى (ص ٢١٥)



ومن الشيخات اللواتي تلمذهن علماء مغاربة :
الشيخة الاستاذة الادبية الشاعرة سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبي لقيها
عبد الله بن علي ابن سلمون الكتاني بفاس فأجازته والبسته خرقه التصوف وأنشدته قصيدة
اجابت بها ابن رشيد السبتي وقد اثبت ابن القاضي في الجذوة ابياتا منها ومدحت امراء
الاندلس ورؤساء سبتة وشعراءها (جذوة الاقتباس ص ٢٤٥ و ٣٢٤)
وشهدة بنت احمد بن الفرج الابدية ذكرها صاحب الجذوة في شيوخ محمد بن عبد الرحمن
التجيبى الاشبيلي وهو من الواردين على المغرب *
وقد سمع أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشارقي البليسي نزيل فاس من كريمة المروزي
(الجذوة ص ٦٨)

ومن شيوخ ابن بطوطة في بغداد الشيخة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل علي بن
علي بن ابي البدر (الرحلة)
وكان النساء المغربيات يخرجن لاستقبال العلماء ويحضرن جنازات الائمة الكبار
ولما قدم سيدي ابو جيدة من المشرق خرج أهل فاس كلهم للقاءه الا من شذ فكان
الرجال في ناحية والنساء في ناحية أخرى فسأل عن النساء فقيل له خرجن فرحا واجلالا لك
(السلوة ج ٣ ص ٩٠)

كما كان النساء يحضرن دروس العلوم كدروس شيخ الاسلام محمد الطيب بن كيران
وكن ينتفعن به لسلاسة عبارته وفصاحة لسانه (السلوة ج ٣ ص ٢)
وذكروا أن شيخ الاسلام حافظ المغرب عبد العزيز بن ابي عمران العبدوسي الفاسي
كان الناس يتسابقون الى المواضع في مجلس درسه قبل الصبح رجالا ونساء وفي خارج
المسجد اكثر (نيل الابتهاج لاحمد بابا السوداني ص ١٥٨)

وقد حكى موليراس في كتابه « المغرب المجهول » أن للمرأة في الريف نفوذا كبيرا على الرجال
فهى الآمرة الناهية كما هو الحال في كثير من الاوساط الاسلامية سواء في المغرب أم في تونس والجزائر
وقد وهم الاوربيون الذين يظنون أن المرأة المسلمة تعيش تحت رحمة زوجها (ص ١٣٣ - ١٣٤)
وفي بعض القبائل الريفية مثل قبيلة بنى بشير مازال النساء يتكلمن بتمازيغت فى حين أن
الرجال يستعملون العربية لقربهم من جباله وتمتاز المرأة بالشجاعة وهى نساجة ماهرة وتشتهل
بالاعمال الفلاحية كما تتسم بطهرها البالغ ولعل الرجال أقل بسالة من النساء فى هذه الجهة
والمرأة سافرة فى معظم الريف أما فى جباله التى تتكلم بالعربية - باستثناء بعض المناطق الغمازية
- فان المرأة تتنقب مستعملة احمار التلمساني فى فشتالة وبنى ورياغل وسلاس وجاية وبنى
سميح والويل كل الويل لمن خاطب امرأة فى الطريق ويعذب الزانى فى بنى زروال حيث يطوف
فى الازقة وتفقأ عيناه بحديدة محماة أما الزانية المحصنة فانها تحمل بعد التطواف الى اكبر
سوق فى القبيلة بحيث تلفظ نفسها الاخير تحت السياط واذا استمر تعذيبها الى الشفق
أطلقت رصاصه فى رأسها لجعل حد لعذابها ويجرى نفس العذاب على سارق السوائم التى تسرح
بدون راع فى الجبال

والمرأة الريفية جميلة ولود قد أحصى لبعضهن خمسة عشر من الاطفال ولا يحب الريفيون

النسوة العاقرات فاذا طلقت المرأة لعقمها لم يعد لها أمل فى الزواج ومع ذلك فالاعراض مصنونة فى الريف كل الصيانة ويذكرون أن لبنى ورياغل غيرة فائقة على نسائهم وانهم لا يسمحون لاجنبى أن يوجد حتى عن طريق الصدفة بالقرب من نسائهم فاذا رأى الرجل امرأة فعليه أن يبتعد عنها دون أن يتبعها النظر والا تعرض لنيران بنادق أقاربها وكذلك الامر فى القلعية وهى جانب من صحراء الريف « حيث لا يتمازج مع عرض النساء » والمرأة الورياغلية رائعة الجمال وكذلك الرجال والمرأة هى المشرفة على الشؤون الاقتصادية والاحتياجات ويعمل تحت أمرتها مرتزقة أجانب



وفى مشيوة تمتاز المرأة بحسنها الرائع وهى تنزج فى الغالب بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وقد اكد موليراس الذى ألف كتابه عام ١٨٩٥ أن الصداق بلغ أحيانا خمسة آلاف فرنك

وكانت توجد فى الريف أسواق مخصصة للنساء لا يشاركهن فيها رجال كالسوق الذى يشهد فى سيدى مالك فى قبيلة بعيوة وكسوق مريسة ولكن توجد فخذة فى الريف هى بنى عروس تزاوّل فيها المرأة الرقص ولا تهتم هذه القبيلة كلها

الا بالموسيقى حيث لا تسمع سوى نغمات المزمار ورنات الاناشيد وفى تمسمان تجرى عادة «الكرنفال» - وهى عادة لا تعرف فى باقى ربوع المغرب وتشارك المرأة فى تمثيلها الشعبية التى لا يخلو بعضها من اسفاف (موليراس ص ١٠٧)

وفى بنى توزين تضرب الامثال بجمال المرأة التى هى فى نفس الوقت شجاعة تشارك الرجل فى المعارك وتنجز الاشغال الشاقة بنفسها وتحصد وتحطب وتسقى وتفلح الحقل وهى تلبس الحايك وتغطى سيقانها بجلد كالجرب وهى عفيفة ولود تقوم بتربية أبنائها أحسن قيام وترضعهم الى السنة السادسة أحيانا ويذممت تحمل المرأة جميع الاعباء المنزلية اجتماعيا واقتصاديا اذا بالرجل يقضى أوقاته كلها فى صنع البارود لنقله الى السوق حيث يهتم الرجال كثيرا بالدفاع عن حوزة القبيلة

وفى كزناية تحضر المرأة فى مداولات مجلس الجماعة متقلدة بدقيقتها التى تستعملها بمهارة وتلبس قبة واسعة تجعلها أشبه بالجندى المقبل على العراك

وفى قبيلة بنى بويحيى بلغت الغيرة على المرأة مبلغا كبيرا الى حد أن رجلا من بنى سعيد خاطب مرة بعض النسوة بشىء من الفحش فثارت القبيلة كلها ضد قبيلة الشخص المتهم واستدام الحفاظ بين القبيلتين التى لم يكد النضال يفتر بينهما

وفى بنى سعيد تلبس المرأة الثياب القطنية الانجليزية والاسبانية ويلد لها أن تعوم فى سباح سى-ى عيسى وكثير من النساء يتقن هذا النوع من الرياضة

وفى قبيلة الاخماس حيث ينتشر العلم كانت الفتيات يلقن أول القرن الحالى مبادئ القراءة والكتابة فى العائلات الموسرة بل منهن من كن يحفظن القراءات ويدرسن الفقه والحديث وكانت البنات تقوم فى المنزل بتعليم اخواتها وتخرج الى الشارع متقنة

وما اكثر نواحي جباله التى تعرف فيها المرأة القراءة والكتابة أما الرجال فان ثلاثة ارباعهم يعرفون القراءة والكتابة فى قبيلة الاخماس مثلا (موليراس ج ٢ ص ١١٣) بل ان أغلبية سكان بنى سلمان من هذا القبيل وفى بنى كزير بغمار لا يوجد أى أمى فالرجال والاطفال كلهم طلبية والنساء من اللواتى ينجزن جميع الاعمال المنزلية وغيرها وكثيرا ما يهاجر السكان الى القبائل الاخرى لتدريس القراءات وتعليم الاطفال مبادئ الدين ومنهم من يتوجه الى الجزائر وتونس ومصر وحتى سوريا

وفى غمارة توجد منذ القديم مدارس قرآنية مختلطة للذكور والاناث تسييرها استاذات والواقع أن تعليم البنات لم يكن الا فى العائلات الثرية ولكن لا تتردد كثير من الاسر فى ارسال بناتها الى الكتاتيب المخصصة للذكور فاذا راهقت البنات احتجبت وواصلت دراستها بمعونة الابوين أو الاخوة

وفى جنوب الريف (بوسلامة وابن احمد الخ) تتعاطى المرأة النسيج وهى سافرة وسجاعة
مثل أخواتها الريفيات تستعمل البندقية بمهارة ضد الثعالب والضباع التى تهاجم قطعان
الماشية فى مراعى الجبل

وفى قبيلة مزيات اعتادت الفتيات المراهقات الخروج سافرات والتحدث الى الرجال
والمساهمة فى الالعاب دون أن يقع بين الفريقين ما يهتك عرض الفتاة ولكن عندما تتزوج هذه
البنات تغالى فى التحجب حتى انه لا يظهر من سر بالها القطنى الابيض سوى عين واحدة ومعظم
النسوة طامحات عاملات



وفى الدسول (لا التسول التى توحد بناحية تازة) تساعد النسوة المتحجبات ازواجهن فى نسج الملبوسات وصنع القفاف والقبعات وحصر الحلقة بينما يحتكر الرجل صنع البارود لغلبة الروح العسكرية فى الجبل ومن الظواهر الملحوظة فى جبالة (وسوس) عدم نياحة النساء على الموتى الذين يشيعون عادة بالزغاريد وهذا التجلد الصامت عند المرأة الجبلية ينم عن قوة نفسية وعن رباطة جأش وتبسط الموائد فى مثل هذه الحالة طوال أربعين يوما وليلة تذوب خلالها تركة المرحوم

وفى بنى مسارة كذلك (حولوزان) كانت الكتائب دائمتوافر حيث يختلط الذكور والاناث وفى الساعة الرابعة من كل يوم تنصرف كتائب من الرجال (بين ٥٠ و ١٥٠ شخصا) لتتدرب فى كل قرية على لعب الكرة والرماية والمسايفة وتوجد فى كل مركز قروى زاوية للرماة وهى عبارة عن دار للسلاح فيها بنادق الجماعة وبارودها وتجرى التمارين كل يوم خارج المدرس تحت أمرة كبير الزاوية الذى هو القائد الاعلى للرماة المتراوحة أعمارهم بين ١٥ و ٧٠ سنة وعند عودة هؤلاء فى المساء تسمع رنات الطلقات النارية متجاوبة مع زغاريد النساء اللواتى ينتظرن أزواجهن وأولادهن على عتبات الدور !

وهذه الزوايا العسكرية كانت منتشرة من طنجة الى رادى درعة (وبالأخص السوس والحوز) ومن خواص الزواج فى جبالة أن العروس تقضى أسبوعا كاملا متنقلة بين دور أقاربها صحبة ثلة من صواحبها فى ثياب بيض متقنعة من الرأس الى الأخص وخلال هذه الايام تقام حفلات وماآدب فى كل مكان حلت فيه وفى اليوم السابع تنتظر وصول الوفد الذى يزفها الى الزوج وسط موجة من الطلقات النارية

وطوال اسبوع لا يختلى الزوجان الا نحو من ساعة فى كل ليل ثم يتعطف الزوج نحو اصدقائه ليقضى بقية ليلاليه فى السمر وتعود الى الزوجة صديقاتها وتجرى حفلات الرجال والنساء فى جناحين منفصلين من الدار حيث تقضى العادة بالموت المحقق لمن تسول له نفسه الاقتراب من ملاعب النساء

ومن مهام المرأة هنا تربية دود القز وصنع الحرير واصداؤه الى كل من مراکش وفاس وفى القبائل المحاذية لتطاون لبس المرأة المتزوجة قبة واسعة مصنوعة من سعف الدوم وكذلك الفتاة عند ما تبلغ العشرين من عمرها ولو كانت غير متزوجة وتدير النساء القاطنات فى قمم جبالة « الترابق » الجلدية على سيقانهن لا تقا، لذغاب الافاعي ومن الغرائب فى جبالة از الحامل تضع وهى واقفة وتنظم الحفلات الصارخة اذا كان المولود ذكرا أما اذا كان بنتا فانه لا عقيقة ولا ضحية ولا زغاريد ولا طلقات نارية وهى عادة غريبة متغلغلة فى الجاهلية الاولى

وفى قبيلة بنى احمد - السرف حيث تتوافر الكتائب القرائية ويتوارد الطلبة من طرابلس والجزائر وتونس وكوزان (لانها قبيلة مشهورة بالبركة فى العلم) يتعاطى معظم السكان - رجالا ونساء - العلم كما يساهم الجنسان فى صناعة الصابون والحصر والزراوى والمخالى والاطباق

ومن هذا العرض يتضح أن جبالة التى تعتبر مساحتها ضعف مساحة الريف وتحتوى على اثنتين وخمسين قبيلة فى وسعها أن تجرد ثلاثمائة الف جندي لمعاربة الدخلاء الاوربيين كانت دائما

مضطرة لان تترك للمرأة الاعمال الاقتصادية والمنزلية لينصرف الرجل بكليته الى الفروسية
والرماية استعدادا للطوارئ -

وهو يعطينا صورة عن اسهام المرأة البدوية فى الحركة الفكرية النسوية ومزاحمتها للمرأة
الفاسية التى ذكر السخاوى فى « الضوء اللامع » عشرات من الامثلة عنها



في الاطلس والصحراء

ولعل من العسير - رغم وحدة الاعراف على وجه العموم في مجموع افريقيا الشمالية - استقراء جزئيات الاعراف البربرية لقلة الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها تلك القلة الراجعة لتكون اللهجات البربرية لا تكتب اللهم الا عند التوارك حيث توجد حروف تيفيناغ ويلاحظ أن النساء يعرفن وحدهن الكتابة عند هؤلاء البربر وهن قلائل على أن هذه الوسائل لم تستعمل لنقل نصوص العرف أبا عن جد وحتى في القبائل البربرية التي تستعمل اللغة العربية لم يسجل سوى اليسير من الاعراف (باستثناء ناحية مزاب)

ويتصل جانب كبير من العرف بالمرأة التي يحظر عليها مثلا - مهما يكن سننها ومستواها الاجتماعي - أن تكون عضوا في الجماعة حتى ولو سمح لها بأن تكون على رأس عائلة بدلا من الرجل وليس معنى هذا انه ليس لها حق اسماع صوتها واقناع الجماعة بمشاطرتها الرأي فذلك كثيرا ما يقع لاسيما اذا كان للمرأة تأثير في المجتمع وزيماناب عن المرأة في ابلاغ رأيها الى مجلس الجماعة أحد أعيان القبيلة

وهناك ما يسمى عند البربر بالمزرك وهو شبيه بالاجارة عند العرب أي الرابطة الناتجة عن اتفاق حاصل بين فرد من الجماعة وفرد آخر أجنبي عنها فالحامي او المجير يسمى الزطاط والجار أمز دور وهذه الوثيقة تفرض على مجموع القبيلة حماية الأجنبي بل ان المسؤولية الجماعية تقوى اذا كان الشخص المجير امرأة

والمرأة البربرية محرومة من الارث وحتى في المناطق التي يجري فيها العمل بالفقه المالكي تقع تحبيسات أو أنواع حاصلة من الشفعة للحيلولة دون انتقال حقوق المرأة العينية الى الرجل الأجنبي فحرمان المرأة من الارث لا يقصد منه معارضة حكم الاسلام وانما هو ناتج عن الخوف من تسرب الاجانب الى الملك العائلي

اما الزواج فانه يصطبغ سواء عند البربر أم عند العرب المسلمين بصبغة مقدسة ولا ينطوي على أية فكرة للتملك كما يزعمه الاجانب الذين يأخذون على الاسلام احتقار المرأة واعتبارها ملكا سائعا للرجل وقد اشاد سوردون بنفوذ المرأة في المغرب عند الامازيغيين (المؤسسات والاعراف عند البربر ص ٢١٨) واذا استثنينا الارث وجدنا أن المرأة البربرية تتمتع بحقوق منها أن تكون ربة البيت وان تتبنى أجنبيات وتلحقه بالقبيلة وان تحمي الاجانب ولها حق الفرار اذا لم ترض بزوجها مثلا فله هو حق الطلاق ولها هي حق الفرار وتقوم بدور الخطبة جماعة من ستة الى اثني عشر فردا من أقرباء الزوج يكونون في نفس الوقت شهودا في العقد وتقدم هذه الجماعة قربانا الى الوالد فاذا ذاق منه بمحصرها يعد قبولاً واذا رفض الاكل أو بادر بذبح كبش فان ذلك يعد منه رفضا للزواج أو تحفظا على الأقل وبالقبول تبثدي عملية الاملاك « اسرورت » ويرسر الخطيب هدايا الى نساء خيمة زوجته ويطلب رأي الزوجة اذا كانت ثيبا فاذا كانت بكر اكتفى نظريا برضى الوالد ولكن بما أن الزوجة تتمتع بحق الفرار اذا زوجت عن غير رضى منها فان اهلها يطلبون نظرها عمليا والمرأة البربرية سافرة اللهم الا في بعض المقاطعات في الشمال والجنوب حيث تستتر المرأة بيديها أو تستدير الأجنبي اذا مر في الطريق

وعند وفاة الزوج يمكن لورثته التعرض للزواج ازمئلته اذا كان الهالك قد سلم صداقا لوالد الزوجة ويسمى هذا الصداق « عتيق » ولهم أن يصروا على هذا التعرض الى أن يحصلوا من الزوج الجديد على نفس المبلغ ولا يعترف العرف بالزواج الواقع غلطا ولو أدى الى حمل لان فى ذلك اخلايا بمصالح الجماعة وتهديدا لوجودها السياسى والاجتماعى وحتى فى حالة الطلاق يتعرض الرجل فى زواج مطلقة الى ان يحصل من الزوج الثانى على نفس مبلغ « العتيق » وله أيضا أن يتعرض فى زواجه من اشخاص معلومين اذا ثبت لديه انه كان لها بهم علائق أئمة وهناك قبائل تجرى فيها زواجات جماعية أولا يدفع فيها عتيق ففى آيت يزة (آيت حديدو) مثلا ينقد موسم يستمر من ٢٣ الى ٢٥ شتبر من كل سنة تحضره جماعات من الفتيات أو الارامل أو المطلقات (فى كل جماعة نحو سبع أو ثمانى نسوة) لابسات اجمل حللهن فاذا وقع اختيار رجل على احدهن خاطبها فتجيب بالقبول أو تدير رأسها علامة النفى وكذلك الامر فى موسم تزروالت (سيدى احمد موسى)

اما فى آيت عيشة وبعض قبائل ازلال فان الزوج لا يدفع العتيق بل العتيق ممنوع فى آيت شحمان (آيت داود) وانما يدفع الزوج وعائلته مهاب للزوجة ولغيرها وعلى هؤلاء ارجاعها للزوج عند انحلال العصمة بالطلاق أو الموت واذا رنت المرأة على مشاركتها فى الجريمة أن يؤدى الى الزوج - حتى ولو لم يكن قد دفع العتيق - مبلغا برسم لدية والا فسخ الزواج ولو بعد الدخول والمرأة الايم (تعالت ويقال هجالة فى حواضر المغرب) تتمتع بحرية كاملة بل يقال بان فى آيت حديدو مثلا تتزوج الفتيات ويحصلن بالخلع على الطلاق ليصبحن ايامى وتجبر الايم فى كثير من القبائل على التزوج باحد اخوة الهالك ولايسمح لها بالتزوج بغيرهم الا اذا عدلوا عن الزواج بها ويحظر الزواج باشخاص يمارسون بعض المهن كالحدادة والبهلوانيين (الحلايقية) والباعة الجوالين والعبيد لعدم استقرارهم فى القبيلة وفى حالة الزواج بالاجنبى المقبول فى القبيلة يتم الاتفاق على عقدة للزواج والشغل معا

والبربرى لايتزوج عمليا الا بامرأة واحدة لاسباب منها الفقر وتعذر العول والمرأة مساعدة لزوجها تشاطره حياته الساقطة والعسكرية وتساهم فى أعمال الحقل والهجرة حسب الفصول وعند شبوب الحرب تقوم المرأة بتموين المجاهدين بالطعام والعتاد حتى فى الصفوف الاولى للقتال وتحض المرأة الرجال على الصبر والمصابرة واذا فر مجاهد من ساحة العراك تسم النساء جلبابه بالحناء فيصبح مسخرة الجميع لان المرأة تفضل أن يموت الرجل عن شجاعة واستبسال كما هو الحال عند العرب

والمرأة المعتدة تلبس البياض وحذائين من لون ناصع ويعترف العرف للمرأة بحق فسخ الزوجة بالفرار عند اجنبى وذلك عند اضرار الزوج بها أو عدم انفاقه عليها والواقع أن الزوجة تفر عند ما تصبح حياتها الزوجية غير موافقة ولا يترتب عن هذا الفرار الطلاق البائن الا اذا تكررت الهروب ثلاث مرات فعند ذلك تعلن الجماعة الطلاق وعند غياب الزوج سنة كاملة يصح من حق المرأة أن تطلب من الجماعة اعلان فسخ الزواج وعلى زوجها الجدد اداء ثلثى العتيق الى وربة الغائب اما بسوس فان وضع المرأة لا يختلف عنه فى باقى النواحي البربرية عفاا ونشاطا واحتراما عند الرجل فالمرأة ربة البيت ترعاه وتتحمل جميع اعبائه الاقتصادية والاجتماعية

والحجاب غير موجود فعلياً وإنما هو في الغالب حجاب بدوي لا يعدو ستاراً من الحياء يجعل المرأة تتحاشى الرجل ما أمكنها أو تغطي وجهها بذيل رداؤها عند مقابلة الرجل وتوجد كما في الشمال أسواق خاصة بالنساء مثل أسواق حاحة وسهول شتوكة وهناك أسواق تخصص فيها أجنحة للنساء لعدم اختلاط الحسيين والمرأة هي التي تتكفل بشراء وبيع بعض المواد كالصوف والحناء والفواكه والبيض وهي التي تسمد الحقل ويجمع النساء لنقل الأسمدة في قفاف على رؤوسهن ويكتفى الرجل بزوجة واحدة ويعيش العائلة في منزل واحدتهما تشعبت بزواج أفرادها



وتسرى روح النشاط من السوسيين الى نسائهم وفي ذكر البكرى فى مسالكة فى القرن الخامس « أن أهل السوس وأغمت أكثر الناس تكسبا واطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب (ص ١٦٣ الجزء الخاص بالمغرب)

ووضع المرأة البربرية ليس واحدا فى جميع مناطق افريقيا الشمالية فحالة المرأة الاباضية فى مزاب على خلافها فى الاطلس فالزوج لا يخرج زوجته خارج منطقة مزاب بل محظور عليه ان يدخل امرأة اجنبية الى هذه المنطقة وللزوج أن يمنع زوجه من الخروج ولكن عليه أن يجالسها فى الدار ويسكنها فى محل صالح ولا يتزوج الرجل الا بواحدة لان فى وسع زوجته منعه حتى بالتسرى ولها عليه كسوة الصيف والشتاء والخمار والاحذية والمشط والكحل والحناء واذا حرماها من ثياب الشتاء مثلا وقع جلداه وليس من حق الرجل أن يفرض على زوجته النسيج أو العجن أو الطحن أو غسل الثياب ولكن على الزوجة اعداد طعام زوجها الشخصى ولو كانت لها مائة خادمة وليس للمرأة حق الفرار ولكن لها رفض بعض انواع الزواج أو اشتراط حق الطلاق فى العقد وعملها عادة فى مزاب شبيهة بما عند « القبائل » الجزائرية وهى منع الطالق من الزواج لانها تظل على « رقبته » ويجبر على الانفاق عليها لهذا يضطر غالبا الى رفع الحجر عنها وكان الصديق فى مزاب لا يعدو قبل الحرب الاخيرة ٧٥٠ فرنكا للغنى والفقير

وعند المزابيين ما يسمى بالغسلات وعددهن خمس فى غرداية مثلا حيث يتم الوفاق على تأليف مجلس « حلقة الطلبة » ومن يتحكم فى النساء ويفرضن عليهن نظاما عرفيا خاصا ويحرسن من غاب زوجها ومن فى الغالب قارئات كاتبات باللغة العربية يعقدن مؤتمرا سنويا عاما ويصدرن احكامهن فيه على النسوة المجرمات ويسهرن على الاعراف التقليدية

وللمرأة فى الاوراس حق الاتفاق مع من تريده زوحا لئلا يخطفها وذلك بلفها فى برنسها ونقلها أمام الناس الى منزل والديه ويطبق هنا المذهب المالكي فى كثير من الامور التى تهم المرأة وعلى المرأة فى الاوراس تحمل الاسمدة الى الحقل والفليج وتربية السوائم وغزل الصوف وصنع أواني الخزف واعداد الجلد وتجفيف الفواكه والخضر وصنع القطران وجهل المرأة بالغزل يمكن أن يعتبر سببا فى الطلاق

وفى جزيرة جربة بتونس كان يحظر على النساء الخروج من الجزيرة كما يحظر على الرجل ادخال اجنبية اليها والجريريون اباضيون مثل أهل مزاب وبرايرة جبل نفوسة فى طرابلس الغرب وسكان جربة متدينون جدا ويوجد فى جزيرتهم ٢٨٤ مسجدا علاوة على عدة قباب واضرحة وعند التوارك (توارك لتركهم الاسلام مرارا او لانهم ينتمون لتاركة احدى قبائل صنهاجة الملثمين) تتقن المرأة وحدها الكتابة غالبا وحظها فى الميراث مثل حظ الرجل والعفاف قليل والولد ينسب الى امه والمرأة تطلق زوجها وتزوج نفسها والرجل هو الذى يتلثم ونعزف المرأة على العود ونستغل بالموسيقى

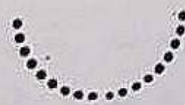
أما فى شنجيط فان المرأة محترمة وقد ذكر صاحب الجاش الربيط (ص ٣٧) ان المرأة سيدة البيت لامراقبة عليها من زوجها والرجل بمثابة الضيف ولا تباشر الخدمة بنفسها « وتمتاز نساء الزوايا بالقرأة فهن يشاركن الرجل فى التعليم والاشتغال بالفنون مع الصيانة وعدم الابتذال واذا نزل بهن الاضياف فى غيبة الرجل يحسنن اليه ضاربات المثل القائل بانه

ان كان الاسد يقتل فاللبوة تقتل كذلك والاغلب في شحيط عدم الاحتجاب « اما نساء الزوايا فكثير منهن يحتجبن تدينا ، ولباس المرأة بسيط تلتحف بثوب عريض طويل تشتمل ببعضه كقميص وتجعل الآخر فوق رأسها ثم تجعل طرفه امامها وترمى جانبه الاعلى فوق منكبيها وهذه هي الملحفة أو الملاية العربية ولا تكون الا من الكتان الاسود وربما ياخذ بعضهن مرطبا بدون اعتبار الصنف واللون وربما تجعل تحت الملحفة شعارا كالقميص ولباسهن هذا لا يتبدل كيفا ولا كما والصغيرة تستعمل اللباس كيفما اتفق ويعتني بكل اصناف الزينة حليا وطيبا وخطابا ويرتبن استعمالها على سنين كل سن وما يناسبه ولهن مهارة عجيبه في ظفر الرأس على حسب السنين واحسن الحلي خرز من الحجارة النفيسة مختلفة الالوان لامثيل له بالبلدان الاخرى ويلبسن أساور منمقة بالفضة وتصنع من شجر اسود اللون وهي تساري أساور الذهب والفضة ولا يغنى عنها التقدان ان وجدت

تلك أعراف يرجع وجود بعضها في المغرب لعوامل اقتصادية وللنصرة القبلية والعصبية الجماعية التي كانت متغلغلة عند البربر والتي رادها الاستعمار تشعب والآن وقد اعلن الاستقلال رمت وحدة البلاد وعاد القضاء الاسلامي الى مناطق العرف أصبح من السهل استئصال رواسب الجاهلية لاسيما في خصوص حرمان المرأة من الارث مع الاحتفاظ بما يوافق روح الشريعة والعرف الصالح ويمكن أن نستخلص من هذا العرض الطابع العام الذي كانت تتسم به المرأة في المغرب حاضرة وبادية وهو مزيج من النشاط والحيوية والصون مع ثقافة نسبية في كثير من النواحي ونفوذ حاسم في العائلة ودور اجتماعي واقتصادي يبلغ احيانا منتهى الخطورة واحترام مطلق عند الرجل حتى في اقصى تهم الجبال .

وقد افاد المغرب من حركة الانبعاث التي انبثقت من الشرق العربي اول هذا القرن فكادت المرأة المغربية تستعيد ما كان لها من سالف عز في الحقل الفكري لولا طروء افة الاستعمار على هذا البلاد وقد تبلور هذا الطموح الشعبي قبل الحماية (عام ١٣٢٦ الموافق عام ١٩٠٨) في مشروع الدستور الحفيظي الذي قرر احداث مدارس للبنات في كل بلدة وقرية وذلك في مرحلة اولية ريثما يتهيأ الفوج الكافي لفتح معاهد ثانوية نسوية

وبالرغم من السياسات الاستعمارية توفقت الحركة الوطنية تحت رعاية جلالة الملك وتشجيعه لتنظيم التعليم النسوي في المدارس الحرة ثم انشئت مدارس رسمية للبنات وخصص لهن قسم في جامعة الفروييين تخرجت منه بعض العاللات لأول مرة في تاريخ المغرب وتأسست جمعيات نسوية مختلفة وتطورت الحركة بعد الاستقلال بمؤسساتها الاجتماعية وجمعياتها الاسعافية تحت اشراف زعيمة النهضة النسوية الاميرة لالة عائشة ومساهمة اخواتها الاميرات والمغرب مقبل على انبعاث نسوي يشمل جميع طبقات الامة ولنا كل اليقين في ان تتحقق هذه النهضة في دائرة المبادئ الاسلامية بفضل العناية الخاصة التي يوليها صاحب الجلالة نصره الله لمستقبل المرأة في هذه البلاد



فهرس المراجع

المؤلف	الكتاب
عبد الرحمن بن زيدان (٥ مجلدات)	اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس
لابن ابى زرع (مجلدان)	الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
عباس بن ابراهيم (٨ مجلدات)	الاعلام بمن حل مراکش وانغمات من الاعلام
ليفى بروفنصال	اسبانيا المسلمة فى القرن العاشر
دوفنطان ماكسانج	اسماعيل الاكبر امبراطور المغرب
كوتيسى	اعراف المسلمين وعاداتهم
الضابط مارتان (١٩٢٣)	أربعة قرون من تاريخ المغرب فى الصحراء
ابن عذارى المراكشى	البيان المغرب فى أخبار المغرب
(ج ١ و ٢ طبعة بيروت وج ٤ طبعة تطوان)	تاريخ مسلمى اسبانيا
دوزى وزبادات ليفى بروفنصال ليد ١٩٣٢	التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى
ليفى بروفنصال ١٩٥٥	غرناطة للامير عبد الله بن بلقين
نشره جورج كولان عام ١٣٥٣ - ١٩٣٤	تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول
يوسف اشباخ الالماني (تعريب عبد الله عنان)	تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين
كواساك دوشافروبيير	تاريخ المغرب
هنرى طيراس (مجلدان)	تاريخ المغرب
كايسى	تاريخ الضعيف (مخطوط الخزانة العامة بالرباط)
اندرى جوليان	تاريخ الرباط
ليفى بروفنصال ١٩٣٨	تاريخ افريقيا الشمالية
(ميشو بيلير - الوثائق المغربية عام ١٩٠٧)	تأسيس فاس
روبير مونطانى	تنظيم المالية بالمغرب
لاحمد ابن القاضى - (طبعة فاس)	ثورة فى المغرب
دوجيا كومو	جلوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس
شكيب ارسلان	الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ١٩٣٦
كوستاف لوبون (الطبعة الفرنسية)	حفصة بنت الحاج الركونية
	حاضر العالم الاسلامى
	حضارة العرب

الكتاب

في خاصة السلطان بالمغرب
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ
القرن العاشر

درة الحجال في غرة أسماء الرجال

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب

المدارس في تاريخ المدارس

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية

الذيل والتكملة (مخطوط)

الروض الهتون

رحلة ابن جبير ترجمها وعلق عليها

زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي

الصحة والطب بالمغرب

ظهور الاسلام

«المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب»

المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي

المعجزة العربية

معجم البلدان لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي

«المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر»

مدارك القاضي عياض

المنتقى المقصور على ماثر خلافة المنصور

محاضرات

مؤرخو الشرفاء

مجلة المجمع العلمي

مجلة المغرب الطبى

مؤسسات وأعراف البربر بالمغرب

المغرب المجهول

ماهورية لم. ليون روش بالرباط عام ١٨٤٥

مدن المغرب وقبائله

المؤلف

كابرييل فير ١٩٠٥

لمحمد بن علي بن عمر الحسنى المعروف بابن

عسكر - الطبعة الحجرية بفاس

لاحمد بن محمد بن أحمد بن القاضي الرباط - ١٩٣٤

لابن فرحون (طبعة فاس)

لعبد القادر بن محمد النعيمى - جزآن اثنان

نشره ابن شنب - الجزائر ١٩٢٠

ثلاثة مجلدات

لابن غازى

كودفروا دومونبين (ثلاثة مجلدات)

نشره وترجمه الفريد بيل بالجزائر عام ١٩٢٢

الدكتور رينو (الجزائر ١٩٠٢)

أحمد أمين (الاندلس ج ٣)

(جزء من المسالك والممالك للبكرى) نشره

دوسلان بالجزائر عام ١٩١١

(طبعة سلا عام ١٣٥٧)

بقلم ماكس فنتيجو وتقديم الاستاذ ماسينيون

طبعة القاهرة ١٣٢٣ - ١٩٠٦ - ٨ مجلدات

لوحة جغرافية حسب ليون الافريقى بقلم

ماسينيون الجزائر ١٩٠٦

(النصف الاول مخطوط)

(مخطوط) لابن القاضي

ميشو بيلير المستندات المغربية عام ١٩٢٧

ليفى بروفتصال

(المجلد الرابع)

(عدد شتنبر ١٩٥١)

(سوردون)

مولييراس باريس ١٨٩٥

وثائق مخطوطة نشرها كايى - الدار البيضاء ١٩٤٧

الدار البيضاء والشاوية (المجلد الثانى)

الرباط وناحيته (المجلد الثالث)

الغرب (المجلد الرابع)

طنجة وناحيته (المجلد السابع)

الكتاب

المؤلف

مراكش

«المغرب المعاصر مملكة تنهار»

المغرب الحديث

«نخب من المسند الصحيح الحسن في ماثر

مولانا أبي الحسن» للخطيب ابن مرزوق

نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى

منتخبة من المجموع المسمى بمفاخر البربر

نيل الابتهاج بتطريز الديباج

نشر المثاني لاهل القرن الحادى عشر والثانى

نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى

نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين

نشرات معهد الدروس المغربية العليا

النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب

نزهة الحادى - ترجمة

الضوء اللامع لاهل القرن التاسع

العصور الغامضة للمغرب

غزو فاس

فاس وجامعتها والتعليم العالى

الفن الاسلامى

قضية المغرب

سلوة الانفاس

شهرات المغرب (مخطوط)

هسبريس مجلدات ١٤ و ٢١ و ٢٣ و ٢٦ و ٣٧

وصف افريقيا الشمالية والصحراء مأخوذ من كتاب

نزهة المستاق فى اختراق الآفاق للشريف الادريسي

وصف وتاريخ المغرب

وثائق مغربية غير مطبوعة

الوثائق المغربية

الوزراء والكتاب

ادمون دوتى

لودوفيك دو كامبو - باريس ١٨٨٦

جول اركمان - ١٨٨٥

ليفى بروفنصال - هيسريس ج ٥ عام ١٩٢٥

لمؤلف مجهول الفه عام ٧١٢ هـ - نشره ليفى

بروفنصال

لاحمد بابا السودانى (طبعة فاس)

لمحمد بن الطيب بن عبد السلام القادري -

مجلدان (المطبعة الخيرية فاس)

٤ مجلدات (بولاق)

عبد الله عنان

(عدد ٤٩ و ٥٠ و ٥١)

هوداس

للسخاوى (ج ١٢ خاص بالنساء)

كوتى

بقلم الكولونيل بول أزان

دلفان - وهران ١٨٨٩

جورج مارسى - مجلدان باريس ١٩٢٦

الهندسة الاسلامية فى الغرب ١٩٥٤

شارل لامارتينيير (طبع عام ١٨٥٩)

محمد بن جعفر الكتانى ٣ مجلدات (مطبعة فاس)

لمحمد العبدى الكانونى

(طبعه هنرى بيريس بالجزائر عام ١٩٥٧)

ليون كودار بيريس ١٨٦٠ (مجلدان)

دوكاستر

(مجلد ١١ عام ١٩٠٧)

للجهشيارى

دار السلام
دار السلام
دار السلام



فهرس الكتاب

صحيفة

الفصل

مقدمة المؤلف

تقديم علال الفاسي

1

وحدة المغرب العربي

17

الدولة العلوية وصون الاستقلال

20

اقتصاد المغرب في ألف عام

33

الجيش المغربي

44

الفن المعماري

62

العربية لغة العلم والحضارة

67

تمسك البربر بتقاليد الاسلام

73

الاقواف في المغرب والعالم الاسلامي

81

الصناعة التقليدية

108

المرأة المغربية

أصدرت وزارة التهذيب الوطنى تعليماتها (رسالة
بتاريخ ١٤ يراير ١٩٥٨ رقم ٣٤٥) الى جامعة القروين
وكليتى الحقوق والآداب والعلوم الاجتماعية ومديرى
الحى الجامعى والتعليم الثانوى الاسلامى بجعل الكتاب
رهن اشارة الطلبة

بعض الصور من مكتب السياحة ومصلحة الفنون الجميلة وكتاب مونطاني حول سوس

دار السلمي

على استعداد تام لتشجيع الادباء والمؤلفين المغاربة بطبع ونشر سائر ما تنتجه قرائهم في مختلف العلوم والفنون . ولحد الآن انجزت طبع الكتب الآتية :

- | | |
|---|-------------------------------|
| (١) مظاهر الحضارة المغربية: مجموعة أبحاث تاريخية قيمة | للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله |
| (٢) دروس الشكل والصرف : للمتوسط الاول والثاني | » ابراهيم حركات |
| (٣) التربية الوطنية : للقسم الابتدائي الثاني | » ابراهيم حركات |
| (٤) دروس المحادثة للقسم الابتدائي الاول | » ابراهيم حركات |
| (٥) معلم الكبار لمحاربة الامية في شهر واحد | » محمد بن حدو |
| (٦) الخطب الوطنية للناشئين | » محمد توفيق الكتاني |
| (٧) الاناشيد الوطنية : انتاج دار السلمي | » كريم العلوي |
| (٨) دروس الاعمال اليومية : لمعلمي المدارس العربية | » ابراهيم حركات |
| (٩) النحو والشكل والصرف للمتوسط الثاني | » عبد الله الجراي |

» ٩٠ قطعة للشكل »

صفحات من صفحات الماضي للكتلة الوطنية
وبالإضافة الى ذلك تعرض الدار للبيع بالجملة والتفصيل :

الحركات الاستقلالية للزعيم علال الفاسي

حديث المشرق في المغرب للزعيم علال الفاسي

في الطفولة للاستاذ عبد الحميد بن جلون

دماء في المغرب العربي

المغرب في طريق الاستقلال

الديمقراطية الاسلامية لابن عبود

جولة في مدن الاندلس للاممي

خريطة المغرب العربي انتاج دار السلمي

خريطة المغرب انتاج دار السلمي

كتاب نضال ملك للاستاذ محمد الرشيد ملين

دروس الاشياء للقسم المتوسط والتكميلي محمد الفشتالي

وتقوم بتوزيع

كتاب البعث

مجلة القضاء والقانون

مجلة دعوة الحق

مجلة شهرية

مجلة شهرية

مجلة شهرية

صدر للمؤلف :

بالعربية :

جغرافية المغرب (طبعتان)

سلسلة روايات فسي تاريخ المغرب نشرت في جريدة العلم

تاريخ الحركة الصوفية بالمغرب (نشر في مجلة رسالة المغرب)

مظاهر الحضارة (القسم الاول)

الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب

(جائزة تطوان الاولى عام ١٩٤٩)

وبالفرنسية :

التيارات الكبرى للحضارة المغربية

وسيطر اول عام ١٩٥٨

بالعربية :

رسل الفكر بين المغرب والشرق

الطب والاطباء بالمغرب

بعض الصور المنشورة هي لمكتب السياحة او مصلحة

الفنون الجميلة او لم . رويبرمونطاني (من كتابه حول قبائل

سوس)